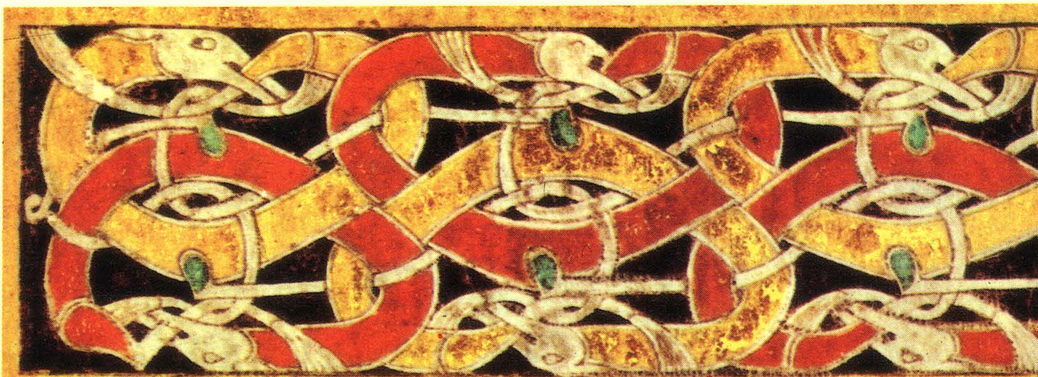
الشيخ عبد الله العلايلي

المعرّي ذلك المجهول

رحلة في فكره وعالمه النّفسي



دار الجديد

الشيخ عبد الله العلايلي

المعرّي ذلك المجهول

رحلة في فكره وعالمه النّفسي

دار الجديد

إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. □ صندوق بريد، ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان □ نضد النصوص، سناء سلامي وجميلة هزيمة □ انشاها كتاباً، علي حمدان □ ضبطها على اصولها، محمود عساف □ خط خطوط الغلاف، علي عاصي □ الفه، عمر حرقوص □ صورة الغلاف، زخرفة بحاشية مخطوط سَلتي من القرن السابع للميلاد.

على غرارِ الطَّبعة الثّانية الصادرة سنة ١٩٨١ والّتي قدَّم لها المؤلِّف بالتّالي:

«برُغْمِ ما فَصَلَ بينَ طبعتَيْ هذا ٱلكتابِ من زَمنٍ، لم أجِدْني في حاجةٍ إلى تَغْيير شيءٍ ممّا تَوَصّلتُ إليهِ، وفقَ منهجٍ آتّبعتُهُ، وأنا مُقتنعٌ، في درسِ فِكْرِ ٱلمَعرّيِّ الصّادرِ سنةَ ١٩٤٤، ولا سيّما فيما أبدَيتُهُ من آراءٍ، لم يَحُلْ بيني وبينَها ما صَدَرَ، من قبلُ ومن بعدُ، مِن آدّعاءاتِ تَرَدُّدِهِ وتَلَدُّدِهِ وحَيْرَتِهِ وما إلى ذلك. ومِن هُنا لم أرَ أنّي في حاجةٍ إلى كتابةِ مُقدّمةٍ لهذه الطَّبعةِ الثّانيةِ ٱلجَديدةِ ولكنْ لا يَسَعُني إلّا التنبيهُ على أنّي آستعملتُ حَرْفَ «ل» إشارة إلى اللّزوميات، طبعة بيروت وحرف «س» إشارة إلى سقط الزند، طبعة القاهرة».

... على غِرارِها، لم يَجِدْهُ، بمناسبةِ هذه الطَّبعةِ، في حاجةٍ إلى تغييرِ شَيءٍ ممّا تَوَصَّلَ إليه.

«إنَّ التَّعَقُّبَ عَلى ٱلكُتُبِ سَهْلٌ بالنِّسْبَةِ إلى تَأْليفِها وَوَضْعِها، كما يُشاهَدُ في ٱلأبنيةِ حيـنَ يَعْتَرِضُ على بانيها مَنْ عَرِيَ في فَنِّهِ عنِ ٱلقُوى وَٱلقُدَرِ، بحيثُ لا يَقْدِرُ على وَضْعِ حَجَرٍ على حجرٍ».

حاجي خليفة، في كتابه **كشف الظنون**.

وهذا جوابي عمّا يُرَدُّ على كتابي.

مقدّمة

لَيْسَ هذا ٱلكتابُ تَرْجَمَةَ حياةٍ في حُدودِها من السَّعَةِ أو الضّيقِ، وفي مِقْدارِها من الضَّخامةِ أو الضُّمورِ، وإنّما هو تَرْجَمَةُ فِكْرٍ فقطْ، ولَيْسَ في كُلِّ منازِلِهِ أيضاً.

فإنَّ ٱلحياةَ ـ وهي مُتَحَيِّزَةٌ بمادّيَّتِها، بما فيها من عُنْصُرِ ٱلواقِعِ ـ تَظَلُّ ٱستعادتُها، على مُخْتَلِفِ ألوانِها ومظاهِرِها، مُبهَمةً أو أشدَّ مُجانَبَةً للوُضوحِ، فكيفَ بٱلفِكْرِ غَيْرِ ٱلمُتَحَيِّزِ، غَيْرِ ٱلمَحْدودِ.

ولا سِيَّما هذا ٱلفِكْرُ ٱلّذي نُعنى بفَهْمِهِ وشَرْحِهِ، أو بٱلحَرِيِّ ٱلّذي نُمَهِّدُ السّبيلَ إلى فَهْمِهِ وشَرْحِه. فقدْ نَبَتَ في ٱلغُموضِ، وشَدَّ حَوْلَ ذاتِه هالاتٍ كثيفةً من التَّعميَةِ في قَصْدٍ، بل في لذَّةٍ أيضاً:

إذا قُلْتُ ٱلمُحالَ، رَفَعْتُ صَوْتي

وإن قُلْتُ ٱليَقينَ أطَلْتُ هَمْسي (ل٣/٥٦)

وتصَوّرْ أنّى تبلُغُ التَّعْميةُ بمَنْ كَبَتَ على نَفْسِه كُلَّ لذّاتِها لتَنْطلقَ مُتَدَفِّقةً في شكلٍ حادٍّ من السُّخْر بأشياءِ النّاسِ، وكان أقسى نِكايةً حينَما

قَصَدَ إلى التَّلهّي بأفكارِهِم على ذلك النَّحوِ من ٱلإيغال.

على أنّ ٱلعُرْفَ سَبَقَ بٱلمُسْتَسِرّينَ، أنّهم ٱستعملوا «التّغبيرَ» إلغازاً وضنّاً بما ٱنطَوَوْا عليه، ودَرَجُوا فيه نَسَقاً مع أبي الطيّب:

إذا شاءَ أن يلْهو بِلِحْيَةِ أحمقٍ
أراهُ غباري، ثمّ قالَ له: ٱلْحَقِ!

إنّ ٱلمَعرّيَّ ـ برُغمِ ما يُرى في هذا ٱلإيغالِ من أنّه عُنْصُرٌ مُهِمٌّ بسبيلِ التَّسامي النَّظريِّ، بسبيلِ ٱلإدراكِ التَّجْريديِّ ـ كان يَجِدُ فيه لُبانَةَ هوىً ولذاذةَ هوىً ووُلوعٍ:

لا تُقَيِّدْ عليَّ لَفْظي فإنّي
مِثْلُ غَيْري، تَكَلُّمي بٱلمَجازِ (ل٢/٣٢٩)

فَنَحْنُ من هذا ٱلفِكْرِ أمامَ شيءٍ مُسْتَغْلَقٍ أشدَّ ٱستغلاقٍ، مُبْهَمٍ أشدَّ إبهامٍ، أمامَ شيءٍ ٱستوى في التَّعقيدِ وحُبِّبَ إليه، فهو لا يُفْصِحُ عن كُنْهِهِ، وإذا أفصَحَ أحياناً فِلكَيْ يكونَ طريقاً إلى تعقيدٍ جديدٍ.

ولذلكَ لنْ نأخُذَه جُمْلَةً بل تفصيلاً، ولن نأخُذَه في كُلِّ أدوارِ ٱستحالتِه بلْ في دَوْرِها ٱلأخيرِ فقطْ، ٱلّذي ٱستمْكَنَ ٱلمَعَرّيّ عندَه وٱستَوْفَزَ ليقولَ كلمَتَه ٱلمُطْلقةَ؛ ذلك الدّورِ ٱلّذي ظَلَّ، برُغمِ الدِّراساتِ له[1]، في مَعْزِلٍ كبيرٍ عنها:

أوْفِ دُيوني، وخلِّ أقْراضي،
مِثْلُكَ لا يَهْتَدي لأغْراضي (ل٣/٩٨)

وإنّما جاءَتْ تلكَ الدّراساتُ ٱلمُشارُ إليها، مثْلَما نقولُ، مُتردِّدةً حائرةً

(١) راجعْ دراسات مرجليوث، طه حسين، الميمني الراجكوني، الكيلاني، إلخ.

ودونَ ما يَنْبَغي لها أن تكونَ، بل مُبتَسَرةً في كثيرٍ منها، ومُرْتَجلَةً في بعضٍ منها، لكَوْنِها لم تَجْرِ وفْقَ مَنْهَجٍ مُحَقَّقٍ فأخْطَأتْ بذلكَ أُصولَ الدَّرسِ ٱللّازمةَ، حينَ أتَتْ وليسَ لها طريقةٌ مَنْهَجِيّةٌ تَحْرِصُ على ٱتّجاهٍ بعينِه، فكانَتْ مُمَيَّلَةً بينَ فُروضٍ شَتّى ألقَتْ بنا من ورائِها في تَخَبُّطٍ كبيرٍ، زادَنا بٱلمَعَرّيّ وَحْشَةً وٱستخْفاء...

نَعَمْ، لم تكُنْ لتلكَ الدِّراساتِ طريقةٌ مَنْطِقيّةٌ أو مَوْضُوعيّةٌ يَسْتقيمُ لها أن تُفرَغَ في صِيَغٍ مَنْهَجيَّةٍ، مِن شَأْنِها أن تُسْلِمَنا إلى نتائجِها إسلاماً عَفَويّاً، في ٱتّفاقٍ أو ٱختلافٍ يسيرٍ.

والدِّراساتُ غيرُ «ٱلـمُمَنْهَجَةِ»، إذا صَحَّ هذا التَّعبيرُ، يكونُ الشّخصُ الدّارسُ هو ٱلعُنْصُرَ ٱلبارزَ، فيرتئي ويُلفِّقُ الدِّراسةَ على شاكِلَةِ ما ٱرتأى، ضامّاً ألْفافَها مِن هُنا وهُناك في عَناءٍ يُعَبِّرُ عن أنّه مَدْخولٌ مَصْنوعٌ.

على أنّ من ٱلـمفروغِ منه، أنّ درسَ أيِّ إنتاجٍ، فنّيّاً كانَ أو أدبيّاً، فَلْسفيّاً أو عِلْمِيّاً، يَقْتَضينا الطَّريقَةَ أو ٱلـمَنْهَجَ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ، وهذا بالتّالي يَضَعُنا أمامَ نتائجَ مُعَيَّنةٍ، وإن بَدَتْ مُتَفاوِتَةً، لأنّ مَردَّ تفاوُتِها، من بَعْدُ، قُدرَةُ ٱلباحِثِ على التّناوُلِ. أمّا إذا كانَ ٱلعَكْسُ، أيْ بَحْثٌ ولا مَنْهَجَ، فهناكَ ٱلٱرتجالُ وٱلٱبتسارُ.

وليتَ دارِسي ٱلـمَعَرّيّ خَفَضوا من غُلَوائِهم فلم يَقْطَعوا فيه، ولو أنصَفوا لأَخذوا أنفُسَهُم بما أخَذَ به ٱلـمَعَرّيّ نَفْسَه في قَوْلِه:

أمّا ٱلـيَـقـيـنُ، فَـلا يَـقـيـنَ، وإنّمـا
أقْصى ٱجْتِهادي، أنْ أظُنَّ وأحْدِسا (ل٣/٣٦)

ولذا ٱنصَبَّ ٱهتمامي على الطَّريقةِ ٱلّتي أُقيمُ لها وزناً أكبرَ من الدَّرْسِ نَفْسِهِ، ما دامَ لا يُعَبِّرُ إلّا عن جَهْدٍ شَخْصيٍّ، وهو لا يكونُ مُشْتَرَكاً،

فكيفَ يَصِلُنا مِمَّنْ نُديرُ ٱلبَحْثَ عَلَيه، في قَطْعٍ وتَأْكيدٍ.

أمّا حينَ يَدْخُلُ الدَّرْسَ، أي ٱلجَهْدَ، عنصرُ الطَّريقةِ، فَمَعْناه أنّ ٱلجَهْدَ الشّخصيَّ ٱنطلَقَ من قاعدةٍ مَوْضوعيّةٍ، وتَخَصَّبَ بنواةِ تَخَمُّرِه، وقيمَتُه تكونُ بِمِقْدارِ ٱتّصالِ هذهِ الظّاهرةِ، ظاهرةِ التَّخمُّرِ، في نَواحي الدّرسِ أو عَدَمِ ٱتّصالِها.

ولذا نُلاحظُ ٱليَوْمَ، في كُلِّ دوائرِ ٱلبَحْثِ، على تنوُّعِها، ٱهتماماً أشدَّ بالطَّريقةِ، ولذا نُحِسُّ عندَ النَّقْدِ أيضاً، تَحْتَ هذه الرّغبةِ، بِمَيْلٍ مُلِحٍّ إلى تَصْنيفِ ٱلأُدباءِ مَثَلاً ضِمْنَ مدارسَ، ليكونَ نَقْدُهم أكثرَ تحديداً للطريقةِ وإلماماً بها. وبديهيٌّ أنّ الدّارسَ لن ينتهيَ إلى فهمٍ حقيقيٍّ لأيِّ أديبٍ من أيّةِ مدرسةٍ، إذا لم يكُنْ مُلِمّاً بمناهِجِها ٱلّتي ٱسْتَنَّها أُسلوباً وسبيلاً إلى التَّوْليدِ وٱلإبداع.

وهذا لا يَعْني إنكارَ أنّ ٱلعَبْقَريّةَ أحياناً، وبٱلأحرى في ٱلكثيرِ ٱلغالبِ، لَيْستْ تَخْضَعُ للطُّرُقِ وٱلمَناهجِ، لأنّ ٱلعَبْقَريّةَ ـ وهي إذ تَتَحَلّلُ من قُيودِ طريقةٍ ما ـ تَصْطَنِعُ لنفسِها طريقةً خاصّةً تلتزِمُها وتأخُذُ بأسبابِها.

وربّما كانَتِ الطَّريقةُ أهمَّ نواحي ٱلعَبْقَريّةِ فيما تهَدَّتْ إليه، وهذا جَلِيٌّ كالضَّحاءِ، فما من عبقريّةٍ إلّا وأبرزُ ما فيها الطَّريقةُ ٱلّتي تَحُضُّ على مَنْهَجٍ في ٱلفِكْرِ، لا يلْبَثُ حتّى يغدوَ طابَعاً ثابتاً يُمِدُّ ٱلأحياءَ وأفكارَهُم بألوانٍ جَديدةٍ، ويُغْريهِمْ بأشياءَ من ٱلخَلْقِ وٱلآبتكار.

ولَيْسَ مَنْ يَرْتابُ في أنّ عَظَمَةَ أرسطو لَيْسَتْ في التَّفْسيرِ والتَّعْليلِ ٱلفَلْسَفيَّيْنِ، بِمِقْدارِ ما هي كامنةٌ في طريقتِهِ ٱلمَنْطِقيّةِ ٱلّتي حَدّدَتِ ٱلفِكْرَ ٱلفَلْسَفيَّ والنّظرَ ٱلمُجَرّدَ.

والصُّعوبةُ ٱلّتي نُعانيها في دَرْسِ ٱلعَبْقَريِّ تَنْصَبُّ بأكبرِ قِسْطٍ على

الطّريقةِ، وبأقلٍّ نصيبٍ على نواحي آمتداداتِها ٱلأُخرى وجوانبِها ٱلمُتَفَيِّئةِ. ولا سيّما إذا كان ٱلعَبْقَريُّ مَجْهولَ ٱلغاياتِ مُهَوِّشاً، أو عامداً بٱلقَصْدِ، إلى إخفاءِ مَعالمِ طريقهِ وسبيلِ ٱلآهتداءِ إليه، ومُبَعْثراً للتَّعميةِ صُوَى الدُّروبِ ٱلّتي جَهِدَ بٱكتشافِها وجَهِدَ بتعبيدِها، مِثْلَ عَبْقَرِيِّنا أبي ٱلعلاءِ:

ولـيـسَ عـلـى ٱلـحـقـائـقِ كُـلُّ قَـوْلـي
ولـكِـنْ فـيـه أصْـنـافُ ٱلـمَـجـازِ (ل٢/٣٢٦)

حتّى الطَّبيعةُ نفسُها، وحتّى جَهْدُنا ٱلفِكْريُّ ٱلكادحُ حيالَها، بل كُلُّ ما أعطى ٱلفِكْرُ ٱلبَشَريُّ ويُعطي من إنتاجٍ فلسفيٍّ وعلميٍّ وحَيَويٍّ وآجتماعيٍّ وفنيٍّ، ليسَ أكثرَ من أنّه بحثٌ في الطَّريقةِ الثّابتةِ في الطَّبيعةِ وٱلحياةِ وٱلفِكْرِ، ٱلّذي أبدَعَ في نفسِهِ ٱلمَجْهولَ وٱلمُطْلَقَ والتَّجريدَ...

فنحنُ، لذلكَ، لن نَفْهَمَ ٱلمَعرّيَّ ولن نَفْهَمَهُ أبداً، ما لم نَتَمَكّنْ مِنِ آستخلاصِ طريقتِهِ ونَتَمَكّنْ مِنِ آستخدامِها بسبيلِ ٱلوصولِ إليه والنُّفوذِ إلى أغوارِ فَلْسَفَتِه.

فعلينا، إذاً، أن نَجْمَعَ ٱلجَهْدَ لإبانةِ الطّريقةِ النَّظريّةِ عند ٱلمَعَرّيِّ قبلَ أيِّ آعتبارٍ، ثمّ نَمْضي في مُحاوَلَةِ شَرْحِهِ وعَرْضِهِ على ضَوْئِها جَهْدَ الطّاقةِ ٱلبَشَريّةِ، ٱلمحدودةِ ٱلآختيارِ وٱلآستجاباتِ والطّواعيّات.

«ويَسُرُّني أن أُنبّهَ هنا إلى أنّه لا يَحْسُنُ بقائلٍ أن يقولَ ويقطَعَ القولَ، وبالأخصّ في القضايا ٱلّتي تزدادُ تَعقيداً بما تزدادُ به تركيباً.

فقدْ يدخُلُ في حدِّ ٱلمُستَطاعِ أن يَجيءَ قائلٌ بأحْسنِ ما قيلَ، وأمّا بأحسنِ ما يُقالُ، فإنّها مَنْزِلةٌ لم يَبْلُغْها ٱلعَقْلُ ٱلبَشَريُّ، فكَيْفَ بٱلعَقْلِ الشّخصيِّ.

فأنا لذلك أعْرِضُ شُروحي عَرْضاً خالصاً دونَ ما تحكُّمٍ، لأنّي أعُدُّهُ

إغفالاً للعَقْلِ ٱلعامّ وتغريراً بالنُّفوسِ ٱلمُتفتّحةِ ٱلمُتقبّلةِ، ودونَ ما تحدٍّ لأنّ الصّراعَ ٱلفكريَّ يَفْقِدُ رَوْعَتَه وجلالَه في عَصَبيّةِ الرّأي ونَزَعاتِ الشّخْصيّة.

وٱلمُنْصِفونَ ٱلّذين يَحْتَرِمونَ ٱلآستعدادَ ٱلإنسانيَّ لا يكتبونَ لكيْ يُتابِعوا، بل ليُصحِّحوا تفكيرَهم بالنّقدِ، والتّفكيرَ ٱلعامَّ الشّائعَ أيضاً. ولا يَنْقُدونَ لعَبَثٍ أو شهوةٍ، لأنّ النَّقْدَ الشَّهْويَّ يُبَلْبِلُ فِكْرَ ٱلجُمهورِ، ويُلقيهِ في حَيْرَةٍ ممّا يَنْبغي أن يقتَنِعَ به ويُضيفَه إلى مَجْموعتِه ٱلعقليّة»[٢].

ونحنُ هنا لا نختَلِفُ، بل على ٱلعَكْسِ، نتّفقُ، وفي حَدٍّ كبيرٍ، معَ مَن ذَهَبَ من دارسي أبي ٱلعلاءِ يُقرِّرُ أنّنا، حيالَ آثارِه، نَحْتاجُ إلى ٱلآتّصالِ بثقافاتٍ شتّى وبكُلِّ منابعِ ٱلفِكْرِ ٱلبَشَريِّ ٱلمُخْتَلِفَةِ. بيْدَ أنّنا لا نَنْهَجُ هذا النَّهْجَ ونُلاحِظُ هذه ٱلمُلاحظةَ في جَنْبِ ٱلمعرّيِّ وَحْدَه، بلْ في جَنْبِ كُلِّ مُفكّرٍ من طِرازِه أو غيرِ طِرازِه.

ففي نَظَرِنا أنّ كُلَّ ما سَبَقَ وأعطاهُ ٱلمُفَكِّرونَ من إنتاجٍ، يؤلِّفُ «أبجديّةً للفِكْرِ» مِثْلَ ٱلألفاظِ تماماً، وٱلّذين يَلونَ فَيُرَكِّبونَها ألفاظاً فكريّةً في دَوْرٍ، وجُمَلاً فكريّةً في دَوْرٍ آخرَ، وتراكيبَ أُسلوبيّةً في دَوْرٍ فَوْقَ ذلكَ، وأيضاً يَمْضونَ فَيَقْرؤونَ بها مُنْتَجاتِ ٱلأفكارِ، ٱلمُتَّصِلَةِ التَّوليدِ، الدَّائمةِ ٱلآبْتكارِ.

فٱلبَحْثُ عن مقاديرِ التأثُّرِ عندَ أيّةِ شَخْصيّةٍ من شَخْصيّاتِ ٱلفِكْرِ، عَناءٌ يدورُ حَوْلَ نَفْسِهِ دونَ طائلٍ. فما مِنْ فِكْرٍ مُتَمَيِّزٍ[٣] إلّا وهو مُتأثِّرٌ بقَصْدٍ

(٢) أُنظر كتابي **دستور العرب القومي**، ص ٤٠، ط بيروت، سنة ١٩٤١.

(٣) المُتَمَيِّز هنا بمَعْنى ٱلمُتَفَرِّد عن نظائِرِه؛ ووردَ في آستعمال ٱلقُدامى العباسيّين بٱلمعنى ٱلمذكور، وليسَ بمَعْنى ٱلمُتَقَطِّع لأنّه من ٱلميز بمَعْنى ٱلقَطْعِ وفَصْلِ شيءٍ عن شيءٍ، عَلى أنّ الصَّوابَ الصَّوابَ هو ٱلمُتَمَزّي أي ٱلمُتَّسِمُ بمَيْزة، ولكنّه شاع.

ودون قَصْدٍ، وما من فِكْرٍ مُتَمَيِّزٍ إلّا وهو مُبْتَكِرٌ في نِسبٍ كبيرةٍ أو قليلةٍ، واسعةٍ أو ضيّقةٍ.

إنّ طائفةَ ٱلإنتاجِ أبجديّةٌ فِكْرِيّةٌ تُضيفُ إلى الشّخصِ صِفَةَ التَّفَهُّمِ، كما تُضيفُ أبجديّةُ ٱلحروفِ إليه صِفَةَ ٱلقراءةِ. وكذلكَ تُضيفُ إليه، من ناحيةٍ أُخرى، صِفَةَ التَّفَكُّرِ وٱلإبداعِ فيه، مِثْلَما تُضيفُ أبجديّةُ ٱلحُروفِ إليه صِفَةَ ٱلكتابةِ وٱلإبداعِ فيها.

هذا شيءٌ لَيْسَ به رَيْبٌ في كثيرٍ أو قليلٍ، فمن ٱلجَهْدِ الضّائعِ أن نُوَفِّرَ ٱلقُوى على دَرْسِ مناحي التأثُّرِ وإحصائِها، ما دامتْ هي بالذّاتِ حُروفَ ٱلفِكْرِ ٱلّتي يُؤَلِّفُها كَلِماتٍ، ويُرَكِّبُها جُمَلاً وعباراتٍ ذهنيّةً[٤].

وليسَ يَهُمُّنا أن نَعْرِفَ عِنْدَ مَنْ نَدْرُسُهُ أقاليمَ ٱلأفكارِ وآباءَها، بِمِقْدارِ ما تَهُمُّنا مَعْرِفَةُ كَيْفَ ٱستحالتْ هذه ٱلفِكْرَةُ وتَخَلَّقَتْ في وُجودٍ آخرَ، وكَيْفَ ٱستوَتْ وهي مِثْلُ خلايا في كائنٍ فِكْريٍّ جديدٍ.

ومَهْما يكُنْ من شيءٍ، فأبو ٱلعلاءِ وُفِّقَ إلى ٱلاتّصالِ بأبْجَديّةِ ٱلفِكْرِ يومَذاك على وَجْهٍ يكادُ يكونُ كامِلاً، فلم تَكُنْ أبجديّتُهُ ناقِصَةً في شِبْهِ تأكيدٍ. وغيرُ بعيدٍ، في ٱلوقتِ ذاتِهِ، أن تكونَ مُشوّشةً في حدٍّ ما، ولذلكَ ٱستقامَتْ عبارَتُه ٱلفِكْرِيّةُ أحياناً، ولم تستَقِمْ أحياناً أُخرى؛ وكأنّه أدرَكَ هذا ٱلإدراكَ نَفْسَه، وأخَذَ به جوهرَ فِكْرِهِ، فقالَ:

وعالَمُنا ٱلمُنْتَهي كالصَّبِيِّ
قيلَ لهُ في ٱبتداءٍ: تَهَجّ (ل١/٢٩١)

(٤) هذا ٱلمفهومُ ٱلقائلُ بأنّ ٱلأفكارَ ٱلمُقْتَبَسَةَ ليسَتْ أكثرَ من أبجديّة، يُريكَ خَطَأً دارسي ٱلمعرّيّ ٱلّذين أضاعوا جُهودَهُم في إيضاحِ أنّ ٱلفِكْرَةَ ٱلفُلانيّةَ عِنْدَهُ هِنْدِيّةٌ أو أُخرى إغريقيّة... إلخ، ما دامت كُلُّها حروفَ أبجديّة، ٱلمُفَكِّر يُرَكِّبُها على ما يرى، فتذوبُ عِنْدَهُ في جَوْهَرِ فكرٍ جديد.

وبهذه آلمُناسبةِ يَجْدُرُ أن لا يفوتَنا التّنبيهُ على أنَّ أكبرَ ما تأثّرَ به في أوّليّتِه وتركّزَ في خَيَالِه، كانَتْ **رسائلَ إخوانِ الصّفا** وطائفةَ أفكارِهم، ولقد ظَلَّ خاضِعاً لخُطوطِها آلأكثرِ عُمْقاً وشمولاً. ولولا أنّه لَيْسَ مِن مَوْضوعِ التّأْريخِ لآخرِ أدوارِ آستحالتِه آلّذي هو مَوْضوعُ هذا آلكتابِ، لَتَوَفَّرْنا على عَقْدِ بَحْثٍ مُقارنٍ مُسْتَفيضٍ بينه وبينَهم، يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ في صِدْقِ هذه آلعَلاقةِ وأحقّيَّتِها.

ولكنّنا نُشيرُ، مع هذا، إلى أنّ أيّةَ فِكْرَةٍ تُعبّرُ عن «كَمٍّ إراديٍّ»، وهي بما فيها من هذا آلعُنْصُرِ تَمَسُّ آلبَشَريَّ آلقارِىءَ بَنَوْعٍ من التّنْويمِ آلآستهوائيِّ أشبهَ بالتّنويمِ آلمغنطيسيِّ[٥]، ثُمّ تَذْهَبُ به مُستغرقاً في جوِّ أحلامِها الضّاغطِ، على أنّه يَسْتَيْقِظُ أخيراً، يقظَتَه من حُلُمٍ مزعجٍ، وأبو آلعلاءِ كانَ حُلُمُه مُزْعجاً دونَ شكٍّ، فهبَّ مُتأفّفاً في صَخَبٍ، ومُستنكِراً في تَحْطيمٍ.

ومهما يَكُنْ، فشِعاري في هذا آلكتابِ، مِثْلُهُ في كتابٍ سابقٍ «ليسَتْ تَمْنَعُني غرابةُ رأيٍ أظنُّ أنّه صَحيحٌ أو أعتقدُ صِحّتَهُ من إبدائِه، كما لا يحولُ بَيْني وبَيْنَ رأيٍ أنّه قليلُ آلأنصارِ. فإنَّ آلحَقيقةَ لم تَعُدْ تُنالُ بالتّصويتِ، كما أنّ آلانتخابَ من عَمَلِ الطّبيعةِ وهي لا تُغالِطُ نفسَها كما لا تَعْمِدُ إلى التّزوير»[٦].

(٥) هو ما يُسَمّيه عُلَماءُ النفس: عَدوى آلفِكْر أو الشّعور، فكثيراً ما يقرأُ آلمرءُ كتاباً أو موضوعاً، فيُصيبُهُ بعدواه في حدٍّ ما، ويأخُذُهُ تحت سَيْطَرَتِهِ زمناً يطولُ أمدُهُ أو يَقْصُر.

(٦) أنظر كتابي **تاريخ الحسين: نقد وتحليل**، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار الجديد، ص ٤٤.

مدخل إلى عصر المعرّي

لَيْسَ من شَكٍّ في أنَّ عَصْرَ ٱلمَعَرّيّ كانَ أضْخَمَ عَصْرٍ فِكْريٍّ بينَ كُلِّ عُصورِ ٱلحَضارةِ ٱلعربيّةِ، برُغمِ ما سادَهُ مِنِ ٱضطرابٍ سياسيٍّ، حتّى لقدْ بدا مُتْخَماً بما هَضَمَ، ومحموماً أيضاً بما لم يهضِمْ.

فقدْ أفسَحَ ٱلمُجْتَمَعُ ٱلعَرَبيُّ من جَوانِبِهِ، قَبْلَ قَرْنَيْنِ، لِكُلِّ فِكْرٍ وكُلِّ ثقافةٍ، وَتَحرّكَ ٱلمُجْتَمَعُ، بما فيهِ من كِفاياتٍ وٱسْتعداداتٍ، حَرَكَتَهُ ٱلواسعةَ ٱلخُطى، ٱلجبّارةَ التَّدفّق.

وكانَ من هذا ٱلآلتقاءِ وٱلمُزاوَجَةِ ٱلحضاريّةِ، خِصْبٌ أيُّ خِصْبٍ، وثَراءٌ أيُّ ثراءٍ، في كُلِّ نواحي ٱلمَعْرِفةِ، كما كانَ هذا ٱلآلتقاءُ أيضاً باعثاً لأعاصيرَ شتّى دارَتْ بٱلفكرِ وبٱلعقيدةِ في مداراتٍ مُضطربةٍ مُضطرمةٍ، فتركَتْ أُخدوداً هنا ونُتوءاً هناك، ومن بَيْنِهما عَفاءٌ أو بَعْثَرَةٌ.

وقدِ ٱتّصلَ ولَمْ يتراخَ هذا ٱلإعْصارُ الدّائرُ على نَفْسِه، وٱلعاصفُ بكُلِّ ما عَلِقَ به، بِعَصْرِ أبي ٱلعلاءِ، بل لَعَلَّهُ زادَ فيه حِدَّةً وعُنْفاً، فقدِ ٱسْتَكمَلَتْ كُلُّ ٱلمدارسِ ٱلفِكْريّةِ نظريّاتِها ووسائِلَ نضالِها؛ من كلاميّةٍ وفلسفيّةٍ

وصوفيّةٍ وحديثيّةٍ وفِقْهيّةٍ، وما تَفَرَّعَ مِنْها وٱنقسَم عنها. أضِفْ إلى هذا كُلِّهِ نزولَ ٱلباطنيّةِ إلى ٱلـمَيْدانِ بكاملِ قُوّتِها، مُسْتفيدةً من سوءِ ٱلوَضْعِ السِّياسيِّ وٱلٱجتماعيِّ ٱلبالغِ، ومن غَيْبِيَّتها ٱلخالبةِ ٱلأَخّاذة.

وهذا عُنصُرٌ ٱستهوائيٌّ أخّاذٌ بعيدُ نواحي التّأثيرِ، وبٱلفِعْلِ ظَهَرَ أثرُهُ سَريعاً، حتّى لقد طَبَعَ ٱلإنتاجَ ولُغَتَه، يومَذاك، بطابَعٍ ثابتٍ، وأرْبى نَزْعَةَ ٱلـمَجْهولِ وٱلـخفاءِ إلى حدٍّ ٱلٱستهتارِ. وأجِدُني مُطْمَئِنّاً، وأنا أُقرِّرُ في تأكيدٍ، أنَّ نَزْعَةَ ٱلـمَجازِ والتَّكَلُّفِ له وٱلكَلَفِ به، كانَتْ مُتأثّرةً إلى أبعدِ حَدٍّ بما بثَّتِ ٱلباطنيّةُ من هذا ٱلعُنْصُرِ ٱلٱستهوائيِّ وما نشَرَتْ من لَوْنٍ مُشْبَعٍ مديدٍ.

وليْسَ لنا ٱلآنَ أنْ نأخُذَ في تَفْصيلٍ يتناولُ ٱلحرَكَةَ ٱلفِكْريّةَ، إبّانَ عَصْرِ ٱلـمَعَرّيّ، ونحنُ نخُصُّ هذا ٱلكتابَ بدَرْسِه كائناً فَلْسَفيّاً مُتَوَحِّداً، بَلْ نَكْتفي بإشاراتٍ وصْفيّةٍ عارِضَةٍ.

في ذلك ٱلإعصارِ ٱلـمُتناهي بالضَّجيجِ والذُّعرِ، كانَ فَتاءُ ٱلـمَعَرّيّ وتَـحَرُّكُ ذِهْنِهِ للمَعْرِفةِ، وتَنادي قُواهُ ٱلـمَعْنويّةِ للإدراكِ. فلا جَرَمَ ٱتّصلَ بٱلفِكْرِ من أقطارِه وفَعَلتْ فيه طائفةُ تلكَ ٱلأفكارِ فِعْلَها، ومادَتْ بها نفسُه مَيَداناً شَديداً، هَزَّ مشاعِرَهُ وهيّأَ له أخيراً ٱلوَثْبَةَ ٱلخاطفةَ إلى ٱلأُفُق.

وٱلـمَعَرّيُّ لـم يَكْتُمْنا هذه النّاحيةَ من نَفْسِه، فقد تَـحَدَّثَ إلينا بها على نحوٍ واضحٍ صريحٍ في رِسالتِه إلى أهل ٱلـمَعَرّة.

إنّه يُثْقِلُه ما قدْ أثقلَ عَقْلَ ٱلـمُجْتَمَعِ حينذاكَ، ويُشْقيه أيضاً ويَعيا بحَمْلِه في عناءٍ شديدٍ، ولقد أحسَّ بما يزيدُ ثِقْلُه أكثرَ وأكثرَ، قربَ النّاسِ ٱلـمُتَصايحينَ بحَميّاتِ ٱلفِكْرِ، وٱلهاذينَ بخَيالاتِ هُلاسِها. فٱشتدَّ به ٱستنكارُه لهمْ وشَعَرَ بما يُقْصيهِ عَنْهُم في عُنْفٍ وقَسْرٍ، إنّهم تائهونَ

مُسْتَسْلمونَ يَزيدونَ في مَعْنى حَيْرَتِهِ وفي ألوانِها، وآسمَعْه كيفَ يقولُ:

بُعدي من النّاسِ بُرءٌ من سَقامِهِمُ،
وقربُهُمْ للحِجى والدّينِ، أدواءُ
كالبيتِ أُفْرِدِ[1] لا إيطاءَ يُدرِكُه
ولا سِنادٌ، ولا في اللّفظِ إقواءُ (ل١/٥٦)

إنّه، حينَ يَخْلُطُهم بنفسِه، يُضيفُ إليها أدواءَهم على حِدَّتِها وشُبوبِها، ولذا بَدَأَ يَمْقُتُهم، وهو يَمْقُتُ، بمَقْتِهم، الجَهْلَ الشّامخَ والإيمانَ المُكابرَ والعَقْلَ المريضَ. نَعَمْ، هو شَقيٌّ من نوعِ شَقاوتِهم، ولكنْ بِحَسْبِه أنّه يُكافحُ في الإعصارِ دونَ هَوادةٍ، مُطمئنّاً إلى أنّ البارقةَ الهاديَةَ لا تَلْبَثُ أنْ تَنْقَدِحَ، ولم يَطُلِ الصِّراعُ به كَثيراً حتّى آنكشفَتْ عَقابيلُه عن خُيوطِ النّورِ تعترِضُ الأُفُقَ الجديدَ، الّذي آستوى المَعَرّيّ عليه في كَوْنِ الفِكْرِ...

إنطَلَقَ يَخُفُّ بما تَنَوَّرَ في نَفْسِه يُحاذرُ سُحُبَ النّاسِ وغُيومَهُمُ الحالكةَ أنْ تَمُرَّ عليه، فآنْزوى مُجافياً ونأى مُباعِداً، عن سَنَنِ حياتِهم وأفكارِهم، وتَوَحّدَ نتيجةَ فِكْرَةٍ مُطْلقةٍ بهذهِ الرّغبةِ الّتي غدَتْ جُزءاً من مَنْهَجِ السُّلوكِ التّأمّليِّ عِنْدَه، على ما آنتهَتْ به فَلْسَفَتُه:

وماذا يَبْتَغي الجُلَساءُ عِنْدي،
أرادوا مَنْطِقي، وأردْتُ صَمْتي
ويُوجَدُ بينَنا أمدٌ قَصِيٌّ
فأمّوا سَمْتَهم وأمَمْتُ سَمْتي (ل١/٢٤٠)

(١) يَعْني أنّ شأنَه شأنُ البيتِ المفردِ خَلا من عُيوبِ القوافي، فلا إيطاءَ، أي تكرّرُ القافيةِ لفظاً ومعنىً، ولا إقواءَ، أي تَخالفٌ بينَ حركتَي الرَّويّ كَسراً وضَمّاً، ولا سنادَ، أي خُروجٌ عَمّا تَنبغي مُراعاته قبلَ الرّويّ من الحُروفِ والحَركاتِ.

وَدَعْ عَنْكَ ما يُزْعَمُ ويُقالُ ويُلْتَمسُ عَناءً، تارةً من إساءةِ النّاسِ إليه، وتارةً من غَريزتِه ٱلوَحْشيّةِ، وآونةً وآونةً من إخفاقِه عن ٱلمجدِ ومن مُصابِه بأُمِّه.

لم يَكُنْ، في كُلِّ هذه ٱلأسبابِ، ٱلباعثُ ٱلحقيقيُّ وإنّما هو في تلكَ الرَّغبةِ وحدَها، وإن كانَ لا يُنْكرُ أنّ تلكَ ٱلأسبابَ مُجْتَمِعَةً زادَتْ في إغرائِه وأعانَتْ على تسويدِ ما بينَه وبينَ النّاس.

هذا شيءٌ تَتَحدّثُ به رسالتُه إلى أهلِ ٱلمَعَرّةِ في صراحةٍ كما نَدْعوها، نحنُ ٱلّذينَ لا نعهَدُ عندَ ٱلمَعَرّيّ طَرَفاً منها كما لم يُعَوِّدْناها. وإذا لم يَكُنْ يُصَرِّحُ بهذا ٱلّذي نَقولُ، فماذا يَعْني فيها؟ ومِنَ ٱلخَيْرِ أن نورِدَها كاملةً، قَصْداً للبحثِ ووفاءً به:

«هذا كتابٌ إلى السَّكَنِ ٱلمُقيمِ بٱلمَعَرّةِ شملَهُمُ اللّهُ بالسّعادةِ، من أحمدَ بنِ عبدِٱللّهِ بنِ سُليمانَ. خَصَّ به مَنْ عَرَفَهُ وداناه، سلّمَ ٱللّهُ ٱلجماعةَ ولا أسلَمَها، ولَمَّ شعَثَها ولا آلمَها.

أمّا ٱلآنَ، فهذه مُناجاتي إيّاهم ـ مُنصَرَفي عن ٱلعِراقِ، مُجْتَمَعِ أهلِ ٱلجَدَلِ ومواطنِ بقيّةِ السّلفِ ـ بعدَ أنْ قَضَيْتُ ٱلحداثةَ فٱنقضَتْ، وودَّعْتُ الشّبيبةَ فمضَتْ، وحَلَبْتُ الدَّهرَ أشْطُرَه، وجرّبْتُ خَيْرَه وشَرَّه. فوجدْتُ أوْفَقَ ما أصنَعُه في أيّامِ ٱلحياةِ، عُزْلَةً تجعَلُني من النّاسِ كبارحِ ٱلأَرْوى من سانِحِ النَّعامِ، وما أَلَوْتُ نَصيحةً لنفسي ولا قصَرْتُ في ٱجتذابِ ٱلمَنْفَعَةِ إلى حَيِّزي،

فأَجْمَعْتُ على ذلكَ وآستَخَرْتُ آللّهَ فيه، بعدَ جلائِهِ على نَفَرٍ يُوثَقُ بخَصائِلهم، فكلُّهم رآهُ حَزْماً، وعَدَّهُ إذا تَمَّ رَشَداً.

وهو أمرٌ ليسَ بنتيجِ السّاعةِ، ولا رَبيبِ الشَّهْرِ والسَّنَةِ، ولكنّه غَذِيُّ آلحِقَبِ آلمُتقادمةِ، وسليلُ آلفِكْرِ الطّويلِ.

وبادرتُ إعلامَهم ذلكَ، مَخافةَ أن يتفضّلَ مِنْهم مُتَفَضِّلٌ بالنُّهوضِ إلى آلمَنْزِلِ، آلجاريةِ عادتي بسُكْناه ليَلْقاني فيها، فيتَعذّرَ ذلكَ عليه، فأكون قد جَمَعْتُ بينَ سَمِجَيْنِ: سوءِ آلأدبِ، وسوءِ آلقطيعةِ. ورُبَّ مَلومٍ لا ذنبَ له. وآلمَثلُ السّائرُ: خَلِّ آمرأً وما آختار.

وما سَمَحَتِ آلقَرونُ، (النَّفْسُ)، بآلإيابِ حتّى وعدْتُها أشياءَ ثلاثةً: نبذةً كنبذةِ فتيقِ النّجومِ، وآنقضاباً من آلعالَمِ كآنقضابِ آلقائيةِ من آلقُوبِ، وثباتاً في آلبلدِ إنْ حالَ أهلُه من خوفِ الرّومِ.

وأحلِفُ ما سافرْتُ أتكثَّرُ من النَّشَبِ ولا أستكثِرُ بلقاءِ الرّجالِ، ولكنْ آثرْتُ آلإقامةَ بدارِ آلعلمِ، فشاهَدْتُ أنْفَسَ مكانٍ لم يُسْعِفِ الزَّمنُ بإقامتي فيه.

ويُحسِنُ آللّهُ جزاءَ آلبغداديّينَ، فَلَقَدْ وَصَفوني بما لا أستحِقُّ، وشَهِدوا لي بآلفضيلةِ على غَيْرِ عِلْمٍ، وعَرَضوا عليّ أموالَهم عَرْضَ آلجِدِّ. فصادفوني غيرَ جَذِلٍ

بالصّفاتِ، ولا هَنٍ إلى مَعْروفِ آلأقوامِ، ورَحَلْتُ وهُمْ لرحيلي كارهون»(٢).

إذا لم يكُنْ في هذهِ آلفِقراتِ تَصْريحٌ بما نقولُ، فما هو هذا آلأمرُ غَذِيُّ آلحِقَبِ آلمُتقادمةِ وسليلُ آلفِكْرِ الطّويلِ؟ وما هو آلّذي ليسَ بنتيجِ السّاعةِ؟ ولماذا وَعَدَ نفسَه بهذا آلآنتباذِ وأخذَ هذا آلأخذَ؟ ولماذا عَبَّرَ بـ «وعد» إذا لم يَكُنْ شيئاً رَغيباً إليها، وكَيْفَ ضلّتْ عنه كلمةُ «أوعد» وهو يُزْهِقُها بآلآعتزال؟

إنّ «وعد» كلمةٌ يذهَبُ مَعناها في آتّجاهِ آلمَرْغوبِ به، ولونُ دلالِتها آللّذَّةُ، و«أوعد» تذهَبُ في عكسِ آلآتّجاهِ وعكسِ آللّونِ. فآلمعرّيُّ يُشعِرُنا، بآختيارِها للتّعبيرِ، أنّ عقيدَتَه آلجديدةَ ومقتضياتِها آستحالَتْ أُمنيّةً حادّةً وظمأً شهويّاً أو شهوةً ظامئةً.

وأنا أُلحُّ بهذا آلفهمِ لرسالتِه، وإثباتِ هذه الرّغبةِ آلفلسفيّةِ عندَه، بَيْنَ يديْ دَرْسِنا لمُشَخَّصاتِه آلفكريّةِ في دَوْرِ عُزْلتِه آلقاسيةِ، قَصْدَ آلآطمئنانِ إلى أنّه تَهدّى لفكرةٍ شاملةٍ مُطْلَقَةٍ، باعَدَتْ بينَه وبينَ آلأحياءِ في آستحواذٍ كبيرٍ، وفي هِنافٍ حادٍّ (ضحكٍ هازىءٍ).

على أنَّ تَحَقُّقَنا من مكانِ هذه آلفكرةِ آلكُلّيّةِ لدَيهِ، يدفَعُنا إلى دَرْسِهِ في حدٍّ أكثرَ ممّا تعوّدْنا أخذَ أنفُسِنا به، وفي جَهْدٍ أكبرَ ممّا أصبْناه، لا سيّما إذا رأيناهُ يقطعُ بأنّ السّادِلَ بين آلعالِمِ وآلجاهلِ شفيفٌ:

وما آلعلماءُ وآلجُهّالُ إلّا
قَريبٌ، حينَ تَنْظُرُ مِنْ قَريبِ (ل١/١٩١)

(٢) رسائل أبي آلعلاء، ص ٣٤ ـ ٣٦، ط القاهرة.

هذا ٱلمعرّيُّ المُتَوَحّدُ شيءٌ جديدٌ من كُلِّ جوانبِه وأقطارِه، وَلَنْ نفهَمَه ونَحْنُ نَدْرُسُه في ٱتّجاهِ ما تناهَتْ إليه ٱلفلسفاتُ يومَذاكَ أو على ضَوْئِها، إنّها قد تُعينُنا وتُنيرُ لنا الطّريقَ ولكنّها لن تصِلَنا به.

إنّ ٱلمعرّيَّ ٱلّذي يُبالِغُ في التّساؤلِ ٱلفلسفيِّ ـ وهو لا يستخدِمُ أساليبَه ٱلمُصْطَلَحيّةَ بينَما يستخدمُ أسلوباً بِدْعاً ـ يُلِحُّ بشيءٍ جديدٍ، ويُشيرُ إلى آفاقٍ جديدةٍ للفكرِ. وهو من وجهٍ آخرَ يُشيرُ إلى ضآلةِ ٱلقيمةِ لذلكَ ٱلأسلوبِ، وبٱلحَرِيِّ يُشيرُ إلى ٱلعُقْمِ ٱلخالصِ فيه، بلْ والتّضليلِ ٱلمَنْطِقيِّ ٱلمُنَظَّمِ ٱلمُغالطاتِ:

وٱلأَرْيُ، بـاطِـنُـهُ، مَـتـى ذُقْـتَـه، شَـرْيٌ، فـمـاذا، لا أبـا لـك، تَـلْـسَـبُ (ل١/١١٥)

وسَنرى بعدُ، كيفَ تَحْفِلُ آثارُه، وأخَصُّها **اللّزوميّاتُ**، بٱلهجومِ على قضايا ٱلعقلِ ٱلمشوبِ ٱلمَدْخولِ بلا هوادةٍ أو لينٍ، بل بعُنْجُهيّةٍ مُشتعليةٍ، ويتجاوزُها إلى ٱلفكرِ الدّائرِ في إطارِها، وكيفَ تَحْفِلُ أيضاً بـ «تقييم» ٱلعَقْلِ ٱلخالصِ إلى حدِّ ٱلقداسةِ ٱلمُطْلَقَةِ وٱلإشادةِ به إلى دَرَجَةِ ٱلإمامةِ ٱلمُطْلَقَة.

فهذا ٱلمعرّيُّ الشّاكُّ بقيمةِ ٱلفِكْرِ ٱلٱصطلاحيِّ في كُلِّ أشيائِه، ليسَ لنا أن نَشْرَحَه به. إنّه، كما قُلْنا، شيءٌ جديدٌ يؤمِنُ بجوهرِ ٱلعَقْلِ دونَ مادّةِ التَّعَقُّلِ ٱلكثيفةِ بٱلأوهامِ وٱلمُتَناقضاتِ.

ونَحْنُ نلحَظُ، بل لَنُحِسُّ إحساساً حيّاً بأنّه لا يُؤْمِنُ أبداً بوحيِ ٱلعَقْلِ المُثْقَلِ بٱلمَخْرَقاتِ، هذا ٱلعَقْلِ ٱلمريضِ ٱلمَكْدودِ بما حُمِّلَ ويُحَمَّلُ من تقاليدَ فكريّةٍ. إنّه يكفُرُ بِوَحْيِ هذا ٱلعَقْلِ ٱلّذي هو ذَوْبُ حُمّى، وعُصارةُ تمويهٍ خادعٍ، ورَشْحُ أباطيلَ ٱنتظَمَها السّرابُ:

ورُبَّ مُسمّىً عَنْبَراً، وَهْوَ مُوهِتٌ،
ولَيْثاً وفيهِ أنْ يَهِيجَ، نُباحُ (ل١/٢٩٥)

ولكنّه معَ ذلكَ يُؤْمِنُ، وإيماناً شديداً، بوحيِ ٱلعَقْلِ ٱلفِطْريِّ ٱلخالصِ، أو ٱلعَقْلِ ٱلّذي ٱستحيا ٱلفِطْرَةَ النَّقيّةَ فيه، ماحياً ما تكاثَفَه من غُيومِ ٱلأوهامِ ومُؤْذِناً بٱلاَنطلاق...

ومَعَ أنّي أنعتُه بٱلباطنيّةِ فلا أعني أنّها منِ نَوْعِ ما عُرِفَ من فِرَقِها، بلْ كانَتْ له باطنيّةٌ خاصّةٌ ٱستقلَّ بها، وإنِ ٱستعانَ ببعضِ مناهجِها في التّفكيرِ، ونَجِدُ هذا واضحاً في مُهاجمتِه للباطنيّاتِ ٱلمَألوفةِ إذْ ذاكَ، في **رسالةِ الغفران** وفي **اللّزوميّات**:

فَما أفادوا، سِوى إحلالِ نِشْوَتِهِمْ
مُعَرَّضاتٍ لأهلِ ٱلباطنِ الفُجُرِ (ل٢/٢٦)

يؤمِنُ، كما قدَّمْنا، بٱلعقْلِ ٱلخالصِ، وبكُلِّ أشيائِه حتّى ٱلأسطوريِّ منها ٱلّذي يَفْهَمُه كنائيّاً على طريقتِه، ولذا هو يؤمِنُ بٱللّغةِ وروحِها وما تُشيرُ وترمُزُ إليه، وسيَمُرُّ بنا بعدُ أنّ ٱللُّغةَ وما إليها كانَتْ لهُ مثلَ مصباحِ ديوجين إلى ٱلمَجْهولِ ٱلكَوْنيِّ وٱلغَيْبيّ.

وأنا سَأمْضي مَعَهُ في أشعَّةِ ذلكَ ٱلمِصْباحِ ٱلّذي كانَ في يَدِهِ طَريقاً إلى ٱلمَجْهولِ، وٱلّذي هو في أيْدينا طَريقٌ إليه.

المعرّي يضع أصول فلسفةٍ جديدة

طَريفٌ أن نعرِفَ أنّ أبا ٱلعَلاءِ طالِعٌ بفلسفةٍ جديدةٍ، وٱستوَتْ في نَفْسِهِ عناصِرُ فِكْرٍ جديدٍ أطافَ بٱلوجودِ وما وراءَ، وغَلْغَلَ يَسْتَكْشِفُ أسرارَ ٱلحياةِ، وكان سبيلُهُ إلى هذا ٱلفِكْرِ أشدَّ طرافةً.

والدّارسونَ عَرَفوهُ شاعراً أو فيلسوفاً أو شيئاً غيرَ واضحٍ بينَهما، وعَرَّفوه للنّاسِ كذلكَ في شكْلٍ من هذه ٱلأشكالِ.

وٱلذينَ زَعَموا فَلْسَفَتَه وَقَفوا عندَ حدٍّ أنّه حكى أفكاراً من فَلْسَفاتٍ شَتّى، ثمّ جَهَدَ في أن يُلائمَ بينَهما، وقد أخفقَ في رأيِ فريقٍ إخفاقاً عَبّرَ عن عَدَمِ تمثيلٍ وهَضْمٍ، ووُفِّقَ في رأيِ فريقٍ تَوْفيقاً مُعْجِباً، ومن وراءِ هؤلاءِ وهؤلاءِ طائفةٌ تُنكِرُ عليه ٱلفكرَ، وإن أضافَتْ إليه طائفةً من ٱلخَطَراتِ الشّاردةِ ٱلمُتماورةِ.

وأيّةٌ من هذهِ الدّراساتِ جاءَتْ مُعَبِّرةً عن جَهْدٍ وعن تَفَهُّمٍ أحياناً، ولكنَّ سبيلَ نَقْصِها إنّما تأتّى من أنّها عالَجتْ فكرَ ٱلمعرّيّ في آثارِه، ولم تَقِفْ أبداً عندَ ظروفِ هذا ٱلفِكْرِ تَسْتَوْحيها وتتّخِذُ منْها أقباساً إليه، فأتَتْ

حائِرَةَ النّتائجِ وغيرَ صادقةٍ أيضاً.

أمّا نحنُ فَلَسْنا نَجِدُ بُدّاً من دَرْسِهِ وآلوصولِ إليه أو، بتعبيرٍ آخَرَ، آلوصولِ إلى ما آنبنى عليه فِكْرُه وداخَلَ هذا آلفِكْرَ، على ضوءِ آلمُلابساتِ آلّتي صاحبَتِ آلفِكْرَ آلعامَّ أيّامَ آلمعرّيِّ، وآلّتي عاشَها وحيَّها في شكلٍ مُباشر.

وآلمُلابساتُ آلفِكْريّةُ آلَّتي نَعْنيها ونُحاولُ الدّلالةَ عليها هي:

أ ـ رسائلُ إخوانِ الصّفا.

ب ـ رمزيّةُ آلباطنيّةِ آلحرفيّةِ.

ج ـ تأوُّجُ آلبَحْثِ آللُّغويِّ، أي بُلُوغُه آلأوجَ.

ولكيْ نَتَحقّقَ من الصّرحِ آلفلسفيِّ آلمَشيدِ آلّذي سوّاه آلمعرّيُّ بكِلْتا يَدَيْهِ، وأقامَهُ إقامةَ آلمُدِلِّ آلمُبْتَكِرِ، يَنْبغي لنا أن نتناولَ، ولو لَمْحاً، هذه آلمُلابساتِ، ونُوضِحَ كُنْهَها وأثرَها، وكيف آستحالَتْ وتخلَّقَتْ في ذِهْنِ آلمعرّيِّ، السَّرِيِّ بآلإلهامِ وآلخِصبِ، والسَّرِيِّ، من وجهٍ آخرَ، بالتّعقيدِ أو آلعُمقِ.

رسائل إخوان الصفا: في معرفةِ مُؤَرِّخي آلفِكْرِ آلعربيِّ شيءٌ كثيرٌ عن هذه الرّسائلِ، وعمّا تَرَكَتْ من آثارٍ في مُتنوِّعِ آلحُقولِ، ولكنّ شيئاً مُهمّاً فاتَهمُ التّنبُّهُ إليه والتَّنبيهُ عليه، وهو أنّها لم تَقِفْ عندَ حدِّ التأثيرِ فَقَطْ، بَلِ آسْتبدَّتْ بآلفِكْرِ آلعربيِّ، وطَبَعَتْه طوالَ قرنينِ ونيِّفٍ، حتّى لَيَسْتقيمُ لنا أنْ نَدْعُوَ آلحِقْبَةَ آلقائمةَ من أواخرِ آلقرنِ الرّابعِ حتّى أواسطِ آلقَرْنِ السّادسِ، بعَصْرِ إخوانِ الصّفا آلفكريِّ. ولو شِئْنا تَتَبُّعَ آثارِ هذا آلفِكْرِ في مُخْتَلِفِ نواحي آلإنتاجِ والنّظَرِ آلفلسفيِّ التّجريديِّ، بل وآلحياةِ أيضاً، لألفَيْناها كثيرةً جليّةً إلى أبعدِ حدٍّ.

بَيْدَ أنّ شَيئاً من هذا لا يَعْنينا ٱلآنَ بقَدْرِ ما يَعْنينا معرفةُ أنّ هذا ٱلعَصْرَ ٱلفكريَّ ٱشتمَلَ حياةَ ٱلمعرّيّ من أقطارِها، وٱستبدَّتْ به آثارُه، إلى أنْ تَهَيَّأَ له ٱلعُروجُ إلى أُفُقِهِ ٱلجديدِ، وإشراقُه بحرارةٍ جديدةِ ٱلحياةِ، جديدةِ ٱلألوانِ.

فمِمّا لا ريبَ فيه أنّ الرّسائلَ كانَتْ مَوْجودةً مُتداولَةً سنة ٣٧٣هـ، على ما يتّضِحُ من كلامِ أبي حَيّانَ التّوحيديّ؛ وٱلمعرّيُّ وُلِد سنة ٣٦٣هـ، وقد ٱمتدَّتِ الرّسائلُ إلى كُلِّ مكانٍ وٱتّصلَتْ بأثرِها إلى أزمانٍ طويلةٍ، بَلْهَ ٱهتمامَ ٱلوَسَطِ بها ٱهتماماً شَديداً لم يُقْتصَرْ على طَبَقةٍ دونَ أُخرى أو فئةٍ دونَ ما عَداها. حتّى لكأنّها ٱلمُفاجأةُ ٱلحقيقيّةُ تبثُّ الدّهَشَ ٱلّذي يَذْهَبُ بالنّفوسِ شيئاً بعدَ شيءٍ، إلى ٱلاَستنامةِ لجديدِها في قَصْدٍ ودونَ قصدٍ.

ويَقَظَةُ قُوى ٱلمعرّيِّ كانَتْ في جَوٍّ عابقٍ بسِحْرِها، فَمَضى مُسْتنيماً يُفكِّرُ على نَهْجِها ويَأْتَمُّ رُسومَها.

وفي ثَنايا كِتابِه **سَقْط الزَّند** لا يَكْتُمُنا هذا كُلَّه، فنراه في بَغْدادَ يَخْتَلِفُ كُلَّ يومِ جُمُعةٍ إلى ٱلمَجْمَعِ ٱلفَلْسَفيِّ ٱلخاصِّ في دارِ عبدِ السّلامِ ٱلبَصْريِّ، وأسْمى جَماعةَ هذا ٱلمَجْلسِ «إخوانَ الصّفا» لُشيوعِ هذا ٱلاَسمِ في ذلك ٱلعصرِ، ولِما له من دَلالةٍ على جَماعةٍ فَلْسَفيّةٍ حُرّةِ التّفكيرِ، مُشْتَرَكةِ النّزعاتِ وٱلمُيولِ وٱلآراءِ، وٱسمعْهُ يقولُ:

كَمْ بلدةٍ فارَقْتُها ومَعاشرٍ
يَذْرونَ من أسَفٍ عليَّ دُموعا
وإذا أضاعتْني ٱلخُطوبُ فلنْ أرى
لِودادِ إخوانِ الصّفاءِ مُضيعا

رمزيّة ٱلباطنيّة ٱلحرفيّة: كانَتِ ٱلباطنيّةُ شيئاً راسخاً أزمانَ ٱلمعرّيِّ، فَقَدْ نَجَحَتْ دِعاوتُها، ونجَحَ وُجودُها، وقامَتْ بمُحاولاتٍ من ٱلكُبرَياتِ هُنا وهُناك.

وكانَتْ هذه ٱلباطنيّةُ تَسْلُكُ مَسْلَكَ ٱستنطاقِ ٱلحُروفِ، وتعتَبِرُ ٱلحَرْفَ كائناً حيّاً له جَسَدٌ ودمٌ وعقلٌ. وبسبيلِ ذلكَ ٱستخدَمَتْ حِسابَ ٱلجُمَّلِ لٱستنطاقِ ٱلحُروفِ عن مُوحياتِ ٱلأوضاعِ ٱلفلكيّةِ، وما تَدْعوه بالتّنكيسِ، وهو شبيهٌ بٱلجِناسِ التّصحيفيِّ، لٱستنطاقِ ٱلكلمةِ وٱلجُمْلةِ. وقدْ تبلْوَرَتْ رمزِيَّتُها هذه في فُنونٍ شتّى من الشّعْوَذةِ أو الشّعْبَذَةِ، ونحنُ نَجِدُ عناصرَ هذه الرّمزيّةِ في الرّسائلِ جليّةً واضحةً، كما فَشَتْ في **ٱللّزوميّاتِ** على نَحْوٍ يفوتُ ٱلإحصاءَ، وإليك نموذجاً:

غَــرَّ صَــاحِــبَــةَ ٱلــجَــمَــالِ

مُــنَــجِّــمٌ بِــحِــسَــابِ جُــمَّــلْ (ل١٢١/٤)

تأوّج ٱلبحث ٱللّغويّ: لم يَبْلُغِ ٱلبَحْثُ ٱللُّغويُّ في عَصْرٍ مَبْلَغَه عَصْرَ ٱلمعرّيِّ، فقدْ نُفِضَتِ ٱليَدُ منه على كُلِّ أشكالِه، وتألّفَتْ له فلسَفَةٌ خاصّةٌ كانَتْ غنيّةً خَصْبةً، حتّى لقد تَحَيَّزَ ٱلبَحْثُ ٱللُّغويُّ على أنّه غايةٌ في ذاتِه، وزادَ في تَحَيُّزِه ٱعتبارُ ٱلعَصْرِ ٱلّذي أسقطَ ٱلقيَمَ ٱلأدبيّةَ بكُلِّ أنواعِها إلى ٱلألفاظِ.

فكانَ من تزاوُجِ هذه ٱلمُلابساتِ للفكرِ ٱلعامِّ وتفاعُلِها في نَفْسِه وٱستحالتِها في كيانِه ٱلمعنويِّ، ما أعَدَّهُ لٱنبثاقٍ فَلْسَفيٍّ مُدْهِشٍ لم يَسْتَخْدِمْ للتعبيرِ عنه قَوالبَ ٱلفَلْسَفَةِ ٱلّتي باتَ يراها باليَةً، ويراها أيضاً ٱفتعالاً من ٱفتعالاتِ ٱلفسادِ، بل تَصَوُّراً من تَصَوُّراتِ ٱلباطلِ ٱلمُغري بأنّه ٱلحقيقةُ:

إذا تَـفَـكَّـرْتَ فِـكْـراً لا يُـمـازِجُـهُ
فسادُ عَقْلٍ صَحيحٍ، هانَ ما صَعُبا (ل١/١٢٨)

فما أحْراه، وقد هُدِيَ إلى فِكْرٍ جديدٍ، أنْ لا يَصْطنِعَ في التّعبيرِ عنه أيّةَ ٱلقوالبِ ٱلّتي ٱنتفخَتْ وتَمَلّأَتْ من وَحْيِ ٱلأباطيلِ، وإنّما ٱستحدثَ فلسفةً ومَنْطِقاً فَلْسفيّاً وألفاظاً في هذا ٱلمَنْطقِ ولتلكَ ٱلفلسفةِ:

إنْ عَـذُبَ ٱلـمَـيْنُ بـأفـواهِـكُـمْ
فـإنَّ صِـدْقـي بِـغَـمّـي أعـذبُ
طَـلَـبْـتُ لـلـعـالَمِ تَـهْـذيـبَـهـم،
والـنّـاسُ مـا صُـفّـوا ولا هُـذِّبـوا
وأكْـثَـروا الـدَّعـوى بـلا حُـجَّـةٍ،
كـلٌّ إلـى حَـيِّـزِه، يَـجْـذِبُ (ل١/١١٦)

وقبلَ أن نُشيرَ إلى شيءٍ من بنائِه ٱلكبيرِ الشّامخِ، يجدُرُ بنا أن ندورَ قليلاً مع أدوارِ ٱستحالتِه لنرى كيفَ ٱبتدأَتْ وتكامَلَتْ ثُمَّ تفرّعَتْ.

نشهَدُ ٱلمعرّيّ في بدايتِه يَحْيا في عالَمٍ لُغويٍّ من كُلِّ أرجائِه، مِثْلَ الرّياضيِّ ٱلّذي يَسْبَحُ في عالَمٍ لا نهائيٍّ من ٱلأعدادِ، يَحْيا في ٱلعَدَدِ ويَحْيا فيه ٱلعَدَدُ. فقدْ بَدأ ثقافةً لُغويّةً خالصةً ٱنقطعَ إليها، وزادَه ٱنقطاعاً إلى عالمِه ٱللُّغويِّ ٱلخالِصِ، ٱنطفاءُ حاسّةٍ هي أشدُّ ٱلحواسِّ في ٱلكائنِ جَذْباً إلى واقعِ ٱلمادّةِ ذاتِ التّلاوينِ.

إذاً، فٱلمعرّيُّ ليسَ له مِمّا يَصِلهُ بٱلواقعِ ٱلمادّيِّ إلّا ٱلأضْعَفُ تَشْويقاً وتأثيراً، فَلَمْ يَشُدَّهُ واقعُ ٱلمادّةِ إليه، ويَمْشِ عليه بغمرتِهِ، بل ظلّ طَلْقاً من الأسْرِ، أسْرِ ٱلمكانِ ٱلجمود.

إنّه ليسَ يَشْهَدُ سِوى صُوَرِ ٱلألفاظِ كما يَفْتَرِضُها، وهي تَحْياهُ ويَحْياها

فَيَطْمَئِنُّ ويَغْتَبِطُ، وتُشوّقُه كثيراً فيستَلِذُّها ويَتَذَوَّقُها. إنّه يُحِسُّ بكيانِه فيها، وهيَ، أيِ ٱلألفاظُ، في حِسِّهِ، يَنبوعٌ يتدَفّقُ مِثْلَ شلّالٍ إلى هاويةِ ٱلوجودِ، فيروقُهُ سماعُ هَديرِه ٱلّذي هو هديرُ ذاتِه في ذاتِ ٱلوجودِ.

وكانَ هذا ٱلآفتلاتُ من أسْرِ ٱلمكانِ أوّلَ قادمةٍ نبتَتْ في جَناحِ نَسْرِنا ٱلعظيمِ ٱلّذي أطَلَّ علينا في هذا الدَّوْرِ، بوجهِ الشّاعرِ ٱلمُلْتمعِ بٱلفكرِ مثل:

أَجَـدَّ بـه غَـوانـي ٱلـجِـنِّ، لُـعْـبـاً
فـأعـجَـلَـهـا الـصّـبـاحُ، وفـيـه جـانُ[١] (س١/٦٩)

*

وَلَـوْ تَـقَـدَّمَ فـي عَـصْـرٍ مَـضـى، نَـزَلَـتْ
في وَصْفِه مُعْجِزاتُ ٱلآيِ والسُّوَرِ[٢] (س١/٤٨)

ونَشهدُ ٱلمعرّيَّ مرّةً أُخرى يتقلَّبُ في حَلَب[٣]، وهي منزلٌ من منازلِ ٱلمَعْرفةِ يومَذاك، يعُبُّ كُلَّ ما وَصَلَتْ إليه يدُه غَيْرَ مُتَحَرِّجٍ ولا مُتأثِّمٍ، وكانَ في حَلَبَ وٱلمسافاتِ ٱلقريبةِ منها نشاطٌ للباطنيّةِ، وقريبٌ جدّاً أنّ ٱلمعرّيّ ٱتّصلَ به أثرُها، وهَدَأ ذاهلاً يرشُفُ رسائلَ ٱلإخوان بِنَهَمٍ.

(١) قالَ في شَرحِ التّنويرِ على **سَقط الزّند**، المَعْنى: نِساء الجِنّ لعبْنَ في هذا ٱلغَديرِ لَيلاً، فداهَمَهُنّ الصّباحُ فخِفْنَ ٱلآفتِضاحَ فهَرَبْنَ ونَسينَ ٱلجانّةَ أي السّوارَ ـ هذا ٱلبيتُ بمَعْناه ٱلّذي ذَكَرَه في التّنويرِ يُرينا كيفَ أخذَ ٱلأخطلُ الصّغيرُ صورةَ ٱلجِنِّ الرّاقصينَ في قَصيدته ٱلبائيّةِ في ذِكْرى ٱلمُتنبّي ٱلّتي مَطلعُها:

نـفـيـتَ عـنـك ٱلـعُـلـى والـظَّـرفَ والأدبـا
وإنْ خُلقتَ لها، إن لم تَزُرْ حلبا... إلخ

(٢) يَظْهَرُ واضِحاً كيفَ ٱستلهم شَوقي هذا ٱلبيتَ حتّى كأنّه ٱجتلبَهُ في مَرْثاتِه لمُصطفى كامل:

لـو كـانَ لـلـذِّكْـرِ ٱلـحَـكـيـمِ بـقـيّـةٌ
لـم تَـأتِ بـعدُ، رُثـيـتَ فـي ٱلـقُـرآنِ

(٣) حَكى بعضٌ من أصْحابِ التّراجم رحلتَه إلى حَلَب ورحلاتٍ أُخرى إلى أَنطاكيةَ وطرابلسَ وٱللّاذقيةِ، وشكَّ بها بعضٌ آخرُ، ولكنَّهم ٱتّفقوا جَميعاً على رِحلتِه ٱلبَغداديّةِ.

وما هو، حتّى عَصَفَتْ به هَدْأةُ الذُّهولِ، وما هو حتّى هبَّ في نَفْسِه آلإعصارُ، وإذا به يَعودُ إلى آلـمَعَرَّةِ حامِلاً أعقدَ أزماتِ آلفِكْرِ آلّتي لَبِثَ طَويلاً وعانى كَثيراً حتّى تَهَدّى إلى حَلِّها، وقد تداعى في مُتَناوِحِ آلإعصارِ كلُّ ما كانَ في نفسِه قائِماً ثابِتاً، فيُطِلُّ علينا في هذا الدَّوْرِ بوَجْهِ الشّاعرِ آلحائرِ بآلفِكْرِ، مثل داليّةِ الرِّثاء:

غيرُ مُجدٍ في مِلَّتي وآعتقادي
نَوْحُ باكٍ، ولا تَرَنُّمُ شادي (س١/٢٧٥)

وهو، تحتَ هذا آلإعصارِ أو آلأزمَةِ آلجائحةِ، هبَّ يطلُبُ آلمَعْرِفةَ من جديدٍ، على غيرِ الشّكلِ آلّذي طلبَهُ من قبلُ. فتلكَ معرفةُ التّلقينِ، وهذهِ معرفةُ النّقدِ وآلآستحالةِ. وهنا نَشْهَدُ آلمعرّيَّ مرّةً ثالثةً يَضْطربُ في آلأرضِ، ومعَ النّاسِ، ولكنْ زادَتْه مُشاهداتُه يأساً وأسىً، وزادَتْه آستفزازاً وتقزُّزاً أنشَطَهُ إلى الثّورةِ، ومدّهُ بالنّقدِ السّاخرِ والضِّحكةِ الصّفراءِ آلمُؤْتَكِلَةِ.

وآلمعرّيُّ يَقْفُلُ من رحلتِه آلبغداديّةِ آلّتي وصلَتْه بكُلِّ فئةٍ، ويُطِلُّ علينا بوجهِ الشّاعرِ النّاقدِ للفكرِ آلآصطلاحيّ، بآلفكرِ آلآصطلاحيِّ نفسِه آلّذي هو أدلُّ على التّهافتِ، وهنا يبرزُ جَلالُ السُّخْرِ عندَ آلمعرّيّ وجمالُه، مثل:

تمنَّيتُ أنّ آلخَمْرَ حَلَّتْ لنشوةٍ
تُجهِّلُني، كيفَ آطْمَأنَّتْ بِيَ آلحالُ (س٢/٦٨)

وبرُغْمِ ما هو فيه من إعصارٍ دائرٍ على آلفِكْرِ آلآصطلاحيِّ، عندَه وعندَ النّاسِ، وبرُغمِ ما تداعى بين يديهِ من صُروحِ آلمُصْطلحاتِ آلجَوْفاءِ، ظَلَّ مُؤمناً بآلقيمةِ آللُّغويّةِ، وأنّها تُبطِنُ سِرّاً عميقاً. وزادَه إيماناً ما قدْ رآهُ في

رسائلِ ٱلإخوانِ ٱلّتي مضَتْ تُقرِّرُ: «سريان ٱلقُوى وهي ٱلأصواتُ والنّغماتُ، أوّلاً في عالمِ السّماواتِ، ثُمَّ في حركاتِ ٱلهواءِ، ثُمَّ في حركاتِ النّباتِ، ثُمَّ في أجسامِ ٱلحيوانِ، ثُمَّ في عالمِ ٱلإنسانِ. (وأنّ) لكلِّ صوتٍ صفةً روحانيّةً تختَصُّ به خلافَ صوتٍ آخرَ وأنّ أصلَ ٱلحَرَكةِ هو النّفسُ. وأنّ الصّوتَ مُنْفَعِلٌ من حركتِها وسريانِ قُواها في ٱلأجسامِ. (وأنّ) الصَّوْتَ مَفْهومٌ وغيرُ مَفْهومٍ، وٱلمَفْهومُ هو الصَّوْتُ ٱلحيوانيُّ، والصَّوْتُ ٱلحيوانيُّ على ضربَيْن: مَنْطقيٌّ، وغيرِ مَنْطقيٍّ، وٱلمَنْطِقيُّ يتحَيّزُ في ٱللُّغةِ. (وأنَّ) للأصواتِ ألواناً ومَشْموماتٍ...».

ثمّ تَمْضي الرّسائلُ فتُعلِّلُ: «لماذا كانَتِ ٱلحروفُ ثمانيةً وعشرينَ؟» بأنّها «ٱلعِدَّةُ التّامّةُ، فإنّ منازِلَ ٱلقَمَرِ كذلكَ، وأعضاءُ جِسْمِ ٱلإنسانِ كذلِكَ... وأنّ ٱللُّغةَ التّامّةَ هي ٱلعربيّةُ، وهي، في ٱللُّغاتِ، مثلُ صورةِ ٱلإنسانِ في ٱلحيوانِ. وأنّ أحكَمَ ٱلكلامِ ما كانَ أبلغَ، وأتقنَ ٱلبلاغةِ ما كانَ أفصحَ، وأحسنَ ٱلفصاحةِ ما كانَ مَوْزوناً مُتَّفِقاً، وأصحَّ ٱلمَوْزونِ ما كانَ غيرَ مُنْزَحِفٍ»(٤).

فإيمانُ المعرّيّ بٱلقيمةِ ٱللُّغويّةِ وما خَلَّفَتْه ٱلرّسائلُ في نَفْسِه، رَدَّهُ ردّاً عَنيفاً إلى طَلَبِ حلِّ ٱللُّغزِ ٱلكَوْنيِّ وٱلوجوديِّ في ٱللُّغةِ، لا سيّما أنّ ٱلقائلينَ بالتّرتيبِ ٱلكَوْنيِّ ترتيباً عَدَديّاً، مثلَ أصحابِ الرّسائلِ، يُوَحِّدون بينَ ٱلعَدَدِ وٱللُّغةِ(٥) من حيثُ إنّ كُلّاً منهُما يرتَدُّ إلى وَحدةٍ، قال:

فـيـا أَلِـفَ ٱلـلَّـفـظِ لا تـأمُـلـي
حِـراكـاً، فـمـا لَـكِ إلّا الـسُّـكـونُ (ل٤/٢٦٩)

(٤) راجِعْ رِسالاتِ ٱللّغة وٱلموسيقى، وٱلعَدَد، من رَسائل ٱلإخوان.
(٥) راجِعِ الرّسائل ٱلمَذْكورة ٣/١٥٠، ط ٱلقاهرة.

وعلى هذا الرَّسيلِ مَضى يَحُلُّ ٱللُّغْزَ في كُلِّ شيءٍ، في ٱلوجودِ وٱلحياةِ وٱلفِكْرِ. ويَدُلُّ على تَشَبُّعِه بعَلاقةِ ما بينَ ٱلحَرْفِ وٱلعَدَدِ قولُه:

طُرُقَ ٱلعُلى مَجْهولةٌ، فكأنّها
صُمُّ ٱلعَدائِدِ، ما لَها أجْذارُ (ل٢/٥١)

وهُنا أحسَّ بأنّه قد أدركَ، وقد أدركَ وحدَه، فٱنكفأ على نفسِه مُتَجَرِّداً فوقَ خِضَمِّ ٱلأباطيلِ مُطِلّاً من أُفُقِه الشّامخِ بوجهِ الشّاعرِ ٱلفَيْلسوفِ ٱلكاملِ:

كَلَّمْتُ بٱللَّحْنِ أهلَ اللَّحْن أُونِسُهُمْ
لأنّ عَيْبِيَ، عندَ ٱلقوم، إعرابي (ل١/١٦٧)

وكانَ أنْ أعطى فَلْسَفَتَه ٱلمُنْقَطِعَةَ النّظيرِ ٱلّتي نَعْرِضُها ٱلآنَ عَرْضاً كفهرسٍ فَقَط، ونُبَرْهِنُ عليها فيما يلي بِتَفْصيلٍ وتَطْبيقٍ:

يتَصَوّرُ ٱلمعرّيُّ ٱلكَوْنَ كُلّاً لُغويّاً، والتَّركيبَ ٱللُّغويَّ غَيْرَ نهائيٍّ، فهو كٱلأبديّةِ السَّرمديّةِ في ٱتّساعِها وٱمتدادِها وعُمْقِها:

هذي حروفُ ٱللَّفظِ سَطْرٌ واحدٌ
منها يُؤَلَّفُ للكلامِ بِحارُ (ل٢/١٥٨)

وكما يرجِعُ التّركيبُ إلى ألفاظٍ فحروفٍ فأصواتٍ فنأَماتٍ خفيّةٍ يطفَحُ بها ٱستعدادُ ٱلحيِّ طفْحاً ذاتيّاً: وٱلحَيُّ يَمْضي فيُرَكِّبُها إلى غيرِ نهايةٍ، وهو إذ يُرَكِّبُها يُركِّبُ فيها رَجَفاتِ ٱستعدادِ الذّاتِ وخوالجِها مثلَ رَجَفاتِ ٱلأوتارِ.

كذلكَ ٱلكَوْنُ وٱلوجودُ وٱلحياةُ، تَنْحَلُّ في سِلْسِلَةِ تباسُطِها إلى أنْ تَسْتَوِيَ في ٱللّهِ ٱستواءَ الصَّوْتِ في ذاتِ ٱلحيِّ.

وأوّلُ ٱنبثاقٍ هو رَجْفَةٌ أو فَيْضُ ٱلٱستعدادِ ٱلإلهيِّ، ٱلّذي بَدَأ نَأْمةً ثمّ

مضَتْ تتحَيّزُ شيْئاً بعدَ شيءٍ لتتركَّبَ شيْئاً بعدَ شيءٍ، حتّى تَتَعَقَّدَ وتَسْتَقِرَّ سِلْسِلَةُ مَنْظوماتِ ٱلآنبثاقِ في ٱلحياةِ وٱلأحياءِ، مِثْلَما تَتَعَقَّدُ وتَسْتَقِرُّ في ٱلكَوْنِ ٱلّذي هو قصيدةٌ ذاتُ تفاعيلَ، قال:

والنّاسُ كٱلأشعارِ يَنْطِقُ دَهْرُهُم
بِهِمُ، فَمُطْلَقُ مُعْشرٍ ومُقيَّدُ (ل٢/٣٥)

لتنتَظِمَ سلسلةُ منظومةِ التّفاعيلِ ٱلكونيّةِ في ٱلقافيةِ، قال:

ورُبَّ أسلافِ قومٍ شانَهُمْ خلَفٌ
والشِّعرُ يُؤتى كثيراً من قوافيه (ل٤/٣٩٨)

وٱلقافيةُ بذاتِها تحمِلُ على التقيُّدِ وفرضِ ٱلمدارِ ٱلواحِدِ، قال:

دُنياكَ تُوجَدُ أيّامُ السّرورِ بها
مِثْلَ ٱلقصيدةِ لم تُذكَرْ قوافيها (ل٤/٣٨٥)

وفي ٱلمَعْقِدِ تَظْهَرُ أنواعُ ٱلفَسادِ إلّا عندَ مَنْ رُزِقَ ٱلقُدْرَةَ على ٱلْتزامِ ما لا يَلْزَمُ، ٱلّذي هو في ٱلقافيةِ تَقْييدُها بما هي في غِنىً عنه بِجَعْلِها في رَوِيَّيْنِ، وهذا ٱلآلتزامُ يتضَمّنُ التّساميَ بها إلى ما هو أكملُ.

وٱلإنسانُ هو قافيةُ ٱلحياةِ في سلسلةِ ٱلمَنْظوماتِ ٱلآنبثاقيّةِ ٱلكَوْنيّةِ، ولُزومُ ما لا يلزمُ هو التَّوحُّدُ. وكما أنّ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ لا يُنتِجُ سِوى ٱلقليلِ في الشِّعرِ، كانَتْ قلّةُ ٱلّذينَ يَتَوَحّدونَ ويَصْطفونَ. وعلى التَّوحُّدِ ٱلمُطْلَقِ تدورُ كُلُّ فَلسفتِهِ، وهو يرى أنّ التَّوحُّدَ دَرَجَةٌ فَوْقَ التَّوحيدِ. قال:

وأرى التَّوَحُّدَ، في حياتِك، نِعمةً
فإنِ آستطعْتَ بُلوغَه، فتَوحَّدِ (ل٢/٨٧)

توحَّدْ، فإنّ ٱللّهَ ربَّك واحِدٌ
ولا تَرْغَبَنْ في عِشْرَةِ الرُّؤَساءَ (ل١/٧١)

وهذا التّصوّرُ ٱللُّغويُّ في ٱلكَوْنِ يُنتِجُ أنّ ٱللّهَ مُنْفَصِلٌ بالذّاتِ، مُتَّصِلٌ بسَرَيانِ ٱلآستعدادِ ٱلإلهيِّ، وإليه ٱلإشارةُ في ٱلآية «إنّما قَوْلُنا لشيءٍ إذا أردْناهُ أن نقولَ لهُ كُنْ فيكون» (النحل ١٦: ٤٠)، أيْ بسَرَيانِ فَعَالِيّةِ ٱلكَلِمةِ. ويُنتِجُ أيضاً عدمَ جوازِ التّناسُخِ لأنّه فرّعَ ٱلقَوْلَ بأنّ التَّرتيبَ ٱلوجوديَّ قائمٌ على مِثْلِ ٱلمتواليةِ ٱلعدديّةِ، فلا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، أمّا ٱلقولُ بالتَّرتيبِ اللُّغويِّ فإنّه يَقْتضي أنَّ التّكَوُّنَ أو التّخلُّقَ قائمٌ على مِثْلِ ٱلمُتواليةِ ٱلهَنْدَسيّةِ ٱلّتي تَجُرّ إلى ٱلقفزِ في التَّكاثرُ...

والأنبياءُ قَوْمٌ مُتَوَحِّدونَ ساروا مَسيرَ ٱلقافيةِ ٱلّتي بَلَغتْ أسْمى منازِلها في لزومِ ما لا يلزَمُ، كما حَلَّ التّوَحُّدُ أسمى منازِله في تَوَحُّدِه هو...

والشّرائعُ مناهجُ ٱلمُتَوَحِّدينَ، وهي مُتفاوتةٌ في صِفَةِ التّكامُلِ، فهاجَمَ نواحيَ النَّقصِ فيها...

وٱلإنسانُ ٱلكاملُ هو ٱلمُتَوَحِّدُ لأنَّ ٱلواحديّةَ هي ٱلبَدْءُ والنّهايةُ. وٱلإنسانُ ٱلأكملُ هو ٱلمُتوحِّدُ الضَّرُورَة...

ومن هذا يظهرُ كيفَ نبتَتْ فلسفتُه على شَكْلٍ آخرَ عندَ ٱبن باجةَ، ٱلّذي ٱنحرَفَ بها عن التَّصَوُّرِ ٱللُّغويِّ إلى التَّصَوُّرِ ٱلْفَلْسَفيِّ ٱلآصطلاحيِّ في «تدبير ٱلمُتَوَحِّد»...

ومن ٱلخَطَأِ الظَّنُّ أنَّ ٱلمعرّيَّ حارَب النَّسْلَ بناءً على فلسفتِهِ، وإنّما أُخْفِقَتْ دَعوةُ التَّوحُّدِ وَشعَرَ بإخفاقِها فيئِسَ من ٱلإصلاحِ ٱلبَشَريِّ، فنادى بالتّهديمِ، نادى بخَصْيِ ٱلحَياة:

فَسَدَ ٱلأمرُ كُلُّه، فٱترُكوا ٱلإعْـ
ـرابَ، إنّ ٱلفصاحةَ ٱليومَ، لَحْنُ (ل٤/٦٦)

*

تـواصَـلَ حَـبْـلُ الـنَّـسْـلِ، مـا بـيـنَ آدمٍ
وبـيـني، ولـم يُـوصَـلْ بـلامِـيَ بَـاءُ (ل١/٥٠)

*

ونَـظْـمُ أُنـاسٍ تَـنـاهـى إلـيَّ
مـن عـهـدِ آدمَ، ثُـمّ آنـقَـطَـعْ (ل٣/١٥١)

المنهج اللّغوي عند المعرّي

يُظْهِرُنا ٱلمعرّيُّ عَلى أهميّةِ ٱللّغةِ وليسَ قَصْدَ التّعبيرِ فقطْ، بل قَصْدَ التّعْليلِ وٱلإدراكِ ٱلكُلّيّ أيضاً. وإذا كانَتْ فلسفتُه بمكانٍ بعيدٍ من الطّرافةِ، فإنّ طريقتَه إلى التّصوُّرِ ٱلفلسفيّ تُحْسَبُ أشدَّ طرافةً وأكثرَ غرابةً وٱستهواءً.

إنّه تجاوَزَ جَميعَ الطّرائقِ وٱلمناهجِ النّظريّةِ وما إليها ـ من كُلِّ ما رتَّبَ وقَدَّرَ ٱلفكرُ ٱلبشريُّ ـ إلى ٱللّغةِ ونواميسِها وعلاقاتِ ما بينَها، ودخَلَ بها إلى ٱلمجهولِ ٱلكونيّ وٱلغَيْبيّ. فأدركَ، وأدركَ كثيراً، وٱطمأنَّ، وٱطمأنَّ كثيراً أيضاً، وٱتّخذَ من أوهامِ النّاسِ أُلهِيَّةً تمدُّهُ بٱلعبثِ والنّشوةِ السّاخرةِ، ومَوْضوعاً للنّكايةِ في التّعريضِ، قال:

وٱلبرايا لَفْظُ الزّمانِ، ولا بُـ
ـدَّ لهُ من تغيُّرٍ وٱنقلابِ (ل ١/٨٨)

وليسَ غَريباً أن يتّجِهَ ٱلمعرّيُّ بنظرِه إلى ٱللُّغةِ، وعَصْرُه يؤمِنُ في أكبرِ إدراكِه بأنّ ٱللُّغةَ تَوْقيفٌ وليسَتِ ٱصطِلاحاً بشريّاً. وأنا لا أعْني أبداً أنّ

آلمعرّيَّ كانَ يؤمِنُ بهذا الرّأيِ، وإنّما أقولُ إنّه كانَ سبيلاً قريباً عندَه إلى وثبةِ الذِّهنِ وَلَفْتِه فقطْ.

هو، كما عَرَفْنا من قبلُ، لم تُحْرِزْ ثِقَتَه كُلُّ آلمناهجِ النّظريّةِ للفكرِ، فباتَ معَها حائراً، وحائراً يَدْعو إلى آلإشفاقِ. وتكوينُه آلعَصبيُّ زادَ في مأساةِ آلحَيْرَةِ عندَه، حتّى مَثَّلَ، وفي درجةٍ بعيدةٍ «آلرَّجُلَ المأساةَ» في الرّوحِ وآلفِكرِ، مَثَّلَ آلمأساةَ الطّائفةَ بالنُّدوبِ الطّريئةِ، وآلكُلومِ آلحيَّةِ. قالَ:

وكـيـفَ أُرَجّـي مـن زمـانٍ زيـادةً؟
وقدْ حَذَفَ الأصليَّ حَذْفَ الزّوائدِ (ل٤/٢١٥)

*

سـألـتُـكُـم: لا تُـكَـنّـوني لـتـكـرمـةٍ،
وصـغِّـرونـيَ تـصـغـيـراً بـتـرخـيـمِ (ل٤/٢١٥)

وفجأةً آلْتمعَ ذهنُه الجبّارُ، على ما نُقَدِّرُ، بخاطرةٍ سريعةٍ جَرّتْ وراءَها طائفةً من التّساؤلاتِ: ألَيْسَتْ في آللُّغةِ ظاهِراتُ الطّبيعةِ وآلوجودِ نفسُها، من مَصْدَريّةٍ وآشتقاقٍ ، أيْ من أصلٍ وتوليدٍ؟ ألَيْسَ في آللُّغةِ ـ وبآلأخصِّ آلعربيّةُ آلّتي هي آللُّغةُ التامّةُ ـ كلُّ مظاهرِ التغيُّرِ في عالمِ آلكونِ وآلفسادِ، مِثْلَ آلإعرابِ آلمُتَغَيِّرِ بآلعواملِ؟ ألَيْسَ في آللُّغةِ أشياءُ آلحياةِ كلُّها من تعْدِيَةٍ ولُزومٍ، أيْ سيطرةٌ سببيّةٌ وقُصورٌ ذاتيٌّ؟ أليسَ في آللُّغةِ إعلالٌ وتصحيحٌ وفعلٌ وآنفعالٌ وتفاعلٌ وآفتعالٌ، أيْ رَدُّ آلفعلِ؟ أليسَ في آللُّغةِ تَضعيفٌ وإدغامٌ وترادفٌ وآشتراكٌ؟ أليسَ في آللُّغةِ جسمٌ وروحٌ كآللَّفظِ وآلمعنى؟ أليسَ في آللُّغةِ عالَمُ غيبٍ وعالَمُ شهادةٍ في آلمُضْمَرِ وآلمُظْهَرِ، قالَ:

مـا زالَ مُـلْـكُ آلـلّـهِ يَـظْـهَـرُ دائـبـاً
إذْ آدمٌ وبَـنـوهُ، فـي آلإضـمـارِ (ل٢/٢٧٥)

أليسَ في ٱللُّغةِ نَثْرٌ ونَظْمٌ مِثْلَما في ٱلوُجودِ حلٌّ وعقدٌ؟... إذاً، ففي ٱللُّغةِ طبيعةٌ وحياةٌ ومجهولٌ، أو هي عالمٌ كاملٌ عن عالمِنا، وهي أكثرُ تعبيراً عن كُلِّ هذا، من عالمِنا ٱلمُحجَّبِ.

فلِماذا لا تكونُ ٱللُّغةُ هي ٱلجانبَ النّاطقَ عن ذلكَ ٱلجانبِ الصّامتِ، لا سيّما وهناكَ مَن لا يشُكُّ في أنّها توقيفٌ، أيْ وَحْيٌ، ومَنْ لا يشُكُّ في دَلالةِ ٱلعددِ، بينَما ٱللُّغةُ تُبطِنُه. إذاً، فٱللُّغةُ هي الطّريقُ إلى ٱلإدراكِ، وهي الطّريقُ وحدَها دونَ شكٍّ عندَه...

هذا شيءٌ لم يُصرِّحْ به أبو ٱلعلاءِ؛ ونحنُ لا ننتَظِرُ منه تَصْريحاً، وهو ٱلّذي يُبَعْثِرُ بٱلقصْدِ إشاراتِ الطُّرُقِ، آخذاً على ٱلآخرينَ سبيلَ ٱلوُصولِ إليه. وإنّما ذلكَ شيءٌ نحنُ نستَنْتِجُه ٱستنْتاجاً من إيماءاتِه، وبمُعاناةٍ غيرِ يسيرةٍ.

وكانَ ٱلّذي يدفَعُنا إلى تبيينِه على هذه الشّاكلةِ، أسبابٌ منها:

أ ـ تعلُّقُه بٱللُّغةِ إلى حدِّ الرُّعونةِ ٱلّتي كأنّها تُشيرُ إلى ٱلغايةِ منها وٱلقَصْدِ ٱلمَسْتورِ وراءَها.

وليسَ يَسْتقيمُ هذا التّعلُّقُ وتعليلُه بٱلإدلالِ وٱلكشفِ عمّا ٱتّفقَ له من ٱستيعابِ نادِرِها وٱلإحاطةِ بغريبِها، وهو ٱلّذي نراهُ يُشيحُ ويُعرِضُ عن مُقوِّماتِها في **الأيْكِ والغصون**، على ما سيمُرُّ بكَ، كما لا يَسْتقيمُ تَفسيرُه بٱلعَبَثِ تَحْليةً وتَوْشيةً، وبالتّصنُّعِ براعةً وتفوّقاً، قال:

مَنْ يَبغِ، عِنْديَ، نَحْواً أو يُرِدْ لُغةً
فَما يُساعَفُ مِنْ هذا ولا هذي
يَكْفيكَ شَرّاً، من الدُّنيا، ومَنْقَصَةً
أنْ لا يَبينَ لكَ ٱلهادي من ٱلهاذي (ل٢/١٠٥)

ب ـ تلاعُبُه ٱلّذي يتخلّلُ ٱلقِطْعَةَ، والشّذوذُ عن ٱلموضوعِ، قال:

أَعْـيـاكَ خِـلٌّ، ولـولا قُـدْرَةٌ سَـلَـفَـتْ،
لـم يُمْكِنِ ٱلجَمْعُ بين ٱلخاءِ وٱللّامِ (ل٤/٢١١)

جـ ـ تَهَرُّبُهُ من ٱلبحثِ إبّانَ ٱستمرارِه وٱلإفاضةِ فيه، ويتعَلّلُ تارَةً بالشّكوى وتارَةً بٱلعجزِ. ففي الرّسائلِ ٱلمُتَبادَلةِ بينَه وبينَ داعي الدُّعاةِ[1] يعمِدُ إلى ٱلبحثِ على وجهٍ منطقيٍّ خالصٍ، ويُثيرُها مُشكلةً حاميةً حتّى إذا بلغَتْ درجةَ ٱشتعالِها، ٱرتدَّ يُوارِبُ ويخلِطُ موضوعاً بموضوعٍ؛ كما لو أنّه يُثيرُ ٱلقَتامَ وٱلغُبارَ الشّديدَ ليحتَجِبَ وراءَه، أو يُظهِرَ لَهَثَهُ وٱختناقَه بما يجثِمُ عليه من وقرٍ، إنّه يريدُ أن يظلَّ مُتَلَفِّعاً بٱلأستارِ، قالَ:

أنـا كـٱلـحـرْفِ لـيـس يُـنـقَـطُ وٱلـ
ـلّهُ حَسيبُ ٱلجُهّالِ، إنْ نَقَطوني
بِـتُّ كـٱلـواوِ بـيـن يـاءٍ وكَـسْـرٍ[2]،
لا يُـلامُ الـرِّجـالُ إنْ يُـسـقِـطـونـي (ل٤/٣٤٥)

*

وَجَـدْتَـنِـيَ ٱلـلُّـجَـيْنَ أوِ الـثُّـرَيّـا
وتـصـغـيـرُ الـمُـصـغَّـرِ لا يَـجـوزُ (ل٢/٣١٩)

د ـ ٱتّخاذُه أُسلوباً حُوشِيّاً شديدَ ٱلبروزِ في كُلِّ ما أنْشَأَ من نَثْرٍ أو نَظْمٍ، والتّكلّفُ له بقسوةٍ وتعسُّفٍ، وطابعُ ٱلأسلوبِ ٱلبارزُ يُعبّرُ دائماً عن طابعٍ بارزٍ مثلِه في ٱلفكرِ من وجهٍ، ومن وجهٍ آخر يُعَبّرُ التّكلّفُ له

(١) أنظُرها، ص٩ ـ ١٨، ط ٱلقاهرة.
(٢) يُشيرُ إلى ٱلقاعدةِ الصّرفيّةِ فيما كانَ واويّ ٱلفاءِ ٱلّذي يَسْقُطُ في ٱلمُضارعِ، لأنّ ٱلواوَ وقعَتْ بين عدوَّيْها ٱلياءِ وٱلكسرِ كوزن يزن... إلخ.

والاَحتفالُ به عن قَصدٍ لا يتمُّ إلّا به أيضاً.

هـ ـ أسماءُ ٱلكتبِ ٱلّتي تَنْصَبُّ ٱنصباباً خاصّاً على ٱلقافيةِ وٱلعروضِ، مثلَ **اللّزوميّات**، **الفُصول والغايات**، ٱلمُرادُ بٱلغايات ٱلقوافي[٣]، **الهمز والرّدف** ٱلمعروف بـ **الأيك والغصون**، و **جامِع الأوزان**... إلخ. ويدُلُّ على أنّه ٱستعملَها لغايةٍ، مقطوعتُه:

تـخـيُّـلٌ مـن بَـنـي الـدُّنـيـا، غـدا عَـجَـباً
لـلـمُـفْـكِـريـنَ، وكـلُّ الـنّـاسِ مـحـسـورُ
كــأنّ إعــرابَ أَعــرابٍ ثــوَوْا زمــنــاً
بـالـدَّوِّ، فينا، بـحُـكـمِ الـنّـحـوِ مـأسـورُ (ل٢/١٣٤)

و ـ كراهيَّتُهُ للنّحوِ، هذه الكراهيَّةُ ٱلّتي لا تتّفقُ وٱعتدادَه بٱللُّغة وما إليها، إذا ٱستقامَتْ دعوى التّكَلُّفِ عندَه بٱلاَعتدادِ ٱلمزعومِ. فقدْ هتفَ في **الأيكِ والغصونِ** بهذه ٱلفِقَرِ الرّائعةِ ٱلقارعةِ: «يا نحوُ، يا نَحوُ. حقٌّ لِما كُتِبَ منك ٱلمحوُ. ما أشْغَلَني إذا نودِيَ بي عن أحكامِ النِّداء»[٤].

تلكَ كراهيةٌ ليسَ يستقيمُ عندَنا تعليلُها، إلّا بأنّ النّحوَ، أيِ ٱلإعرابَ، رمزُ ٱلكونِ وٱلفسادِ والتّغيُّرِ الدّائمِ. وهذا لا يمنعُ أنّه كانَ يستغِلُّه وفْقَ مَفاهيمِه، قالَ:

وٱلــمــرءُ كــانَ، ومــثــلَ كــانَ وجــدتُــهُ
حــالَــيْــهِ فــي ٱلإلــغــاءِ وٱلإعــمــالِ (ل٤/١٠٨)

فقدْ طَوى في هذا ٱلاَلتماسِ النَّحْوِيّ أُموراً:

١ـ كونُها فِعلاً ناقِصاً كَكَوْنِ ٱلإنسانِ.

(٣) راجِعْ **معجم الأدباء** لياقوت ٣/١٤٦، ط ٱلقاهرة.

(٤) راجِعْ **أوج التحرّي عن حيثيّة ٱلمعرّي** للبديعي، ط دمشق.

٢ـ الإلغاءُ أو ٱلحشوُ والزِّيادةُ.

٣ـ الإعمالُ والتَّغييرُ في جزءٍ من جُزْأيِ ٱلجُملةِ.

وقالَ أيضاً:

وٱلـجـسـمُ ظَـرفُ نـوائـبٍ، وكـأنّـه
ظَــرْفٌ يــؤخَّــرُ تــارةً ويُــقــدَّمُ (ل٤/١٦١)

وٱلآنَ ننتقِلُ إلى عملِ ٱلمنهجِ ٱللُّغويِّ عندَه على ما نُقَدِّر، ولا بِدْعَ أنْ نقولَ آستنتاجاً: «يرى ٱلمعرّيّ». فنحنُ في الطّبيعيّاتِ وٱلعُضويّاتِ نقولُ: سُنَّةُ الطّبيعةِ كذا وسُنَّةُ ٱلحياةِ كذا. وليسَ آعتمادُنا إلّا على التّجرِبةِ ٱلقاطعةِ أو آستمرارِها وتَكرارِها.

رأى ٱلمعرّيُّ في ٱللُّغةِ، كما قُلْنا، إعراباً وبناءً، أي زماناً ومكاناً، وحركةً وسُكوناً، أيْ وُجوداً وعَدَماً وتغيُّراً. قال:

وٱلـفَـتـى كـٱسْـمِـهِ، ٱلـمُـصـرَّفِ
هذا ٱلجِسْمِ، يَلْقى التَّغْييرَ والتَّقْليبا (ل١/١٤٣)

ونـحـنُ، بـعـلـمِ ٱلـلّـهِ، مِـنْ مُـتـحـرِّكٍ
يُرى ساكناً أو مِن ساكنٍ يتحرّكُ (ل٣/٢٣٢)

*

وتـودِعُ النّـاسَ في بعضِ الثّرى نُوَبٌ:
خَـفْـضٌ ورَفْـعٌ، وتَحـريـكٌ وإسـكـانُ (ل٤/٢٥٨)

*

وٱلـمَـرءُ مـثـلُ ٱلـحَـرْفِ، بـيـنَ سُـهـادِهِ
وكَـراهُ، يُـسْـكَـنُ تـارةً ويُـحَـرّكُ (ل٣/٢٤٠)

ورأى مبتدأً وخبراً، أي حقيقةً وتشكّلاً، أو هُيولى وصورةً. ومعروفٌ أنّ ٱلخبرَ في قوّةِ الصِّفةِ وفيه ضميرٌ يعودُ على ٱلمبتدأ، وبينَهما رابطةُ إسنادٍ، وإذا صحَّ هذا فٱلوُجودُ تَشَكُّلٌ من تشكُّلاتِ ٱلحقيقةِ، وبتعبيرٍ آخرَ هو صورةُ ٱلهُيولى ٱلكُلّيةُ، ولكنّه صورةٌ غيرُ مُباشرةٍ، أي في قوَّةِ الصِّفةِ، وفيه عائدٌ، أيْ معنىً أزليٌّ مُبْهَمٌ يتحَرّكُ بٱلحنينِ إليه... وبينَ ٱلحقيقةِ ٱلأولى وبينَ ٱلوُجودِ رابطةُ إسنادٍ غيرُ مُنفَكَّةٍ، إذا ٱضمحلَّتْ فقدْ حقَّ ٱلفسادُ.

ورأى في ٱللُّغةِ نكرَةً ومعرفَةً، أيِ ٱنْبهاما وٱنجلاءً أو ٱنْفصالاً وٱتّصالاً. قال:

عَـرَّفَـتْني، حـتّـى شُـهِـرْتُ، ٱلـلّـيـالـي
ثـمَّ صـالَـتْ عـلـيَّ بـالـتَّـفـكـيـرِ (ل٢/٢٩٧)

وبـعـضُ حـواصِـلِ ٱلأسـمـاءِ دلَّـتْ
عـلـى تـعـريـفِـه، أَلِـفٌ ولامُ (ل٤/١٥٦)

ورأى فيها فِعْلاً تامّاً وناقِصاً، أيْ حركةً فاعلةً ومنفعِلَةً في عَلاقاتٍ جدليّةٍ. ورأى فيها فِعْلاً صحيحاً ومُعْتَلّاً، أي كَوْناً وفَساداً، قالَ، وستأتي معانيها في بحثِ فلسفتِه:

أُعْـلِـلْـتُ عِـلَّـةَ «قـالَ»، وهـيَ قـديـمـةٌ
أعـيـا ٱلأطِـبَّـةَ كُـلَّـهُـمْ، إبـراؤُهـا (ل١/٦٢)

*

جـسـمُ ٱلـفَـتـى مِـثْـلُ «قَـامَ» فِـعْـلٌ
مُـذْ كـانَ، مـا فـارقَ ٱلآعـتـلالا (ل٤/٤٨)

*

إذا غَـدَوْتَ عـنِ ٱلأوطـانِ مـرتَحِـلاً
فضاهِ في ٱلبَيْنِ حَذْفَ ٱلواوِ من «تَعِد» (ل٢/٧٤)

*

إذا ٱعتلّتِ ٱلأفعالُ، جاءَتْ عَليلَةً
كحالاتِها، أسماؤُها وٱلمصادرُ (ل٢/١١٧)

*

وأَهْونْ بهِ في راحةٍ أرْيَحِيَّةٍ
كآخِرِ ماضٍ، ليسَ من شأنِهِ الضَّمُّ (س٢/٤٩)

ورأى فيها ٱسمَ فِعلٍ، أي تجَوْهُرَ ٱلحركةِ، وإذا صحَّ هذا فٱلمعرّيُّ على ما نُقدّرُ يُوافِقُ مَنْ يقولُ بٱستحالةِ ٱلأعراضِ جواهرَ.

وبٱلجُملةِ، رأى فيها من وُجهتِها ٱلأكثرِ شُمولاً وٱستغراقاً، فعلاً وٱسمَ فعلٍ وحرفاً مشبّهاً بٱلفِعلِ، أي ما يُنتِجُ جهداً وشغلاً، وتعمَلُ عملاً ٱليّاً مِيكانِيّاً، (ميكانيكيّاً)، ورأى حَرفاً جاءَ لمعنىً، قالَ:

وٱلبَاءُ مِثْلُ ٱلباءِ،
يَخْفِضُ للدَّناءة أو يَجُرُّ (ل٢/١٧١)

عنَى به أنّ ٱلباءَ، (ٱلباءة: الشَّبَق الشَّهَوِيّ)، مثلَ نظيرَتِها ٱلحرفيّةِ، سبيلُهما ٱلإفضاءُ بمَدخولِهما إلى ٱلانحدارِ وٱلهُبوطِ عن ٱلمُستوى ٱلقِيمِيِّ.

وٱلمعرّيُّ على ضوءِ ٱلآسمِ ٱللُّغويِّ، وبٱلأخصِّ الضّميرِ ٱلّذي هو أعرفُ ٱلمعارفِ، ولا سيَّما ٱلمُستَتِرُ وُجوباً، يَدْرُسُ ٱلجَوْهَرَ أو الشَّيءَ بذاتِه، أي مِن حيثُ هو هو بقطعِ النّظرِ، وهو موضوعُ ٱلعِلْمِ ٱلعقليِّ:

سِرٌّ سيُعْلَنُ، وٱلحياةُ مُعارَةٌ
ولَتُقضَيَنَّ بها، دُيونُ ٱلمُعسِرِ

كخَبيءِ «نِعْمَ وبِئْسَ» يُخْبأُ فيهما
ويكونُ ذاكَ على آشتراطِ مُفسِّرِ (ل٢/٢٦٤)

*

تَزوّجْ، إنْ أردتَ، فتاةَ صِدْقٍ
كمُضْمَرِ «نِعْمَ»، دامَ على الضّميرِ (ل٢/٢٥٤)

وعلى ضوءِ الصِّفةِ يدرُسُ آلفَصْلَ أو آلخاصّةَ أي آلعوارضَ الذّاتيّةَ، قال:

وفي آلأصلِ غِشٌّ، وآلفُروعُ توابعٌ
وكيفَ وفَاءُ النَّجْلِ وآلأبُ غادِرُ (ل٢/١١٧)

وعلى ضوءِ آلحذفِ وآلإيصالِ، والتّضمينِ النّحويِّ، أي إشرابِ كلمةٍ مَعْنى كلمةٍ أُخرى لتتعدّى تعديَتَها، والتّرخيمِ، وعلى قواعدِ التّصريفِ آلمُتَعَلِّقةِ بآلقلبِ آلمكانيِّ والتّصغيرِ وآلإبدالِ، أو آلمُعاقبةِ، يدرُسُ التَّوحُّدَ ومناهجَ تصحيحِ آلكائنِ آلحيِّ في ذاتِه وفي سُلوكِه.

وعلى ضَوْءِ آلقَواعدِ آلمُتَعَلِّقةِ بآلإعلالِ وآلإدغامِ، والتّضعيفِ والتّكبيرِ، وآلمُبالغةِ وتداخُلِ آللّغاتِ، وآلقياسِ والشُّذوذِ وهيئةِ أبنيةِ آلكَلِم، يدرُسُ حياةَ آلجماعةِ أو آلمجتمعِ، قال:

أُمورُ سُكّانِ هذي آلأرضِ كُلِّهِمُ
كلَفظِهِمْ، فيهِ مَنْظومٌ ومَنْثورُ (ل٢/١٣٣)

وعلى ضوءِ قواعدِ آلبلاغةِ في التّشبيهِ، وآلمجازِ بكلِّ أنواعِه، وآلكنايةِ، والآستخدامِ، وآلفصلِ وآلوصْلِ، وآلإطنابِ وآلإيجازِ، وآلجناسِ، يدرُسُ آلحياةَ فيما هي واقعٌ، وفيما هي أسْمى، قال:

تَجانَستِ آلبرايا في مَعانٍ
ولم يَجْلُبْ مَودَّتَها آلجِناسُ (ل٣/٢٨)

عُـرْبٌ وعُـجْـمٌ دائِـلـونَ، وكُـلُّـنـا
فـي الـظُّـلـمِ، أهْـلُ تَـشـابُـهٍ وجِـنـاسِ (ل٣/٦٢)

نَـطَـقَـتْ ألْـسُـنُ آلـحِـمـامِ، وبـآلإيـ
ـجـازِ جـاءَتْ، وكَـثْـرةِ آلإطـنـابِ (ل١/ ١٨٧)

وعلى ضوءِ قواعدِ آلعَروضِ وآلقافيةِ يدرُسُ خَفايا آلإنسانِ وخباياه، وقدِ آهتمَّ بآلعَروضِ كَثيراً مُستكشِفاً. وَلْنَرَ كيفَ آستبدَّ بتيّارِ فكرِهِ حتّى لم يبرَحْ مُصْطَلَحَه في أكثرِ منظومِهِ ولا سيَّما **اللّزوميّاتُ**، وأورِدُ هذه الشّواهدَ كيفَما آتّفقَ، وليسَ على سبيلِ آلإحصاءِ بلْ نماذجَ. وما كانَ له أن يتعلّقَ هذا التّعلُّقَ ويَكْلَفَ به هذا آلكلَفَ إلّا لغرضٍ قاصدٍ، وهو حتْماً غيرُ التّوْشِيَةِ والتّزيينِ، قالَ:

وقـد يُـخـطِـىءُ الـرّأيَ آمـرُؤٌ وهْـوَ حـازِمٌ
كما آختَلَّ في وَزنِ آلقريض، عَبيدُ (ل٢/١٣)

*

إنّ الـطّـويـلَ نـجـيـبُ آلـقَـريـضِ
أخـوهُ آلـمَـديـدُ ولـم يَـنـجُـبِ (ل١/١٨٨)

وقـد طَـوَتْـنـي كـأنّـي ضَـرْبُ مُـنْـسَـرِحٍ
فـيـا لِـطَـيٍّ، لِـطـيٍّ غـيـرِ مُـنـتـشِـرِ (ل٢/٢٣٢)

*

مَـغـانـيـهِ مُـحـيـلاتُ آلـمـعـانـي
كـبـيـتِ الـشّـعـرِ قُـطِّـعَ بـآلـعَـروضِ (ل٣/٩٧)

*

وداري لَكُمْ لم ينقَسِمْ وهو كاملٌ
كمشطورِ وزنٍ ليسَ بآلمُتَصَرِّعِ (س٢/١٤٤)

*

وأكرَمَني، على عَيْبي، رِجالٌ
كما رُوِيَ آلقريضُ على الزُّحافِ (ل٣/١٨٠)

*

وأَعْمارُنا أبْياتُ شِعْرٍ، كأنَّما
أواخِرُها للمُنْشِدينَ، قَوافي (ل٣/١٧٢)

*

وآخِرُ الدَّهرِ يُلْفَى مِثلَ أَوَّلِهِ
والصَّدرُ يأتي على مِقْدارِهِ آلعَجُزُ (ل٢/٣١٨)

هذه هي عناصرُ الطّريقةِ عندَ آلمعرّيِّ، على ما آتّضحَ لنا، وسيمُرُّ بنا شرحُ مسائِلها في آلكلامِ على فلسفتِه ليكونَ أكثرَ آرتباطاً وأصحَّ تطبيقاً وآستنتاجاً، ولكي لا يُعَدَّ شيئاً مُرتَجَلاً أو آفتراضاً شارداً.

وإذا صحَّ أنّ هذه هي الطّريقةُ حقّاً، فآللُّغةُ من وُجهةِ آعتبارِه هي آلكُلُّ آلفكريُّ في آلكُلِّ آلكَونيِّ، وهيَ هيَ حَجَرُ الزّاويةِ في بنايةِ آلفِكْرِ، وقُطْبُ الرّحى كيفَما آتّجهَ ودار.

وعلى أنّه أخذَ بنواميسِ آللُّغةِ لفهمِ آلعامّةِ، تنكّرَ كثيراً لِمَنْ يتلاعبونَ بها تلاعُباً عبثيّاً مِن فُقهاءِ آللّغةِ، قال:

والنُّسْكُ، لا نُسْكَ موجودٌ فنَبْغيه
فعَدٌّ عن فُقهاءِ آللّفظِ، مُرّاقِ (ل٣/٢٢٢)

وأعتَقِدُ أنّ أكبرَ مَنْ تأثَّرَ به، بعدَ أكثرَ مِن ثلاثةِ قُرونٍ، فضلُ آللّهِ آلـحُروفيُّ، (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، مؤسِّسُ النّزعةِ آلـحُروفيّةِ، وهي عقيدةٌ تقومُ على أنّ آلأصلَ في آلـمعرفةِ هو آللَّفظُ، وتُعبِّرُ عن آلـمعاني بآلـحروفِ، وتتّخذُ أُصولَها من قِيَمِ آلـحُروف آلعدديّةِ ثُمّ التّصرّفِ بآلأرْقامِ.

كيف نقرأ المعرّي؟

نحنُ لم نُحسِنْ قراءةَ آلمعرّيِّ بعدُ، فَضلاً عن إحسانِ درسِه، وأنا لا أقولُه تواضُعاً أو تعريضاً، بلْ حقيقةً كُلَّ آلحقيقةِ.

فآلمعرّيُّ، ما دُمنا نقرأُهُ في آثارِه على ضوءِ حرفيّةِ آلمُعْجمِ آلعربيِّ كما نقرأُ أيَّ أثرٍ فِكريٍّ أو أدبيٍّ، فلنْ يَزالَ عسيراً علينا فهمُه، عسيراً علينا السَّيرُ معه.

وقد أدرَك صاحبُ **شرح التّنوير على سَقْطِ الزَّند**، هذا كُلَّهُ، من ضَرورةِ آلمُشاركةِ الشّاملةِ آلكاملةِ لألْوانِ آلمعرفةِ. كما فيه إشارةٌ بارقةٌ إلى وُجوبِ أخْذِ مُفْرداتِه على نحوٍ من آلاستقلالِ، بعيداً عمّا تعارَفتْهُ آلمعاجمُ، وإلّا غَمَضَ عليكَ فهمُه.

يُقرِّرَ هذا كُلَّه وضرورتُه حيالَ أوّلِ براعِمِه، فكيفَ يكونُ أمرُه حيالَ كُتُبِه آلأُخرى كـ **اللّزوميّات** وما إليها من شِعرٍ ونثرٍ.

ولِنفاذِ نَظَرِ هذا الشّارحِ، وَجَدْتُني ـ ولا محيدَ ـ مَسوقاً إلى إثباتِ بعضٍ من نصِّه: «إجتمعتْ لي أدواتُ آلآستقلالِ، آبتداءً من إتقانِ فنٍّ

ٱلأدبِ... ثُمَّ ٱرتقيتُ إلى عِلمِ الشّرعِ، ثمّ تدرَّجْتُ إلى أجزاءِ ٱلحِكْمةِ، طبيعِيِّها وعقليِّها... فجَلَتْ صدأَ ٱلجُمودِ عن مرآةِ غَريزتي وفتّحَتْ بصيرَتي... وجَلَيْتُ بموادِّ ٱلآستبصارِ غزيراً، ومَنْ يُؤْتَ ٱلحِكْمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً... ففَطِنْتُ لمباني أبياتِهِ ٱلّتي هي مُودَعاتُ ٱلحِكَم»[1].

إنَّ ٱلمعرّيَّ، كَما يبدو لي، ٱسْتَحْيا ٱللُّغةَ وتلَبَّسَها لا لتُعَبِّرَ وفْقَ دَلالاتِها، بل وفْقَ دَلالاتِهِ نفسِه، ولا لتُشيرَ إلى ما ٱجتمَعَ فيها من وَحْيِ ٱلعُصورِ وروحِها ٱلجاثمةِ، بل إلى ما ٱجتمَعَ فيها من وَحْيِهِ ولَفَتاتِ روحِه.

فٱلمعرّيُّ له لغتُهُ ٱلخاصَّةُ، وله دلالاتُه ومفاهيمُهُ، وله نحوٌ وقواعدُ بلاغةٍ خاصّةٌ أيضاً، وعبثاً نُحاوِلُ ٱلآهتداءَ إليه وَسْطَ الدُّجْنةِ ٱللَّفظيّةِ ٱلمُحيطةِ به، ونحنُ نعتَمِدُ على ٱلمُعْجميّةِ ٱللُّغويّةِ ٱعتماداً حَرْفيّاً ساذَجاً أحياناً، وغبيّاً أحياناً أُخرى. ولكن يلزمُنا لنقرأَه أمورٌ:

أ ـ تَوَسُّعٌ لغويٌّ كبيرٌ يسمَحُ لنا بٱستيعابِ نواحيهِ ٱلخفيّةِ في لباقةِ تصرُّفِه التّركيبيِّ، ورَوَدانِه ٱلإنشائيِّ.

ب ـ تَدْقيقٌ عميقٌ في خَصائصِ ٱلمعاني أو ما نُسمّيهِ بـ «جوِّ ٱلألفاظِ» وهو شيءٌ خِلافُ ٱلمعنى. فللّفظِ معنىً، وله خيالٌ يَضْفو على ٱلمَعْنى كهالةٍ.

فإذا أخذْنا كلمةً ما، مثلَ «بَرْق»، كانَ لها معنىً في ذاتِها، وهو ٱلحادِثُ السَّحابيُّ ٱلخاصُّ، ولها خيالٌ أو هالةٌ تَطيفُ وهو ٱلآنقداحُ ٱللّامحُ ٱلمُعْترِضُ ٱلأُفقَ، والرّامحُ في حَنايا السّحابِ. وإنّ سِرَّ التّعبيرِ ٱلأدبيِّ ليسَ وراءَ هذه ٱلهالةِ أو دونَها.

(١) **شرح التنوير على سقط الزّند**، ٦/١، ط مَطْبعة ٱلمعارفِ العلميّة بمِصْر.

من ٱلملحوظِ أنَّ ٱلمعنى الثّابتَ هو تبلورٌ للحادثِ الطّبيعيِّ أو ٱلحيويِّ أو ٱلمعنويِّ في ٱللّفظِ، وٱلاستعمالُ يَسْتوي به، فكيفَ نشعُرُ بالتّفاوتِ التّركيبيِّ بينَ كاتبٍ وآخَرَ؟ وما سرُّ هذا التّفاوت؟

إنّ شعورَنا بهذا التّفاوتِ حقيقيٌّ فيه، وإنّ التّفاوتَ يكادُ يبرُزُ ويتجَسّمُ أحياناً لَيُلْمَسُ، فهو حادثٌ حيٌّ لا يُخامِرُنا فيه شكٌّ، إذاً فما السِّرُّ فيه...؟

نحنُ لا نَرْتابُ في أنّه مستقِرٌّ فوقَ ٱلمعنى الثّابتِ، ومُستوٍ في تجسيمِ هذه ٱلهالاتِ وإبرازِها ناطقةً بٱللّحنِ وٱللّونِ، أو ٱلإيقاعِ والتّناسبِ، ثمّ في إحسانِ التّأليفِ بينَها تأليفاً ينشُرُ على ٱلقِطعةِ هالتَها ٱلمُحتبكةَ من هالاتٍ ٱنسجمَتْ وٱستوَتْ في ساحَةِ ٱلواحد.

ولهذا عَهِدْنا النّـقّادَ[٢] يقولونَ لوْ وُضِعَ هذا ٱللّفظُ في مقامِ ٱلآخرِ لكانَ أحسنَ، برُغمِ ترادُفِ ٱللّفظيْنِ في ٱلمعنى، وليسَ هو إلّا لأنّهم مَسوقونَ بهالةِ ٱللّفظِ ٱلّتي تجمَعُ ٱلموسيقى وٱللّونَ ٱلمُؤْتلِفيْنِ في سِياقٍ ما. فٱلعبارةُ ٱلكلاميّةُ تقومُ في معاني ٱلألفاظِ، فهيَ تركيبٌ، وٱلعِبارةُ ٱلأدبيّةُ تَقومُ في هالاتِها فهي أُسلوبٌ.

ومن ٱلخيرِ أن أُحدِّدَ جوَّ ٱللّفظِ أو هالَتَه حسبَ معنايَ به، لِما له من أهمّيّةٍ في ٱلموضوعِ.

أعني بجوِّ ٱللَّفظِ: ذلكَ ٱلمُركَّبَ ٱلحاصلَ من طبيعةِ ٱللَّفظِ وطبيعةِ ٱلمعنى وطبيعةِ ٱلوَقْعِ ٱلحيِّ، وهي بمجموعِها مُلابَساتٌ ولوازمُ. وٱستعمالُ ٱللَّفظِ في معناهُ الثّابتِ تعبيرٌ. وٱستعمالُه في ٱلمعنى الثّابتِ وخيالِه جميعاً أدبٌ. وصَرْفُ ٱللَّفظِ عن معناهُ الثّابتِ إلى خيالِه فنٌّ، يشمُلُ ٱلكِناية

(٢) راجع الرّسالةَ ٱلعَذراءَ لٱبنِ ٱلمُدبّر، ط دار ٱلكتب ٱلعربيّة ٱلكُبرى سنة ١٩١٣ بمِصْر، ضِمْنَ مَجموعةِ **رسائل ٱلبلغاء**.

وآلمجازَ وتمثيلاً ورمزيّةً، أيِ آستعارةً مَكْنيَّةً كما كانوا يُسمّونَها.

وآلحقيقةُ أو آلمَعنى الثّابتُ، وُقوفٌ وجُمودٌ وتبلْوُرٌ، أو بتعبيرٍ آخرَ أقربَ لغايةِ آلمعرّيّ: آنقطاعٌ؛ وآلمجازُ أو خَيالُ آلمعنى صَيْرورةٌ، أو بعبارةٍ أخرى: آتّصالٌ، أيْ نَقْلُ آللّفظِ من نُقطةِ الدّائرةِ إلى مُحيطِها. ولهذا نُلِحُّ في آستصحابِ هذا آلآعتبارِ مع آثارِ أبي آلعلاءِ آلّذي كانَ أعمقَ من سلَكَ آلكِنائيّةَ، وطَوَّعها تَطْويعاً كبيراً.

وأبرزَ ألْوانَ آلألفاظِ كما آرتسَمَتْ في حِسِّ نفسِه، فكَثُرَتْ عندَه ألفاظُ آلألوانِ. وقد أغرَقَ في السّطحيّةِ وآلوهْمِ السّاذَجِ مَنْ زعَمَ أنّ كثرةَ ألفاظِ آلألوانِ عندَه كانتْ بِقَصْدِ تَحدّي آلمُبْصِرينَ.

ج ـ اللّوازمُ آلبعيدةُ وسيمُرُّ بنا حديثُها في آلفُصولِ التّاليةِ.

د ـ إطّلاعٌ واسعٌ على آلأُسطورةِ، وبآلأخصِّ آلعربيّةُ منها، فهي، أيِ آلأسطورةُ، آلعبارةُ آلأولى للعقلِ النّاطقِ بآلفِطرةِ آلخالصةِ، بآلحقيقةِ غيرِ آلمدخولةِ.

هـ ـ تأمُّلٌ دقيقٌ في خصائصِ النّباتِ وآلحيوانِ آلّتي مَتَّنَ بها دعائمَ كنائيّتِه. وهنا أُثبِتُ مُلاحظةً أطمئِنُّ إليها، وهي أنّ آلجاحظَ مَلَكَ آلمعرّيَّ إلى أبعدِ حدٍّ، ولا سيّما في **الحيوانِ** آلّذي يشرَحُ كثيراً من مُبهَماتِ آلمعرّيِّ، وفي رسائِله آلّتي أدارها على آلسّخريّةِ آلحادّةِ آللاّذِعَة.

و ـ المؤثّراتُ آلحيّةُ في آلألفاظِ، على مُقْتَضى ما أَلْمحنا إليه في فصل: «آلمعرّيّ يضَعُ أصولَ فلسفةٍ جديدةٍ»، (ص ٢٥)، من أنّ آللُّغةَ في حَقيقَتِها آستحالاتٌ لخَلَجاتِ آلحيِّ وتَبَعُّثاتِ الذّاتِ، ولذا غَنّى آلإنسانُ قبلَ أن لَغا، فألفاظُها إذاً تحمِلُ نبضاتٍ حيّةً مؤثّرةً فاعلةً، وليسَتْ أبداً صُوَرَ إراداتٍ، بل هي إراداتٌ سوّارةٌ غالبةٌ.

ولعلّ هذا مصدرُ تطيُّرِه، وإذا صَحّ ما نقدِّرُ نلمِسُ ٱلفرقَ ٱلجسيمَ بين تطيُّرِهِ ٱلوشيجِ أي تطيُّرِ ٱلكائنِ بكونِه، وتَطَيُّرِ ٱبْنِ الرّوميّ ٱلمُتَوَهِّمِ ٱلمريضِ.

ز ـ علمُ ٱلحرفِ ٱلمُعَمّى الرّوحانيّ: قد يُستغربُ منّا أن نزعُمَ مثلَ هذه ٱلأسطوريّةِ ٱلحرفيّةِ عندَ ٱلمعرّيّ ٱلمُتَحَلِّلِ من ٱلأوْهامِ وٱلحماقاتِ، ولكنْ إذا تفهَّمْنا رأيَه في ٱللُّغةِ على ما سَبَقَتْ لنا ٱلإشارَةُ إليه، وضمَمْنا إليه ما أُثِرَ من ٱعتمادِ قُدماءِ العربِ على تَحْويلِ ٱلحرفِ إلى عَددٍ وٱلعكسِ، كما فَعَلَ حُيَيُّ بْنُ أخطبَ في: «ألم، ألمص... إلخ» ليعرفَ مدّةَ دوامِ رِسالة النّبيّ[٣]... نجِدُ أنّ هذا الرّأيَ يقودُه حتْماً، وبالضَّرورةِ، إلى «سِرِّ ٱلحَرفِ ذي ٱلقيمةِ ٱلعدديّةِ وٱلحسابيّةِ»[٤]، قال:

(٣) **سيرة ٱبن هشام** ١/٣٣٠، ٣٣١.

(٤) الّذي يَهُمّنا بيانُه منه: أنّ طبائعَ ٱلحُروفِ وأسرارَهاساريةٌ في ٱلأسماءِ ٱلإلهيّةِ، فهي ساريةٌ في ٱلأكوانِ على هذا النّظامِ. وردّوا سِرَّ التّصرُّفِ ٱلّذي في ٱلحُروفِ تارةً إلى التّناسُبِ ٱلعَدديِّ، وتارةً إلى الطّبائعِ، وآونةً إلى ٱلمزاجِ، فتنوّعَتِ ٱلحُروفُ بقانونٍ صِناعيٍّ يُسمّونَهُ التّكسيرَ إلى ناريّةٍ وهوائيّةٍ ومائيّةٍ وترابيّةٍ عَلى حَسَبِ تنوُّعِ ٱلعناصرِ؛ راجِعْ **مقدّمة ٱبن خلدون**. وٱلحُروف النّاريّةُ هي: أ، هـ، ط، م، ف، س، ذ؛ وٱلهوائيّة هي: ب، و، ي، ن، ض، ت، ظ؛ وٱلمائيّة هي: ج، ز، ك، ص، ق، ث، غ؛ والتّرابيّة هي: د، ح، ل، ع، ر، خ، ش. وقُسِّمَتْ هذا التّقسيمَ لأنّها مَحمولةٌ على النُّجومِ ذاتِ ٱلخَصائصِ ٱلمَذكورةِ، قالَ:

ولقد عُلِّم ٱلمُنجّمُ ما يو — جبُ، للدّين، أن يكون صَريحا
مِن نجومٍ ناريّةٍ ونُجومٍ — ناسَبَت تُربةً وماءً وريحا (ل١/٣٠٥)

وإنّ للحرفِ جِسماً وروحاً ونَفساً وعَقْلاً وقُوّةً كلّيّةً وقُوّةً طَبيعيةً، فجِسمُه صورتُه، وروُحه ضَربُ عددِهِ في مِثله، ونفسُهُ ضربُ عددهِ في ثلاثةٍ، وقلبُه ضربُ عددهِ في أربعةٍ، وعقلُهُ ضربُ جُملةِ ٱلجِسمِ والنّفسِ والقَلبِ في أربعةٍ، وقُوّتُه ٱلكلّيّةُ ضربُ عقلِهِ في أربعةٍ، وقُوّتُه الطّبيعيّةُ ضربُ قُوّتِه ٱلكُلّيّةِ في مِثْلِها؛ راجِعْ كتاب **سعود المَطالع** للأبياري، ص ١٩٧ ـ ٢٠٤، وأشار إلى هذا في قوله:

يَقولون: مَسْكُ ٱلجَفْرِ أُودِعَ حِكْمَةً — إذا كُتبتْ أطراسُها مَلأت جَفْرا (ل٢/١٨١)

وآلــلّــيــالــي هَــوازِىءٌ، راجِــعــاتٌ
فــي «أبــي جــادهــا»، وفــي «هَــوّازِ» (ل٢/٣٢٨)

يعني (أبجد، هوّز) إلى آخرِ الأبجديّة.

*

كــمْ غَــرَّ صــاحــبــةَ آلــجَــمــالِ
مُــنــجِّــمٌ بِــحــســابِ جُــمَّــلْ (ل٤/١٢١)

*

ستَضْرِبُني آلحوادثُ في نَظيري
فتَمحَقُني، ولا أزدادُ ضِعفي (ل٣/١٧٧)

*

سَما نَفَرٌ، ضَرْبَ المِئِينَ، ولم أزَلْ
بحمدِك، مثلَ آلكسرِ يُضربُ في آلكَسْرِ (ل٢/٢١٤)

*

خَبَرَ آلحياةَ شُرورَها وسُرورَها
مَنْ عاشَ عِدَّةَ أوَّلِ آلمتقاربِ
وافى بذلكَ أربعينَ، فما لَه
عُذرٌ، إذا أمسى قليلَ تَجارِبِ (ل١/١٨٢)

وإليكَ ممّا قَدْ يؤكِّدُ هذا التّقديرَ في أنّه أخذَ هذا آلمأخذَ، قولَه:

تواصَلَ حبلُ النَّسْلِ ما بينَ آدمٍ
وبيني، ولم يُوصَلْ بلامِيَ باءُ

هذا آلبيتُ أعجزَ الشّارحينَ؛ فمنْهم من ذهبَ إلى أنّه يَعني الشّخصَ وآلباءَة بآللّام وآلباءِ، ومنهم مَن فَهِمَهُ على ضوءِ الصّناعةِ آللّفظيّةِ آلّتي

شاعَتْ كثيراً في عُصورِ ٱلأدبِ ٱلعبّاسيِّ ٱلمُتَأخِّرِ، فَرأى معناه: أنّ ٱلحبلَ ٱلخاصَّ به وٱلّذي يصِلُهُ بآدمَ سقطَت باؤهُ فباتَ حَلاًّ... إلخ.

أمّا أنا فأجِدُ في هذا ٱلبيتِ إيماءً إلى تعلُّقِه بعلمِ ٱلحرفِ ٱلمذكورِ وإلمامِه به وٱستخدامِه إيّاه. عرفْنا في هذا ٱلعِلم أنّ «حرفَ ٱلحاءِ تُرابيٌّ، وحرفَ ٱلباءِ هوائيٌّ وحرفَ ٱللّامِ تُرابيٌّ»، وهو بهذا يُشيرُ إلى أنّ وُجودَه ٱلفَنائيَّ التُّرابيَّ لم توصَلْ به نَسَمةٌ هوائيَّة، وٱنظُرْ إلى دقّةِ تعبيرِه بكلمةِ «حَبْل» في مجالِ ٱلحَبَل ٱلّذي يَحْوي نَسَمَةً جديدةً، ليُشيرَ به إلى أنَّ النّسلَ هواءٌ بينَ تُرابَيْنِ ونَسَمةٌ بينَ فَناءَيْن قال:

حياةٌ كجِسْرٍ بينَ مَوْتَيْنِ: أوّلٍ
وثانٍ، وفَقْدُ الشّخصِ، أن يُعْبَرَ ٱلجسرُ (ل١١٢/٢)

ديباجة رسالة الغُفران

أُرجِّحُ، بل أَقْطَعُ، بأنّه لا سبيلَ إلى ٱلمعرّيِّ، ما لم نتقدّمْ بينَ يديْ قراءتِهِ بهذهِ ٱلأسبابِ والسُّبلِ ٱلّتي تأخُذُ بنا إليه، إليه نفسِه.

والآنَ أضَعُ بينَ يديِ ٱلقُرّاءِ ديباجةَ **رِسالةِ ٱلغفران** ٱلّتي أظنُّ أنّها تقطَعُ كُلَّ ريبٍ في ٱعتمادِ ما سَبَقْنا به من هذهِ الطّريقةِ، وليسَ الطّريقةَ ٱلمُعْجَمِيّةَ السّاذَجَةَ، بل لا أبالغُ إذا قُلتُ إنّها على طريقتِنا تُعطينا مِفتاحَ لُغْزِه. وهاكَ نصَّها ٱلكاملَ:

أللّهُمَّ يَسِّرْ وأَعِنْ

قد علمَ ٱلحَبْرُ(١) ٱلّذي نُسِبَ إليه جبريلُ، وهو في

(١) الحبر: هكذا وَرَدَ بٱلحاءِ ٱلمهملةِ في النّسخةِ ٱلّتي حقّقَها الشّيخ إبراهيم ٱليازجيّ لمَطْبعة هندية بٱلقاهرة، وأيضاً وَرَدَتْ بٱلحاءِ في كتاب **أوج التّحرّي** للبديعيّ. وهو تَصْحيفٌ صَوابهُ: «ٱلجبر» بٱلجيم، وهو في العربيّةِ وبعضِ السّاميّاتِ يَعْني الرَّجُل، ويقطَعُ كُلَّ ريب أو شائبَةٌ قولُ ٱلمَعرّيّ نفسِه في **ٱللزوميّات**:

مَـن جَـبـرئـيـلُ؟ إذا تُـخـوِّفُـهـم
لا إيـلُ، عـنـدَهـم، ولا جَـبـرُ (ل٢/١٦٩)

آلخَيْراتِ سبيلٌ، أنّ في مسكني حَماطَةً[٢] ما كانَتْ قَطُّ أَفانِيَةً[٣]، ولا النّاكِزَةُ[٤] بها غانِيَةٌ، تُثمِرُ من مودّةِ مولايَ الشّيخِ ـ كبَتَ آللّهُ عَدُوَّه، وأدامَ رَواحَه إلى آلفَضْلِ وغُدُوَّه ـ ما لو حمَلَتْهُ آلعادِيَةُ[٥] من الشّجرِ لَدَنَتْ إلى آلأرْضِ غُصونُها، وأُزيلَ[٦] من تلكَ الثّمرةِ مَصونُها.

وآلحَماطةُ ضَرْبٌ من الشّجرِ، يُقالُ لها إذا كانَتْ رَطْبةً: أفانِيَة، فإذا يَبِسَتْ فهي حَماطةٌ، قال الشّاعرُ:

إذا أُمُّ الوُلَيِّدِ لم تُطِعْني
حَنَوْتُ لها يدي بعَصا حَماطِ
وقُلتُ لها: عليكِ بني أُقَيْشٍ
فإنَّك غيرُ مُعجبةِ الشَّطاطِ

وتوصَفُ آلحَماطةُ بإلْفِ آلحَيّاتِ لها، قال:

أُتيحَ لها، وكانَ أخا عِيالٍ
شُجاعٌ في آلحَماطةِ مُستكِنٌّ

وإنّ آلحَماطةَ آلّتي في مَقَرّي لتَجِدُ من الشّوقِ

(٢) الحَماطَةُ هي ذاتُ معانٍ آستطردَ آلمعرّيّ بذكرِ بعضِها منها: شجرةٌ اضطربَ آللُّغويّونَ في تَعْيينها، وقَطَع آبن سِيدَه بأنّها التّينةُ آلجبليّةُ، ومنها: حبّةُ آلقلب.

(٣) أفانية: رَطبة لم تَيْبس، أو فاسدَة، وأيضاً: الرّطب من شَجَرِ آلحَماط.

(٤) الناكزة: آللاّسبة، الطاعنة آلواخِزَة؛ غانية: حالية بأسْبابِ اللّسب والوخز، وأخطأ من فَهِمَها بمعنى آلمُقيمة.

(٥) العادية: آلقَديمة، وأصلُها النّسبة إلى قبيلةِ عادٍ آلبائدةِ، فعمّتْ لتدُلّ عَلى كلِّ قديمٍ داهرٍ، ولذا أطلقَ آلمُحدثونَ آليومَ على عِلم آلآثارِ، (الأركيولوجي)، علم آلعاديات.

(٦) أزيل، أذيل: هكذا في نُسخٍ مختلفةٍ، وهُما من حيثُ الدّلالةُ مُتقاربانِ، فذاتُ الزّاي بالتّطقِ من آلمزيدِ تَعْني التّنحيةَ، وذاتُ الذّالِ تَعْني آلآبتذالَ وسُهولَةَ التّناولِ، وأرى أنّها بالزّاي هي الأقومُ.

حَماطةً، ليسَتْ بالـمُصادفةِ إماطةً. وٱلحماطةُ حُرقةُ ٱلقلبِ، قال الشّاعر:

وهَمٌّ تُملأُ ٱلأحشاءُ منه
... ...»[7]

فأمّا ٱلحَماطةُ ٱلمَبدوءُ بها فهيَ حبّةُ ٱلقلبِ، قالَ الشّاعرُ:

رمَتْ حَماطةَ قلبٍ غيرِ مُنصرِفٍ
عنها، بأسْهُمِ لَحْظٍ لم تكُن غَرَبا

*

وإنّ في طِمْرِيّ[8] لَحَضْباً[9] وُكِلَ بأَذاتي، لو نطَق لذَكَرَ شَذاتي[10] ـ ما هو بساكنٍ في الشِّقابِ[11] ولا بمُتشرّفٍ على النِّقابِ[12]، ما ظهرَ في شتاءٍ ولا صيفٍ، ولا مَرَّ بجبلٍ ولا خَيْفٍ[13] ـ يُضْمِرُ من محبَّةِ مولايَ الشّيخِ ٱلجليلِ، ثبّتَ ٱللّهُ أركانَ ٱلعِلمِ بحياتِه، ما لا تضمرُهُ للولدِ أُمٌّ، أكانَ سُمُّها يُدَّكَرُ أمْ فُقِدَ عندَها

(٧) هكذا وَرَدَ في النُّسخ ٱلمَحفوظةِ: ساقط ٱلعَجُز ٱلّذي هو محلُّ الشّاهد.

(٨) الطِّمر: الثّوبُ ٱلخَلَقُ ٱلبالي الرّثّ.

(٩) الحَضب: هو ذو معانٍ ٱستطردَ المعرّيُّ بذكرِ بعضِها منها: الحيّة أو ذَكَره الضّخمُ إلخ، أنظر أمّهات ٱلمعاجم.

(١٠) الشّذاة: ذاتُ معانٍ منها الشّرّ، الشّدّةُ أو بقيّتُها، وٱسم ذُبابِ الدّوابِّ ٱلّذي يَقَعُ عليها فيؤذيها، إلخ.

(١١) الشّقاب: جمع شَقْب وهو مَهواة أو صَدْعٌ بين جَبَلَيْن.

(١٢) النّقاب: جمع نقب وهو مَسلكٌ ضيّقٌ في ٱلجَبَل.

(١٣) الخيف: ٱلمُنْحَدَر ٱلمختلِفُ ألوانِ ٱلحَصى.

السُّمُّ. وليسَ هذا آلحَضْبُ مُجانِساً للّذي عَناهُ الرّاجزُ في قوله:[١٤]

وقدْ تَطوَّيتُ آنطواءَ آلحَضْبِ

... ...»

وقد عُلِمَ ـ أدامَ آللّهُ جمَالَ آلبراعةِ بسلامتِه ـ أنّ آلحَضْبَ ضَرْبٌ من آلحَيّاتِ، وأنّه يُقالُ لحَبّة آلقلبِ حَضْبٌ.

*

وإنّ في منزلي لأَسْودَ ـ هو أعزُّ عليَّ من عنترةَ[١٥] على زَبيبَةَ، وأكرمُ عِندي من السُّلَيْكِ[١٦] عندَ السُّلَكَةِ، وأَحقُّ بإيثاري من خُفافِ السُّلَميّ[١٧] بخَبايا نَدْبَةَ ـ وهو أبداً مَحجوبٌ، لا تُجابُ عنه آلأغطيةُ ولا يجوبُ، لو قَدَرَ لَسافَرَ إلى أنْ يَلقاه، ولـمْ يَحِدْ عن ذلكَ لِشَقاءٍ يَشْقاه. وإنّه إذْ يُذكَرُ، لَيُؤَنَّثُ في آلمنطق ويُذكَّرُ، وما يُعلَم أنّه حقيقيُّ التّذكيرِ، ولا تَأنيثُهُ آلمعتمَدُ بنَكيرٍ. لا أفتأُ دائباً فما رَضِيَ، على أنّه لا مَدْفَعَ لما قُضِيَ.

(١٤) الراجزُ هو رؤبةُ بْنُ العَجّاجِ، وكاملُ آلبيت:

وقـد تَطَـوَّيْـتُ آنـطـواءَ آلـحَـضْـبِ
بـيـنَ قَـتـادِ ردهـةٍ، وشَـقْـبِ

(١٥) عنترة آلعبسيّ: الشّاعرُ آلفارسُ آلمسوَدُّ آللّون؛ زبيبة: آسمُ أمّه وهي سوداء آللّون.

(١٦) السّليك السّعديّ: شاعرٌ من الأغربَةِ؛ السُّلَكَة: آسمُ أمّه وكانَتْ فاحمةَ آللّون.

(١٧) خفاف السّلميّ: شاعرٌ من الأغربةِ؛ ندبة: آسمُ أمّه وكانَتْ حالكةَ آللّونِ.

أُعظِمُهُ أكثرَ من إعظامِ لَخْمٍ آلأَسودَ بْنَ آلمنذرِ[١٨]، وكِندَةَ آلأسودَ بْنَ مَعَد يكرب[١٩]، وبني نهشلِ بنِ دارمٍ آلأسودَ بْنَ يعفُرَ[٢٠] ذا آلمقالِ آلمُطْرِبِ. ولا يَبْرَحُ مُولَعاً بذكرِه كإيلاعِ سُحَيْمٍ بعُمَيْرةَ[٢١] في مَحضَرِه ومَبداه، ونصيبٍ[٢٢] مولى أُمَيَّةَ بسُعْدَاه.

وقد كانَ مِثلُه معَ آلأسودِ بْنِ زمعةَ[٢٣]، وآلأسودِ بْنِ عبدِ يَغوث[٢٤]، وآلأسْوَدَينِ[٢٥] آللّذين ذكَرَهُما آليشكريُّ في قولِه:

فهداهُم بالأسوَديْنِ وأَمْرُ آللّهِ بَلْغٌ يَشقَى به آلأشقياءُ.

ومعَ أَسْوَدانَ آلّذي هو نَبهانُ بنُ عمرو بنِ آلغوثِ بنِ طَيِّئٍ، ومعَ أبي الأسودِ آلّذي ذكَرَهُ آمرؤُ القيسِ في قولِه:

(١٨) الأسود آللّخميّ: من ملوك آلحِيرَة.

(١٩) الأسود آلكِنْديّ: من أشرافِ كِندة.

(٢٠) الأسود النّهشليّ: شاعرٌ جاهليٌّ متقدِّمٌ، مقلٌّ لكنّه مُجيدٌ ولا سيّما في مطوّلتِه الدّاليّة.

(٢١) سُحيم: عبدٌ حبشيٌّ كانَ حبشيّاً؛ عُميرة: حبيبتُه آلّتي شَبَّبَ بها كثيراً.

(٢٢) نُصيب بن رباح: شاعرٌ أمويٌّ أسودُ آللّون؛ سعدى: آسمُ آلّتي آشتُهر بحُبّها.

(٢٣) الأسودُ بن زمعة: قرشيٌّ قُتِلَ بَنوه يومَ بدرٍ مع آلمُشركينَ، فأسيَ كثيراً وأراد بُكاءَهم ولكنّ زُعماءَ قريشٍ حرّموا آلبُكاءَ، فتفجَّعَ وكَرَبَهُ آلخَطْبُ وآلتاعَ تَحرُّقاً لبُكائهم.

(٢٤) الأسودُ بن عبدِ يَغوث: يُظَنُّ لآضطرابِ الرّواياتِ أنّه مع سابقه شخصٌ واحدٌ، والتّصحيف جَرَّ إلى عَدِّهما شخصَيْن.

(٢٥) إختلَفَ شُرّاحُ آلمُعلّقاتِ فيهما وفي مَعْناهما، وفي الرِّوايةِ أيضاً فتارةً: فغزاهُم، وتارةً: تَشْقى به.

وذلـكَ مـن خـبـرٍ جـاءَنـي
ونُـبِّـئْـتُـهُ عـن أبـي ٱلأسـودِ[٢٦]

وما فارقَهُ أبو ٱلأسودِ الدُّؤَليُّ[٢٧] في عمرِه طَرْفةَ عَينٍ، في حالِ الرّاحةِ ولا ٱلأَيْنِ. وقارَنَ سُوَيدَ بْنَ أبي كاهلٍ[٢٨]، يرُدُّ به على ٱلمناهلِ. وحَالفَ سُويدَ بنَ الصّامتِ[٢٩]، ما بينَ ٱلمُبْتَهِجِ والشّامتِ. وساعَفَ سُويدَ ٱبْنَ صُمَيع[٣٠]، في أيّام الرّتَبِ[٣١] والرَّيعِ، وسويدُ هذا ٱلّذي يقولُ:

إذا طَلَبوا منّي ٱليَمينَ مَنَحْتُهمُ
يَميناً كَبُرْدِ ٱلأَتحَمِيِّ ٱلمُمَزَّقِ[٣٢]

وإنْ أحلَفوني بالطّلاقِ، أَتَيْتُها
على خيرِ ما كُنّا، ولم نَتَفرَّقِ

وإن أحلَفوني بٱلعَتَاقِ، فقدْ دَرى
عُبَيْدٌ غُلامي، أنّه غيرُ مُعْتَقِ

(٢٦) أبو ٱلأسْوَد: هو ٱلّذي نَقَلَ إلى ٱمرىء ٱلقيس نَبأَ مصرع أبيه.
(٢٧) أبو ٱلأسودِ الدُّؤَليُّ: ظالمُ بنُ عَمرٍو واضعُ عِلمِ النّحوِ في أشْهَرِ ٱلأقوال.
(٢٨) سُوَيد بْن أبي كاهِلٍ: شاعرٌ متقدّمٌ من بَني يَشْكُر.
(٢٩) سُوَيد بْن الصّامت: شاعرٌ من الأوسِ قتلَه ٱلخَزرَجُ حاجّاً أو معتمِراً، وكان مقدَّماً في الرّأي وٱلكلمة.
(٣٠) سويدُ بن صميع ٱلمرثديّ: شاعرٌ من بَني ٱلحارِث.
(٣١) الرّتب: ضِيقُ ٱلعَيْشِ وشِدّتُه.
(٣٢) الأتحميّ: هو هنا نِسبةٌ إلى ٱلأتحم: ٱلأدهمُ ٱلمِسْواد، وليَس كما توهّموا أنه ٱلبُردُ ٱلمُخطَّطُ بالصُّفرة، ولو أرادَهُ الشّاعرُ لَحَذَفَ أداةَ التّعريفِ وقالَ: كبُرْدِ أتْحَمِيٍّ ممزَّقِ.

وكان يَأْلَفُ فِراشَ سَوْدَة بنتِ زمعةَ بنِ قيسٍ[٣٣] آمرأةِ النَّبيِّ صلّى آللّهُ عليهِ وسلّم، ويعرِفُ مكانَه الرّسولُ، ولا يَنحرِفُ عنه السُّولُ[٣٤]. ودخلَ آلجَدَثَ مع سَوادةَ آبْنِ عديّ[٣٥]، وما ذلك بزَوْلٍ[٣٦] بَدِيّ.

وحَضَرَ في نادٍ حضَرةُ آلأسودانِ آللّذانِ هما آلهَنَمُ[٣٧] وآلماءُ، وآلحَرَّةُ آلغابرةُ والظَّلماءُ. وإنّه ليَنْفِرُ عن آلأَبيضينِ[٣٨]، إذا كانا في الرَّهَجِ[٣٩] مُعَرَّضينِ، آلأبيضانِ آللّذانِ ينفِرُ منهُما: سيفانِ أو سيفٌ وسِنانٌ. ويَصبِرُ عليهما إذا وجدَهما، قالَ الرّاجزُ:

الأَبيضانِ أَبْردا عِظامي
الماءُ وآلفَتُّ بِلا إدامِ[٤٠]

ويرتاحُ إليهما في قولِ آلآخَر:

(٣٣) سودة بنت زَمعة: قرشيّةٌ عامريّةٌ. أُولى زوجاتِ النّبيّ بعدَ وفاةِ السّيدةِ خَديجةَ.

(٣٤) السّول: مُخَفَّفُ السُّؤل بمَعْنى المتمنّى المُشْتَهى.

(٣٥) سوادة بن عديّ: إبن زيدٍ آلعباديّ، إليه يُنسَبُ عندَ بعضِ الرُّواة قولُ:

لا أرى آلمَوْتَ، يسبِقُ آلموتَ شيءٌ
نَغّصَ آلموتُ ذا آلغِنى وآلفقيرا

(٣٦) زول: عَجَب، شَخْص.

(٣٧) الهنم: التّمر.

(٣٨) الأبيَضان: عَرَضَ لذِكْرِهما لأنّ الضّدّ أقربُ خُطوراً في آلبال.

(٣٩) الرّهَج: آلغُبار وهو هنا كِنايةٌ عن آلحَرْب.

(٤٠) الفَتّ: يُروى أيضاً بالثاء أي آلفَثّ وهما مُترادِفان على معنىً واحدٍ.

ولكنّه يَمْضي ليَ ٱلحَوْلُ كُلُّه
وما ليَ إلّا الأَبيضينِ شَرابُ(٤١)

فأمّا ٱلأَبيضانِ ٱللّذانِ هما شحمٌ وشبابٌ، فإنّما تَفرَحُ بهما الرَّبابُ(٤٢)، وقد يُبتَهجُ بهما عندَ غَيْري، فأمّا أنا فَيَئِسا من خَيري.

وكذلك ٱلأحامرةُ، وٱلأَحمرانِ(٤٣)، فإنّه يعجَبُ لهما أسودُ رانِ(٤٤)، فيتبَعُه حَليفُ سِتْرٍ، فأنزَلَ به حادثُ هِتْرٍ(٤٥)...

الديباجة على طريقتهم

المعنى ٱللُّغويُّ الظّاهرُ في هذه ٱلقطعةِ لا ٱئتلافَ فيه ولا ٱرتباطَ، ممّا تقرُبُ معه أن تكونَ مثلَ خواطرِ ممرورٍ مُمَخْرِقٍ، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

عَلِمَ ٱلجبرُ ـ الّذي نُسِبَ إليه ما لا نَدْري ما هو هنا، ويُسمّيهِ جبريلَ ـ أنّ في منزلي تينةً أو شجرةً جبليّةً تُشبهُها، ما كانتْ قطُّ رطبةً ولا النّاهشةُ بها مُستغنيةً، تُثْمِر من موَدّةِ الشيخِ إثماراً لو حَمَلَتْ مثلَه الشّجرةُ

(٤١) ٱلأبيضيْنِ: مِن ٱلمُثنَّيات ذَواتِ الدَّلالاتِ ٱلمُختلفاتِ، وٱلمَقْصودُ هنا: ٱلماءُ والرّطبُ، وٱلبيتُ لهُذيلِ بنِ عَبدِ ٱللّهِ ٱلأشجعيّ.
(٤٢) الرّباب: تعني هنا الشابّة لأوّل عَهْدِها وعُنْفُوانها.
(٤٣) الأحمران: ٱللّحم وٱلخمر.
(٤٤) أسود ران: مُركّبٌ إضافيٌّ من مَوْصوفٍ وما هو في قُوّةِ الصِّفةِ، وتَحليلُ ٱلمُركّبِ ٱلمذكورِ: أسودُ أي حبّةُ ٱلقلبِ وجوهرُه، وران: مُرادفٌ للرّين وهو ما يتغشّى ٱلفُؤادَ من دَنَسِ نزوةٍ وصدأُ طبعٍ، وٱلمعنى يعجبُ لهما قلبُ دَنسٍ، وأخطأَ شَنيعاً من تَوَهَّمَ أن ٱلأسودَ هُنا يَعْني سَوادَ ٱلحَدقةِ، وران بمَعْنى الرّاني النّاظِرِ، إذ لا مَعْنى له في هذا ٱلمَقام.
(٤٥) الهتر: بكَسْرِ الأوّلِ الدّاهيةُ، وبالضّمّ ذَهابُ ٱلعقلِ من مَرَضٍ أو شَيخوخَة.

آلعادِيةُ ـ نسبةً إلى آلعادةِ أو إلى عادٍ آلقبيلةِ الدَّهريّةِ ـ لأثقلَتْ وتراخَتْ غُصونُها إلى آلأرضِ.

وهُنا يستَطرِدُ فيشرَحُ «آلحَماطَةَ» بأنّها ضرْبٌ من الشّجرِ وأنّ آلحيّاتِ تألَفُها، وينقطعُ به آلاستطرادُ ليعودَ فيقولَ: إنّ آلّتي في منزِله تَجِدُ من الشّوقِ حُرْقةً لا تُماطُ، كما يَسْتَطْرِدُ أيضاً فيشرَحُ آلحَماطةَ بأنّها حُرقةُ آلقلبِ مرّةً وحبّةُ آلقلبِ مرّةً أُخرى.

وما هو حتّى ينتقِلَ قائلاً: إنّ بينَ ثوبيهِ آلخَلِقَينِ حَضْباً، أيْ حيّةً، وُكِلَ بأذاتهِ ولو نطَقَ لذَكَرَ شُرورَه ومَعايبَه، وحَيَّتُه لم تسكُنْ أبداً في صُدوعِ آلجبالِ، ولم تُشرِفْ من النُّقوب، ولم تَظهَرْ في شِتاءٍ ولا صيفٍ وما مَرَّت في جبلٍ ولا خِيفٍ وسفْحٍ. وحَضْبُه يُضمِرُ من محبّةِ الشّيخِ ما لا تضمِرُه أُمٌّ لولدِها أكانَ عندَها سُمٌّ يُذكَرُ أمْ فُقِدَ سُمُّها، وليسَ حَضْبُه من جنسِ الحيّاتِ. فقد عَلِم الشَّيخُ أنّ آلحَضْبَ يُطلَقُ على ضربٍ من آلحيّاتِ تارةً، وتارةً على حبّةِ آلقلب.

وينتَقِلُ مرّةً ثالثةً فيقولُ: إنّ في منزِله أسوْدَ أيْ أُفْعوانَ، هو عزيزٌ عليه جدّاً وهو محجوبٌ أبداً لا تُكْشَفُ عنه آلأغطيةُ وآلأستارُ. ولو قَدرَ لسافَرَ إلى لقاءِ الشّيخِ ولم يُقعِدْه شَقاءُ النّصَبِ وإرهاقُ الأَيْنِ والتّعبِ.

وآلمعرّيُّ لا يفتأُ جاهِداً فيما يرضاهُ، ولا دافِعَ لِما قَدْ قُضِيَ وقُدِرَ عليه، وهو أيضاً يُعظّمُهُ إعظاماً كبيراً، على أنّ أُفعُوانَه مولَعٌ بذِكْرِ الشّيخِ وُلوعَ آلهُيامِ.

ومثلُ هذا آلأفعوانِ كانَ مع آلأسودِ بنِ زمعةَ، وأبي آلأسودِ الدّؤليّ، وكانَ يألَفُ فِراشَ سودةَ بنتِ زمعةَ زوجِ النّبيِّ ويعرِفُ الرّسولُ مكانَه ولم تنحَرِفْ أُمنيّةُ سودةَ عنهُ بل كانَ أقصى مُشتهاها.

وهذا آلأُفعوانُ يحضَرُ مع آلأسودينِ أي التَّمرِ وآلماءِ، ومعَ آلأسودينِ أيْ موضعِ آلحَرَّةِ وآلظّلماءِ. وينفرُ عن آلأبيضينِ أي السَّيفِ وآلرُّمحِ إذا أُصْلِتا في آلحربِ، ويصبرُ على آلأبيضينِ أي آلماءِ وآلفَتِّ، ويرتاحُ إلى آلأبيضينِ أي التّمرِ وآلماءِ. وأمّا آلأبيضانِ، أي الشّحمُ والشّبابُ، فتفرَحُ بهما آلغَزِلَةَ من النِّساءِ، ويبتهجُ بهما غيرُه من ذَوي التّصابي.

وأمّا آلأحامِرةُ وآلأحمرانِ، أي آللّحمُ وآلخمرُ، فإنّما يعجَبُ لهما أسودُ رانٍ، أيْ مَنْ صدِىءَ قلبُه ودنِسَ طبعُه، ويتبَعُه ذو هَوىً غيرُ مُجاهِرٍ، لم تنزِلْ بساحتِه آلأقدارُ، ولم تَغْزُهُ غازيةُ آلقَضاء...

هي قطعةٌ تَبْدو في حرفيّةِ آلمُعْجَمِ طائفةَ خواطرَ مريضةٍ من مُحَمَّقٍ، ووحدَتُها هذا آلمُشتركُ آللّفظيُّ آلّذي، بتداعيه، تَتَداعى آلمعاني آلمُتَنافرةُ وآلّتي تظَلُّ متنافرةً أيضاً. وإلّا فما هو جبريلُ هُنا؟ وما هي تلكَ آلحَماطَةُ وذلكَ آلحضْبُ وذيّاك آلأسْوَدُ آلعزيزُ عليه آلعظيمُ عندَه؟

إذاً فحرفيّةُ آلمُعْجَمِ لا تضمَنُ لنا سبيلَ آلوُصولِ إليه أبداً، بلْ على آلعكسِ تُضِلُّنا وتُقدِّمُ لنا منه رجلاً مَأْفوناً تمدُّهُ الرّعونةُ آلحُوشِيّةُ آللُّغويّةُ بخواطرَ شاردةٍ حمقاءَ ليسَ فيها شائبةُ آتّساقٍ. وإنّما سبيلُنا إليه ليسَ شيئاً وراءَ ما ألمحْنا به ودَلَلْنَا عليه من مَنهجٍ...

الديباجة على طريقتنا

ولْنأخُذِ آلقطعةَ على طَريقتِنا، لِنرى كيفَ تشتمِلُ على كُنْهِه وتُعرِّفُنا بحقيقتِه آلخافيةِ آلّتي تقلّبَتْ في ثلاثِ مراحلَ:

١) مرحلةِ كونِه مِثْلَ آلحَماطةِ،

٢) مرحلةِ كونِه مِثْلَ آلحَضْبِ،

٣) مرحلةِ كونِه مِثْلَ ٱلأسْوَدِ.

ولكنْ، قبلَ ٱلأخذِ بتحليلِها نُنَبِّهُ على جملةِ ملاحظاتٍ:

أوّلاً ـ الكنائيّةُ ٱلّتي أشرْنا إليها.

ثانياً ـ التّلاعُبُ ٱلمُتَعَمَّدُ ٱلمَقْصودُ، ألسْتَ تلمِسُ هذا التّلاعُبَ قصْدَ ٱلإغفالِ وٱلعَبَثِ السّاحرِ في قولِهِ: «أعزّ عليَّ من عنترةَ على زبيبةَ» إلى كَثيرٍ كَثيرٍ منها.

ثالثاً ـ مقامُ ٱلمُشترَكِ الثّابتِ في أُسلوبِه، ونَرى ضَروريّاً التّلميحَ هنا إلى مَعنى ٱلمُشْتَرَكِ ومكانِه في ٱلمعرفةِ عندَه على ما نُقَدِّرُ.

المُشترَكُ ٱللّفظيُّ مثلُ «حَمَاطَة»، «حَضْب»، هو مركزُ معانٍ شتّى أو ٱنبثاقاتٍ شتّى، وإلْفُ حيواتٍ مُختلفاتٍ وَيَنْبوعٌ تَتَشَعَّعُ وتتوزّعُ منهُ روافدُ تذهَبُ هُنا وهُناك. وٱلمُشْتَرَكُ في ٱللُّغةِ مثلُ ٱلإنسانِ في ٱلأحياءِ، أي مُعَقّدٌ تَعقُّدَ ٱلإنسانِ بما فيه من نَزَعاتٍ إذا ٱلتَفَّتْ وٱلتَوَتْ على بعضِها حقّتِ ٱلمُعْضِلةُ، مثلَما ينعقِدُ ٱلمُشْتَرَكُ إذا لم تُضَفْ إليه ٱلقرينةُ، قال:

أَسْنَيْتُ مِن مَرِّ السِّنينَ ولمْ أُرِدْ
أَسنَيْتُ من ضوءِ السَّنا ٱلبَهّارِ (ل٢/٢٧٣)

وفَوائدُ ٱلأسفارِ جمعُ السِّفْرِ في الدُّنْـ
ـيا تَفوقُ فوائدَ ٱلأسفارِ (ل٢/٢٨١)

وٱلمُشْتَرَكُ ٱللَّفظيُّ من وجهٍ آخرَ سُلَّمُ التّأمُّلِ التّجريديِّ، وسبيلُ التّداعي ٱللّفظيِّ وٱلمعنويِّ، من جهةِ أنّه يُشبِه كُوًى تُطِلُّ على عوالِمَ معنويّةٍ شتّى.

رابعاً ـ الدّقّةُ في خصائصِ النّباتِ وٱلحيوانِ وٱلأشخاصِ التّاريخيّينَ، هذه ٱلخصائصِ ٱلّتي يتّخِذُ ٱلمعرّيُّ منها مادّةً للكِناية.

خامساً ـ وحدةُ ٱلقِطْعةِ القائمةُ في ٱلأساوِدَةِ وألوانِ ٱلألفاظِ ٱلمُفعَمَةِ بٱلسّوادِ ٱلمُتّشِحةِ بٱلأرْزاءِ...

وبُمصاحبةِ هذه ٱلمُلاحظاتِ، ننتقِلُ إلى درسِ ٱلقِطْعةِ وتَحليلِ مراميها ومقاصدِها، ونبدأُ، قبلَ كلِّ شيءٍ، بِشَرْحِ ٱلمُفْرَداتِ الرّامزةِ:

□ **جبْر**: له في ٱللُّغةِ وجوهٌ من ٱلمعاني، بينَ ٱلمَصْدريّةِ وٱلوَصْفيّةِ وٱلآسميّةِ، منها: ٱلقهرُ، السّيطرةُ ٱلمُستبدَّةُ، إصلاحُ ما ٱنكَسَرَ، الشُّجاعُ، ٱلمَلِكُ، الرَّجُلُ، ٱلغُلام... إلخ. وٱلمقصودُ هنا: الرَّجُلُ ٱلغُلامُ، وٱختارَها ٱلمعرّيُّ لمراسِلِه قاصِداً، لتضمُّنِها مَعْنى ٱلمُتَسَلِّط السّاذج.

□ **جبريل**: معناهُ الظّاهرُ: الرَّجُلُ الرّبّانيُّ أو ٱلإلهيُّ، فإنّ «إيل» في السّاميّاتِ عامّةً، وفي ٱلعربيّةِ، ولكن بلفظ «إلّ»، تَعْني ٱللّه، ويُضيفُها أربابُ ٱلإشراقيّاتِ(٤٦) لإفادةِ هذا ٱلمعنى، وإذا قُرِنَتْ إلى ما هو بشريٌّ كانَتْ كنايةً عن ٱلمُتَحَكِّمِ السّادرِ مع هواهُ فيما هو إلهيّ.

وٱنظُرْ كيفَ هو تَمثيلٌ لحَقيقةِ عليِّ بْنِ منصورٍ ٱلّذي كان يتصرَّفُ بٱلمغفرةِ على هواهُ في رسالتِه إلى ٱلمعرّيّ، وعلى هذه النفسيّةِ أجرى أبو ٱلعلاءِ **رسالةَ الغفران**، فهي إذاً، مَلْهاةٌ إلهيّةٌ على ما يُفكِّر ويتَخيَّلُ ٱلأغرارُ.

□ **مسكني**: من السّكَن أو السُّكون، وٱلمقصودُ الثّاني على ما سيتبيّنُ لنا من فهْمِه ٱلخاصِّ للسُّكونِ ٱلّذي هو عدمُ ٱلحركةِ نُطقاً، وفي ٱلوقتِ نفسِهِ حالٌ إعرابيّةٌ مُعبِّرةٌ دالّةٌ، فهو، بهذا ٱلاعتبارِ عَدَمٌ حَيٌّ إذا صَحَّ هذا التّعبيرُ. فٱلمَسْكِنُ هنا مَكانُ ٱلحياةِ ٱلعديمةِ ٱلّتي لا علائِقَ لها بٱلبهيميّاتِ وٱلأهواءِ والنَّزواتِ.

(٤٦) راجِعْ كتاب **سعود المطالع** للأنياري، سبقَ ٱلآستشهاد.

□ **حَماطة**: هي في ٱللُّغةِ ذاتُ معانٍ مُتَعَدّدةٍ عَرَضَ لها ٱلمعرّيُّ، ولكنّها هنا فيما أُرجِّحُ تعني ٱلتّينةَ الجبليّةَ(٤٧) ـ على ما قطَعَ به بعضُ ٱللُّغويّينَ، ولثمرِها ألوانٌ، وأُقدِّرُ أنّ ٱلمعرّيَّ ٱختارَ لونَ السّوادِ لأنّه رابطةُ ٱلقِطْعَةِ ـ لاحِظْ ما فيها من ٱنقطاعٍ وٱعتزالٍ وتوحُّدٍ في رابيةٍ، حتّى لكأنّها تَصِفُه تماماً ممّا يَحْمِلُني على تقديرِ أنّها ترمُزُ إليه ذَاتِه.

□ **الحَيّات**: أرسَلَها كنايةً عن ٱلغرائزِ والطّبائعِ ٱلقابعةِ في ذاتِ نفسِه.

□ **مَقَرّي**: من ٱلآستقرارِ في ٱلمكانِ أو في قرارةِ النّفسِ أو ٱلقرارِ النّغميِّ، ونظنُّهُ من هذا ٱلأخيرِ، أيْ مكانِ ٱللّحنِ ٱلهامسِ ٱلمُتَفاني ذي ٱلأصداءِ ٱلمُتماديةِ في ٱلأعماقِ.

□ **طِمْرِيّ**: الطِّمْرُ في ٱللُّغةِ الثّوبُ ٱلخَلَقُ، ولكنّ ٱلمُلاحظَ فيه هنا مَعنى ٱلخَبْءِ وٱلاعتزالِ، وهو كنايةٌ عن ٱلمَحْبَسَيْنِ.

□ **الشّيخ**: في ٱللُّغةِ من بَلَغَ ٱلأربعينَ، وٱلمُرادُ هنا الشّائِخُ ٱلفِكْرِ.

□ **حَضْب**: في ٱللُّغة بمعاني ذَكَرِ ٱلحيّةِ الضّخمِ، وحبّةِ ٱلقلبِ، وصوتِ وَتَرِ ٱلقَوْسِ، ولكنّ ٱلمُلاحظَ هنا حَضْبُ النّارِ أي إيقادُها، كنايةً عن أُوارِ الرّيبِ ٱلمُسْتَعِرِ.

□ **يدّكر**: في ٱللُّغةِ من التّذكُّرِ، وٱلمُلاحَظُ هنا الدِّكْر لعبةٌ للزُّنجِ وٱلحَبَشِ، ويشهَدُ لما نُقدِّرُ قولُه:

(٤٧) اللّغويّون ٱختَلَفوا كَثيراً في مَعْناها النّباتيّ عَلى التّعيينِ، ولذا مِلْتُ إلى ما ذَهَبَ إليه ٱبنُ سِيدَه والزّمخشريّ ومثلُهما لآعتبارَيْن: أ) التّحديدُ عندَهما تَعْييناً؛ ب) أنّ التّينَ يرمُزُ عندَ ٱلباطنيّين إلى الدّينِ، لأنّ التّاء تُساوي في حِسابِ ٱلجُمَّل أربعمائة، ومَعروفٌ عندَهم أنّ حُروفَ ٱلعشراتِ وٱلمئاتِ تُردُّ إلى حُروفِ الآحادِ فتُساوي حَرْفَ الدّال.

نَـهـارٌ كَـذي ٱلـلُّـبِّ ٱلـعـديـمِ، ولـيـلـةٌ
كإحدى بناتِ الزُّنْجِ، يلعَبْنْ بالدُّكرِ (ل٢/٢١٦)

□ **سُمّها:** السُّمُّ في ٱللُّغةِ بمعاني الثُّقْبِ، وٱلمادّةِ ٱلمُميتةِ وكُلُّ شيءٍ كٱلوَدَعِ يخرُجُ من ٱلبحرِ، وٱلمقصودُ هنا ٱلوَدَعُ، وكأنّه يقولُ: أكانَتْ أمُّ ٱلولدِ هذه حاليةً بٱلوَدَعِ ٱللّاعبِ في جِيْدِها أمْ عاطلةً منه. وتأمّلْ تعبيرَه بكلمةِ: يَدّكر ٱلمُشتبه بٱلآذدكار، وهو سخرٌ بالغٌ.

□ **الأسْوَد:** في ٱللُّغة حبّةُ ٱلقلبِ، وٱلأُفعوانُ وهو يَحْقِدُ[٤٨] ويصبِرُ على الطّعامِ والشّرابِ طويلاً، وينجَحِرُ إلّا قليلاً وهو يسلُخُ جِلْدَه كلَّ عامٍ. وٱلمعنى ٱلمقصودُ هنا ٱلعزلةُ الزّاهدةُ أو ٱلمُلتاعةُ أو التّوحُّدُ ٱلمُتَوَجِّعُ بأوهامِ النّاسِ ومُغْرَياتِهم، قال:

طَـفَـوْنـا وَنـرْسـو ٱلآنَ، لا سُـرَّ أسْـوَدي
بـمُـلْكِ ٱلبرايا، ما ٱلعراقُ وما النَّرسُ (ل٣/٨)

ويرمُزُ به أنّ التَّسوُّدَ، أي تَجَوْهُرَ ٱلبشريِّ بٱلعقلِ ٱلكُلّيِّ، يبدأُ بٱلـجُحودِ ٱلمُطْلقِ لكُلِّ ما يُعَدُّ واقعاً فِكريّاً.

□ **الأسود بن عبد يغوث:** قُرَشِيٌّ كانَ له ثلاثةُ بنينَ كلُّهم قدْ قُتِلَ يومَ بدرٍ، فلمّا ناحَتْ قُرَيْشٌ على قَتْلاها حَرَّمَ ٱلعُقَلاءُ ٱلبُكاءَ لِئلّا يَشْمَتَ بهمُ ٱلأنصارُ، وكانَ ٱلأسْوَدُ يُحِبُّ بَنيهِ ويَتَحَرَّقُ للبكاءِ عليهم فَكَظَمَ ٱلحُزْنَ وٱعتزلَ النّاسَ وعَمِيَ[٤٩]. وٱلمعرّيُّ يقولُ إنّ مِثْلَ أسوَدِه كانَ مع ٱلأسْوَدِ ٱلقُرَشيّ، أيِ ٱلعُزلة الزّاهدة ٱلمُلتاعة.

□ **أبو الأسود الدّؤلي:** إنطوى الدّؤليُّ على حُزْنٍ خانقٍ بفَقْدِ عليٍّ بْنِ

(٤٨) الحيوان للجاحظ ٤/٧١.
(٤٩) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ١/٣٦١.

أبي طالبٍ، وبما ترادَفَ عليه من أرْزاءٍ، ولقد بلَغَ من حُبّه لعليٍّ أنّه كانَ يَحْصِبُ بآلحصى في عَقْرِ دارِه من جيرتِه، فكتَمَ موجِدَةً حارقةً باعَدَتْ بينَه وبينَ النّاس.

□ **سودة بنت زمعة:** كانَتْ زَوْجاً للنّبيّ وقالتْ له يوماً: ما لي بآلأزواجِ إرْبٌ وإنّما أودُّ أنْ أُبعَثَ يومَ آلقيامةِ وأنا زَوْجُ النّبيِّ، وتنازلَتْ عن لَيْلَتِها لسِواها. وآلمعرّيُّ يقولُ كانَ عندَ سَوْدَةَ مثلُ هذا آلأسودِ أي تَوَحُّدٌ أو زُهدٌ كاظمٌ مُتَبَتِّلٌ ولكنّه مُطْمَئِنٌّ كأُمنيّةٍ، وآنظُرْ إلى دِقّةِ آلمعرّيِّ حينَ أقحَم كَلِمَةَ آلفِراش تعييناً لهذا آلقَصْد.

□ **سويد بن الصامت:** كانَ قد أدانَ دَيْناً فطُولِبَ فآستغاثَ بقومِه فقَصَروا عنه(٥٠)، فقال:

وأصبَحْتُ قَدْ أنكَرْتُ قَوْمي كأنّني

جَنيْتُ لهم بالدَّيْنِ إحدى آلفضائِحِ

□ **أَسودُ رانٍ:** مُرَكَّبٌ إضافيٌّ سَبَقَ بَحْثُه، وآلمقصودُ به: قَلْبٌ دَنَسٌ. لاحقاً به آلمعرّيّ ومُورياً إلى مِثْلِ آلأسودِ آلعَنسِيِّ آلّذي تنبّأ. فقدْ كانَ يُقدّمُ لأتباعِه كثيرَ آلأحمرينِ أي آلخَمْرِ وآللَّحْم...

وبعدُ فآلمعرّيُّ في هذه الدّيباجةِ يقولُ راسماً حقيقتَه وآستحالاتِها وخُطوطَ حياتِه النَّفسيّةِ وآلفِكريّةِ وآلمعاشيّةِ، كاشفاً عن «حيثيّتِه» على حدِّ تعبيرِ آلبديعيّ:

قد عَلِمَ آلجبرُ (الرّجلُ آلغُلام) آلمُتعسّفُ بما هو إلهيٌّ (فقدْ رأيْنا في رسالتِه إلى آلمعرّي، كيفَ حَكَمَ على مَن شاءَ بما شاءَ، وحَشَرَ هؤلاءِ

(٥٠) راجِع **الإصابة** للعسقلاني، حرف السيّن.

في ٱلجنّةِ وأولاءِ في النّارِ)، أنّ في مسكني ـ حيثُ يموجُ «ٱلعَدَمُ الحيُّ»، بتعبيرِ ٱلمعرّيّ نفسِه، في صُلْبِ **رسالة الغفران**:[٥١] قد كِدْتُ أُلْحَقُ برهطِ ٱلعَدَمِ، من غَيْرِ ٱلأسَفِ ولا النّدمِ[٥٢] ـ حَماطةً، أيْ تينةً جبليّةً سوداءَ، أَلِفَتِ ٱلاَنقطاعَ والتّفرُّدَ بمَحَلِّها، ولم تكُنْ أبداً لَدْنةً رخوةً تَتْرَعُ بٱلفسادِ، ولم تَغْنَ بها ٱلكلمةُ النّاهشةُ أي ٱلمائنةُ ٱلكاذبةُ، (يُرسِلُ هذه التّينةَ كنايةً عن سريرتِه نفسِه، والسّوادُ فيها كنايةٌ عن لونِ عُزْلَتِه ٱلكفيفةِ ٱلّتي يمرَحُ فيها الدُّجى من أقطارِهِ، وأرسَلَ فقرةَ «ولا النّاكزة بها غانية» كنايةً عن عدمِ ٱلكذِبِ وأنّه لا يقولُ إلّا الصِّدق).

وهذه ٱلحَماطة تُثمِرُ ـ يقولُها هُزءاً وتغطيةً ـ من مَوَدَّةِ مولايَ، ما لو حمَلَتْهُ شجرةٌ عاديّةٌ من النّباتِ أو قديمةٌ دهريّةٌ، لَدَنَتْ غصونُها إلى ٱلأرضِ، حتّى لتُتَناوَلُ مِن أعلى ٱلغُصونِ الثّمرةُ النّادّةُ ٱلمصونَةُ بما هي مُسْتَعْليةٌ، (وهو يُرسِل ٱلعاديَّةَ من الشّجرِ كنايةً عن ٱلأحياءِ ٱلآخَرينَ ٱلّذين يَحْيَوْنَ في موجِبِ ٱلعادةِ لا الضّرورةِ... وتأمّلْ دِقّةَ تعبيرِه في جُملةِ الدُّعاءِ ٱلّتي لم يَسْتَعْمِلْ فيها إلّا كلماتِ ٱلأضدادِ أو ٱلملاحنِ، فهو يُعبِّرُ بمولايَ ٱلّذي يَرِدُ بِمَعنى السَّيِّدِ وٱلعبْدِ، والشّيخِ بمعنى ذي ٱلفضلِ وٱلخَرَفِ، وٱلجليلِ بمعنى ٱلعظيمِ وٱلحقيرِ، وٱلفضلِ بمعنى ٱلفضيلةِ وٱلفُضْلَة).

ويستَطرِدُ فيشرَحُ ٱلحَماطةَ على ما تعوّدَ من ٱلقَصْدِ إلى التّعميةِ

(٥١) **رسالة الغفران**، ص ٣٩٥.
(٥٢) مثلُه في **اللّزوميات**:

ألـم تَـرَ أنّـنـي حَـيٌّ كَـمَـيْـتٍ
أُداري ٱلـوَقْـتَ أو مَـيْـتٌ كـحَـيٍّ (ل٤/٤٢٤)

والتّضليلِ، ويَزيدُنا بذكْرِ أنّ ٱلحَماطةَ تألَفُها ٱلحيّاتُ، وينقطِعُ به ٱلاّستطرادُ فيرجِعُ إلى حديثِ ٱلمَوَدّةِ ظاهريّاً، مُستَخدِماً ٱلمُشْتَرَكَ ٱللّفظيَّ ٱلّذي هو كَلِمَةُ حماطة مِثْلَ وَحْدَةٍ تربُطُ جوانبَ ٱلحديثِ، ومِثْلَ كُوَّةٍ يَنْظُرُ ويُعاوِدُ النَّظرَ من خلالِها، للتّصرُّفِ والتّقلّبِ في مذاهِبِ خواطِرِه.

وإنّ ٱلحماطةَ، أي حَبَّةَ ٱلقَلْبِ ٱلّتي في مَقَرّي، لَتَجِدُ من الشّوقِ إلى ٱلمَعْرفةِ، حَمَاطةً أيْ حُرْقَةَ قلبٍ تبدأُ بالرّغبةِ ٱلمُلِحّةِ وتَتَقَلَّبُ في ٱلحَيْرةِ، فهي ليسَتْ بٱلمُصَادفَةِ إماطةً (وهو يستَغِلُّ فِقْرةَ أنّ ٱلحماطةَ تألَفُها ٱلحَيّاتُ ليُقحِمَنا في خيالٍ، كُلُّهُ أفاعٍ على ٱختلافِها ويستخدِمُها في رمزيّتِه)... وهذه مَرْحَلةُ كَوْنِه كٱلحَماطةِ أي مرحلةِ ٱلعُزلةِ ٱلمُنْقَطعَةِ.

وإنّ في مَحْبَسي لحَضْباً أي أُواراً مُسْتَعراً من الرَّيبِ، وُكِلَ بأَذاتي وتَعْذيبي لو نطَقَ لذَكَرَ شذاتي وشِرَّتي، أي ما أنا غارقٌ فيه من بالياتِ ٱلأحقابِ ٱلفكريّةِ، وهذا ٱلحَضْبُ ما هو بساكنٍ في صُدوعِ ٱلجبالِ ولا بمُشرفٍ من الثّقوبِ، وما ظهرَ في شِتاءٍ ولا صيفٍ، وما مرّ بجَبَلٍ ولا سَفْحٍ، (وهو بهذا يَرْشَحُ ويُقوّي ٱلمعنى ٱلكِنائيَّ في التّوريَةِ، ويعودُ فيسخَرُ بعليِّ بنِ منصورٍ مُتظاهراً بحديثِ ٱلمودّة).

وهذا ٱلحَضْبُ يُضْمِرُ من محبّةِ مولايَ الشّيخِ، ما لا تُضْمِرُه أُمٌّ مُستولَدَةٌ، أكانت حاليَةً بعُقودِ ٱلوَدَعِ ٱللاّعبِ على صَدْرِها لعبةَ الزّنجِ، أمْ غير حاليَةٍ، (تأمّلْ عُمْقَ هذا السُّخْرِ وطرافتَه)، ويستَطْرِدُ فيشرَحُ ٱلحَضْبَ مُتلاعِباً مُعَمّياً... وهذه مَرْحَلةُ كَوْنِه كٱلحَضْبِ، أي مَرْحَلةُ الشّكِّ ٱلحادِّ ٱلمُسْتَعِرِ بٱلأُوارِ ولسانِ ٱللّهبِ.

وإنّ في منزلي، أي في مَنْزِلَةِ ما أنا فيه، لأسْوَدَ، أي زهادةً مُتَوَجِّعَةً صابرةً وحاقدةً جاحدةً لأشياءِ النّاسِ، هي أعزُّ عندي من عنترةَ ٱلأسودِ

على أُمّه السّوداءِ، وهو أبداً مَحْجوبٌ مَخبوءٌ، ولا أسمَحُ لنفسي بكشْفِ ٱلأغطيةِ عنه وٱلأستارِ؛ (تأمّلْ تعبيرَه بٱلأغطيةِ ٱلّتي يُلِحُّ بها. وهي تَشْمُلُ أغطيةَ ٱلألفاظِ ٱلآستعاريّةِ والرّمزيّةِ وكلٌّ ما هو سبيلٌ إلى التّعميةِ وٱلإخفاءِ. ويستَطْرِدُ السُّخْرَ بصاحبِه عليٍّ بنِ منصورٍ مُسْتَعيداً حديثَ ٱلمودّة). ولو قَدِرَ أسْوَدي لسافَرَ إلى أن يَتَلقّاهُ من بَعيدٍ، ولم يقعُدْ لشقاءٍ يشقاهُ.

وهذا ٱلأسْوَدُ لا يبرَحُ مُولَعاً بذكرِ الشّيخِ ٱلجليلِ إلى حدٍّ ٱلهُيامِ، مثلَ إيلاعِ نُصَيْبٍ، الشّاعرِ ٱلأُمويِّ ٱلأسودِ، بسَعْداهُ السّوداءِ (ويعودُ فيَرْشَحُ ٱلمعنى ٱلكنائيُّ في ٱلأسودِ بخصائصِ ٱلأشخاصِ التّاريخيينَ ٱلمُتَحَلّينَ بالسّوادِ لوناً، أو ٱلمَعروفينَ به ٱسماً).

وقد كانَتْ مثلُ هذه الزّهادةِ المُتَوَجِّعةِ مع ٱلأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ، وفلانٍ وفلانٍ مِمّنْ مَسّتْهم زَهادةٌ من هذا النّوع.

وهو إذ يذكُرُ سُوَيْدَ بنَ صميعٍ يستطردُ فيذكُرُ قاصداً أبياتاً له. ولقدْ تبدو في النّظرِ ٱلعفويِّ أنّها مُقْحَمَةٌ إقحاماً بمناسبةِ ذِكْرِه، وٱلواقعُ أنّها تُمثّلُ منهجَه دائماً. فٱلمعرّيُّ، مِثْلَ سُوَيْدٍ هذا، قد يُعطي ٱليمينَ على تَرْكِ منزلتِه الزّاهدةِ ٱلجاحدةِ ولكنّها يَمينٌ مُمَزَّقةٌ. وقد يَحْلِفُ بالطّلاقِ وٱلعَتاقِ إذا ٱضطُّهِد أو ٱضطّرَّ كَرْهاً إلى تَرْكِها، ولكنّ ٱلمرأةَ لم تُطلَّقْ، وٱلعَبْدَ لمْ يُعْتَقْ على مَعْنى أنّه يَحْلِفُ بشيءٍ ويُريدُ شيئاً آخر، ويتكلّمُ بشيءٍ ويُريدُ غيرَه، وكذلك هو في **رسالةِ الغفرانِ** وكُلٌّ ما يَصْدُرُ عنه في نثرٍ ونظيمٍ؛ (ويعود فَيَصِلُ حديثَ الزّهادةِ بما يَرْشَحُ ٱلمعنى ٱلكنائيَّ في ٱلأسودِ بخصائصِ الطُّعوم).

وحَضَرَ هذا ٱلأسودُ في وليمةٍ حضَرها ٱلأسودانِ ٱللّذانِ هما التّمرُ وٱلماءُ، وعلى مُنْبَسَطِ «حَرَّةٍ» أديمٍ تراكَمَتْ فيه ٱلحَصَواتُ السّودُ وفي

جَوِّهِ تمدّدَتِ الظّلماءُ. (ونحنُ نعرِفُ أنّ الضِّدَّ أقربُ خُطوراً بآلبالِ واَتّصالاً بآلمعنى حتّى ليُعَرَّفُ به في آللّغةِ)، وإنّه، أيِ الزّهِدَ آلمُتَوَحِّدَ، لينفُرُ عن آلأبيضينِ، السَّيْفَيْنِ، أو السّيفِ والرّمحِ، إذا كانا في آلمُعْتَرَكِ مُعَرَّضينِ مَشْهوريْنِ، ويصبِرُ على آلأبيضينِ، آلماءِ وآلفتِّ بلا إدامٍ، ويرتاحُ إلى آلأبيضينِ، آلماءِ والرّطبِ.

وأمّا آلأبيضانِ آللّذانِ هما شَحْمٌ وشَبابٌ فإنّما تفرَحُ بهما آلمُتَصابياتُ آلغَزِلاتُ، ويبتهجُ بِهما غَيْري، أمّا أنا الزّاهدُ آلمُتَوَحِّدُ فقدْ يَئِسا من خَيْري.

وكذلك آلأحامرةُ، أي التّائقونَ إلى النّفائسِ من آلمتاعِ والطّيبِ، وآلأحمرانِ، أيِ آللّحمُ وآلخَمْرُ، فإنّما يَعْجَبُ ويهشُّ لهما مَنْ رانَ قَلبُه ودَنُسَ طبعُه كآلأسودِ آلعَنسِيِّ آلمُتنبِّىءِ، ويتبَعُه في إعجابه مُتَحَوِّبٌ غَيْرُ مُجاهِرٍ لم تَهُزَّه الدّواهي وتُزَلْزِلْه آلعوادي. وهذه مَرْحَلَةُ كونِه كآلأسودِ، أيْ مَرْحَلَةُ آلمُتَوَحِّدِ آلكاملِ التّوحُّدِ في فِكْرِه ومَسْلَكِه ومَطْعَمِهِ...

*

هذه هي آلقطعةُ في مَعْناها على طريقتِنا، ونحنُ لا نَرْتابُ في صِدْقِ الطّريقةِ، وإنْ كانَ من شيءٍ فإنّما يَرْجِعُ إلى نَقْصٍ في جُهْدِ الدّرس وجُهْدِ التَّتَبُّع.

وآلآنَ ينبغي أن نُسجِّلَ بعضَ تعليقاتٍ على آلقِطْعَةِ تُثبتُ ما قد ذهْبنا إليه، فإنّنا نُلاحظُ:

أولاً ـ رابطةُ السّوادِ تَغْشى آلقطعةَ كُلَّها بآللَّفظِ أو بآلخصائصِ، في طائفةِ النّباتِ وآلحيوانِ وآلإنسانِ والطُّعومِ آلّتي حَشَدَها. وهذا ما سَبَقَ وأسمَيْناهُ بِهالةِ آللَّفظِ وهالةِ آلقِطعةِ آلأدبيّةِ، آلمُحتَبِكةِ من هالاتٍ آئتلَفَتْ

وآمتزَجَتْ في بَساطةِ آلواحدِ، حتّى لَتَبدو مثلَ قطعةِ فُسَيْفساءَ رُصِّعَتْ بفُصوصِ السّوادِ وترقرقَتْ فيها مائيّتُهُ.

وآلمعرّيُّ آشتقَّ السّوادَ من لَوْنِ عُزْلَتِه آلحالكةِ بِفَقْدِ حاسّةِ آلبَصَرِ من وَجْهٍ، ومن وَجْهٍ آخَرَ أنّ الدُّجى، رَمْزَ آلعَدَمِ آلحَيِّ، مِثْلُ السّكونِ، رَمْزِ آلعَدَمِ آلإعرابيِّ لَفْظاً، وهو علامةُ إعرابٍ في آلوَقْتِ نفسِه. وآلجُحودُ ذاتُه عدمٌ حَيٌّ، وآلصِّفْرُ في آلحِسابِ عَدَمٌ حيٌّ، أي آللّاعددُ، ولكنّه رَمْزُ آلعَدَديّةِ ما شئتَ منها في مكانِه وخانَتِه.

وسَنَرى بعدُ، أنّ فَلْسَفَتَه كُلَّها تدورُ على آلعَدَمِ آلحيِّ أو السّكونِ آلإعرابيِّ آلّذي هو عَدَمُ آلحَرَكةِ نُطقاً، ولكنّه أيضاً علامةٌ حيّةٌ دالّةٌ، وخاصّيّتُها في آلفِعْلِ آلمُضارِعِ معَ آلجازمِ أنّها تنزِعُ منه مَعْنى آلحالِ وآلمُسْتَقْبَلِ، وَتردُّهُ إلى آلماضي، فهو لذلك يَطْلُبُ هذا التَّوَحُّدَ وهذا السُّكونَ آلّذي يَرُدُّهُ إلى آلعَدَمِ آلحيِّ آلأوَّلِ، وسَيَمُرُّ بنا أيضاً أن آلمعرّيَّ لا يقولُ أبداً بآلعَدَمِ آلمَحْضِ، قال:

وما زالَ حُوتي، راصِدي، وهو آخِذي
فما لِمَتابي ليس يَغسِلُ حُوَّتي (ل١/٢٣٠)

يُشيرُ به إلى مِثْلِ حوت يونس، (يونان)، ولكنْ بالشّكلِ آلقُرآنيّ «وذا النّونِ إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً، فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عليْهِ، فَنادى في الظُّلُماتِ، أَنْ لا إلهَ إلّا أنتَ سُبحانَكَ إنّي كُنْتُ من الظّالمينَ، فآستَجَبْنا له، ونَجَّيْناهُ من آلغَمِّ، وكذلكَ نُنْجي آلمؤمنين» (الأنبياء ٢١: ٢٨٧).

فهو في مُعتَزَلٍ، كجوفِ حوتٍ تَغْشاه غاشِيَةُ السّوادِ والظُّلمةِ، وآستطاعَ أن يُضَمِّنَه، ببراعةٍ، لونَ قَدَرِه الرّاصدِ. وأنّ آلإنابةَ مَحَتْه عنْ يُونُسَ آلمُتَأَلِّهِ، وهُنا يستصرخُ بأسىً مُلتاعٍ مُتَفَجِّعٍ، كيفَ لم تُنَقِّ توبتُه

حُوَّتَه، أي سَوادَ أدْرانِه، كما تَنَقّى ذو النّون؟ وآلمقصودُ بالشّاهد لونُ السّوادِ، حتّى آختارَ لزلّاتِه لوناً فجعَله حُوَّةً، أي سَواداً.

وتأمّلْ جيّداً صِدْقَ ما تَقَدّمْنا به من أنّ ألفاظَ آلألوانِ تَكْثُر عِنْدَه عِنْدَ آجتهادِه بإبرازِ ألْوانِ آلألفاظِ(٥٣).

وتأمَّلْ إلى جانبِ شُيوعِ لونِ السّوادِ في آلقِطْعَةِ، شُيوعَ خَيالِ آلحيّاتِ آلّذي عَبّر عنه في **اللّزوميّات:**

وأيّــامُــنــا مِــثْــلُ آلأُيــومِ، وإنّمــا
سَعى ليَ، من ساعاتِهنَّ سَعَالِ (ل٤/٧٧)

وتأمّلْ أيضاً تلطُّفَه آلعَفويَّ في آستعمالِ آلجناسِ في «سعى لي، سَعَالِ».

وتأمّلْ أيضاً مقامَ آلمُشْتَرَكِ في وَحْدَةِ آلقِطْعَةِ وفي تَنْويعِ النّظرِ آلمُغري بآستيعابِ آلمَعْرِفةِ وَوَحْدَتِها كما نَرى في: حَماطَة، حَضْبَ، آلأسْوَد. هذا آلمُشْتَرَكُ كانَ سبيلاً إلى التّنويعِ وآلآستيعابِ وربْطِ آللّفتاتِ الذِّهنيّة.

ثانياً ـ آستخدامُ آلخَصائصِ كلِّها كنائيّاً وإتقانُ تنزيلِها في أماكِنها ومَحالِّها.

ثالثاً ـ لاحِظْ حَمْلَتَه آلحادّةَ على آلأحامِرَةِ، ومنْ مَلاحِنِها إلى جانبِ مَعْناها: كُلُّ ما ليسوا بعربٍ، أي الشّعوبيّينَ والشّعوبيّةَ، وآرتفاعُهُ بآلأساودةِ ومن ملاحنِها: كلُّ ما هو عربيٌّ صليبةً.

ولا أستبعدُ أنّ آلمعرّيَّ آستيقظَ فيه شعورٌ عربيٌّ نقيٌّ وخالَطُه في تمجيدٍ، وفي شكلِ آرتدادٍ إلى الطّبيعةِ آلعربيّةِ وآلفِكْرِ آلعربيِّ وآستيحائهما

(٥٣) يحسنُ أن نُنبّهَ إلى أنّنا لا نُفرّقُ في منهجِنا آللُّغويّ بين آلألفاظِ وآلمَعاني بل هما كلٌّ موَحّدٌ.

للإصلاحِ، وطَبَعَ روحَهما ضدَّ كلِّ روحٍ أُخرى، قال:

وألْـقَـيْـتُ آلـفَـصـاحـةَ مـن لـسـانـي
مُـسَـلَّـمـةً إلـى آلـعَـرَب آلـلُّـبـابِ (ل١/١٧٥)

رابعاً ـ آستحياءُ آلأسطورةِ آستحياءً مُدْهِشاً، فهو يَذْكُرُ التّينةَ وأنّ الحيّةَ تألَفُها، ويستخدِمُ آلحيَّةَ وأصنافَها، إشارةً إلى آلآستحالاتِ آلّتي تعرِضُ للمتوحِّدِ، واحدةً إثرَ أُخرى.

وسنرى في آلفصلِ التّالي، «فرضيّات حولَ **رسالة الغفران**»، أيّةَ أُسطورةٍ هي، وأيّةَ عقيدةٍ يُبطِنُ، وكيفَ هي مراحلُ آستحالةِ الذّاتِ في التوحُّد.

فرضيّات حول رسالة الغُفران

نَخُصُّ **رسالةَ الغفرانِ** بآهتِمامنا ونَعْقُدُ لها فَضْلاً دونَ سائرِ كُتبِه، لأنّها تَمُدُّنا بأهمِّ جانِبٍ من جَوانبِ فلسفةِ آلمعرّيّ، كما أنّها تُقدِّمُه لنا أيْضاً وقدْ مَرَّ في كُلِّ أدوارِ آستحالتِه، وآستقرَّ حيثُ آنتهى به نشاطُه آلآستعداديُّ آلمُتفتّحُ؛ أضِفْ إلى هذا وذاك أنّها أعمقُ آلافْتناناتِ، وأجملُ ما أعطَتِ الرّمزيّةُ في مُخْتَلِفِ عُصورِها.

ونحنُ آلآنَ لا نطمَعُ بدرسِها منَ النّاحيةِ آلفنّيّةِ آلمَلْهَوِيّةِ، فإنّه مطلبٌ يَقْتضينا إفرادَه بالتّأليفِ. وإنّما نُعْنى بدَرْسِ ما يتّصِلُ بها من قُربٍ، بسبيلِ إعطاءِ صورةٍ واضحةٍ عن آخِرِ أدوارِ آستحالتِه آلفكريّةِ والنّفسيّةِ آلّذي عقَدْنا هذا آلكِتابَ عليه.

نَوّهْنا في آلفصلِ السّابقِ بآستحْياءِ آلمعرّيّ للأُسطورةِ آستحياءً مُدْهشاً، وقد رَأيْنا في ديباجةِ **رسالة آلغفران** تينةً وحيّاتٍ متنوّعةَ آلأصنافِ، ورَأيْنا أسْوَدَ يعيشُ مع النّاسِ ويُجاوِرُهم مُكاشِفينَ له ومُكاشِفاً لهم، فما هو هذا كلُّه؟

رمزيّة أسطورة الحيّة

نتقدّمُ فنجِدُ عندَ ٱلجاحظِ في **ٱلحيوان**، في أثناءِ كَلامِه عن ٱلحَيّاتِ وأنواعِها، ٱستطراداً طَويلاً يُديرُه على بحثٍ كَلاميٍّ لاهوتيٍّ؛ فيذكُرُ: ٱلحوّائينَ ورُقاهم، وكيفَ يُخالِطُ ٱلبُسطاءَ السّاذجينَ ٱعتقادٌ بها، ويتعرّضُ إلى عَقيدةٍ كانَ يعتنقُها بشّارُ بنُ بُرْدٍ، وتلميذُه سليمانُ بنُ الوليدِ الأعمى أخو(١) مسلمِ بنِ الوليدِ الشّاعرِ ٱلعبّاسيِّ ٱلمعروفِ بصريعِ الغواني. ومن ٱلخيرِ أنْ نقتَطِفَ من ٱلجاحظِ ما نَحنُ بحاجةٍ إليه.

إنّ ٱلبَدَنَ هيكلٌ للحَيّةِ، وكانَ يَدينُ به بشّارٌ ولقّنهُ لسليمانَ بنِ ٱلوليدِ ٱلأعمى ٱلّذي يقولُ:

إنّ ذا ٱلعِلْمَ مُعتَبَرٌ
لِطَلوبِ ٱلعِلْمِ مُقتَبِسهْ(٢)
هيكَلٌ للرّوحِ يُنطِقُه
عِرْقُهُ والصَّوْتُ من نَفَسِهْ
لا تَعِظْ إلّا ٱللّبيبَ فما
يَعتدلُ الضِّلْعُ على قَوسِهْ(٣)
رُبَّ مَغروسٍ يُعاشُ بهِ
فَقَدَتْهُ كَفُّ مُغْتَرِسِهْ(٤)
وكذاكَ الدَّهرُ مَأتَمُهُ
أقربُ ٱلأشياءِ من عُرُسِهْ

(١) هكذا وَرَدَ في **الحيوان** أنّه أخوه، وفي **معجم الأدباء** لياقوت أنّه ٱبنُهُ ١١/٢٥٥، ط القاهرة.
(٢) رِوايةُ ياقوت: إنّ في ذا ٱلجِسْمِ مُعْتبراً لمُريدِ ٱلعلمِ مُلتمِسِه.
(٣) أسْقَطَ ياقوتُ هذا ٱلبَيْتَ.
(٤) رِوايةُ ياقوت: عدمَتْهُ كفّ.

قال عديٌّ بنُ زيدٍ ٱلعباديٌّ يذكُرُ شأنَ آدمَ ومَعْصِيَتَه، وكيفَ ٱستغوَتْه ٱلحيّةُ، وأنّ ٱلحَيّةَ كانَتْ في صُورةِ جَمَلٍ فمسخَها ٱللّهُ عُقوبَةً لها:

«قَضى لستَّةِ أيامٍ، خليقَتَه
وكانَ آخِرَها، أنْ صَوَّرَ الرَّجُلا
فكانَتِ ٱلحيّةُ الرَّقشاءُ إذ خُلِقتْ،
كما تَرى، ناقَةً في ٱلخَلْقِ أو جَمَلا
فلاطَها ٱللّهُ إذ أغْوَتْ خَليفَتَهُ
طولَ ٱللّيالي، ولم يجعَلْ لها أجَلا
تَمْشي على بَطْنِها في الدّهرِ ما عَمَرتْ
والتُّربَ تأكُلُه، حزناً وإنْ سَهُلا

وأنّ ٱلحَيّةَ عُوقِبتَ بنَقْصِ جناحِها، وَقَطْعِ أرجُلِها، وٱلمَشْيِ على بطنِها، وبإعراءِ جِلْدِها حتّى ليُقالُ: أعرى من حَيّةٍ، وبِشَقٍّ لِسانِها، ولذلك كُلّما خافَتِ ٱلقَتْلَ أخرجَتْ للنّاسِ لسانَها لتُريَهم موْضِعَ ٱلعُقوبةِ، وبما أُلْقيَ عليها من عَداوةِ النّاسِ، وبمَخافةِ النّاس.

وأنّ ٱلحَيّةَ كانتْ تَسْمَعُ وتنطِقُ، وأنّ الصُّخورَ كانَتْ رَطْبَةً ليّنةً، وأنّ كُلَّ شيءٍ كانَ يَعْرِفُ ويَنْطِقُ... وأنّ ٱلأشجارَ والنّخيلَ لم تكنْ شائكةً وشاكَتْ يومَ عُصِيَ ٱللّه. وأنّ آدمَ وحوّاءَ ٱتّخذا من ورقِ التّين أثواباً. وأنَّ ٱلحَيّةَ تَسْلُخُ أثوابَها، وأنّ «الدُّعْموصَ» يَنْسَلِخُ فيصيرُ إمّا بَعوضَةً وإمّا فراشةً... إلخ»[٥].

هذه نتَفٌ سريعةٌ مِمّا ٱحتفلَ بِتبيانِه ٱلجاحظُ، ونحنُ نُثْبِتُها هنا، مِثْلَ

(٥) راجِع **الحيوان** للجاحظ ٤/٦٤ ـ ٧٥، ط ٱلمطْبعة ٱلحميديّة ٱلمصريّة، ٱلقاهرة.

نِقاطٍ بارزةٍ تُعينُ على فهْمِ ٱلغرضِ ٱلمَقْصودِ، ٱلّذي نُديرُ ٱلبحثَ عليه.

وهذه ٱلقِصّةُ نعرِفها في ٱلأساطيرِ ببَسطٍ كبيرٍ وسَذاجةٍ، ولكنَّ الشّيءَ ٱلمُدْهشَ من أمْرِها، أنَّ مأساةَ ٱلحَيّةِ هي بنفسِها مأساةُ ٱلمعرّيّ من كُلِّ ٱلوُجوه.

أَما ٱلمعرّيُّ مُنْجَحِرٌ مِثْلَما هي مُنْجَحِرةٌ؟ أما هو زاهدٌ عَرِيٌّ مثلَما هي معتزلةٌ عريّةٌ؟ أمَا هو يَتَعَلَّلُ بٱلجَهْلِ ونقْصِ ٱلمَعْرِفةِ وبأنّه مرزّأٌ بٱلأقدارِ؟ أَما أُلقِيَتْ عليهِ ٱلعداوةُ كَما يَتَخَيَّلُ ويُصَرِّحُ به في غَيرِ ما مَوْضعٍ من **رسالة الغفران واللُّزوميّات**، مثلَما أُلقِيَتْ عليها ٱلعداوةُ؟ أما هو يَجْفو النّاسَ ويَخْشى أذاتَهم ويُذْعَرُ منهم، مثلَما هي تخافُهم وتُذْعَرُ؟ أما هو يأْكُلُ أخْشَنَ الطّعامِ (البُلُس، البُلْسُن: العدس والبَلَس: التّبن)، مثلَما هي تأْكُلُ التُّرابَ وتستَفُّه؟

إذاً، فلِمَ لا نُقدِّرُ أنّ خيالَه ٱنعقدَ على ٱلحَيّةِ في نَفْسِه؟ ولِمَ لا يكونُ، في هذا فقطْ، من تُبّاعِ بشّارٍ وسليمانَ بنِ ٱلوليدِ ٱلأعمى. أُقيِّدُ هذا التّقييدَ لأنّه صَرّحَ بأنّه في مُنتأىً عن أعاييثِ بشّارٍ:

ولستُ أحمَدُ بُشْرى، وهي كاذبةٌ
ولا أُوافِقُ حَمّاداً وبَشّارا (ل/٢٠٠)

لِمَ لا يكونُ كلُّ هذا صَحيحاً سائغاً، ونحنُ نجِدُ ونُحِسُّ بخيالِ ٱلحَيّةِ لا يفارقُه، في **رسالة الغفران** و **اللُّزوميّات** والرّسائلِ بينَه وبينَ داعي الدُّعاة؟

أنا لا أرتابُ به ولا بمَحَلٍّ هذا التّقديرِ من خَيالِه، ولا سيَّما حينَما يُكفَلُ ويستقيمُ لنا من طريقهِ ٱنسجامُ ٱلمعرّيّ وٱرتباطُه في شَكْلٍ دقيقٍ، ويُكفَلُ ٱرتباطُ شيءٍ آخرَ وهو ٱبنُ ٱلقارح بقصّةِ ٱلحَيّةِ الشّائعةِ، قال:

وإنّـكَ مُـنْـذُ كَـوْنِ الـنَّـفْـسِ عَـنْـسـاً
لَـتُـوضِـعُ فـي الـضَّـلالـة أو تَـخُـبُّ (ل١/١٠٦)

رمزية آدم وحواء

وَجَدْنا في ديباجةِ **رسالة الغفران** ذِكْراً للتّينةِ، وأنّها إلْفُ ٱلحَيّاتِ، وأنّ في مقرِّهِ حَضباً وفي منزِلِه أسْوَدَ، وَوَجَدْنا بينَها ٱرتباطاً كنائيّاً على طريقتِنا.

ولكنْ بقِيَ مع ذلكَ شيءٌ دونَ بيانٍ ويَقْتضينا ٱلإيضاحَ، وهو لماذا ٱختارَ التّينَ وٱلحَيّاتِ وخصائصَهُما للكناية؟ ويهُمُّ ٱلبحثَ وٱلوفاءَ به أن نَتَناولَ هذا التّساؤلَ بالدّرسِ، لنعرِفَ هلْ نَبَضَتْ نفسُه بهذهِ ٱلخاطرةِ عَفْواً أو نتيجةَ فكرةٍ مُلْتَبِدةٍ في أعماقِ أحاسيسهِ.

عندَنا أنّه نتيجةُ خيالٍ مُلْتَبِدٍ ٱنعقدَ على ٱلقِصّةِ الدّينيّةِ ٱلّتي ٱستحالَتْ في نفسِه ٱستحالةً رمزيّةً بحتةً، فآدمُ ليسَ هو إلّا من ٱلأديمِ، أيْ جلدِ ٱلجَسَدِ، وحوّاءُ ليسَتْ هي إلّا من ٱلحياةِ، أيِ النّفسِ. وتأمّلْ جيّداً هذا ٱلاشْتراكَ ٱللّفظيَّ بينَ «ٱلحَوّاءِ» ٱلّذي هو مُتَصيّدُ ٱلأفاعي بالرُّقى والتّعاويذِ، وبينَ حَوّاءَ أمِّ البشرِ في زَعمِ القِصّةِ.

وما ٱستغواءُ ٱلحَيّةِ لحوّاءَ إلّا رمزُ ما ٱجتمعَ في النّفسِ من نَزَعاتِ ٱلأخلاطِ ٱلأربعةِ، وما الشّيطانُ إلّا هَمْسُ ٱستعدادِ هذه ٱلعناصرِ وسرُّ فَعَالِيّتِها إذا ٱختلَطَتْ وٱستحالتْ، قالَ:

مُـهْـجَـتـي ضِـدٌّ يُـحـارِبُـنـي،
أنـا مِـنّـي، كَـيْـفَ أحْـتَـرِس؟ (ل٣/١٧)

وتأمّلْ بدقّةٍ على منهجِه ٱللُّغويِّ ٱلّذي ألمَحْنا إليه عَلاقاتِ ما بينَ

حياةٍ، حيّةٍ، حوّاءَ، وهي عَلاقاتٌ أكيدةٌ وحقيقيّةٌ تشرَحُ وتُفسِّرُ وتُعلِّلُ، ولن تكونَ نتيجةَ: «لا شيءَ، نتيجةَ: لا سِرَّ».

وهذا الشّيءُ أو السِّرُّ عندَه هو أنّ ٱلحَيّةَ ٱلكامنةَ في ٱلأعماقِ، وأنَّ ٱلحَياةَ عملُ هذه ٱلأخلاطِ وفعاليّتُها، وأنّ حوّاءَ ٱشتباكُ هذه ٱلفعاليّاتِ وٱقتيادُها ٱلبَشَريُّ بإرادةٍ ودونَ إرادةٍ، وأنّ سَتْرَ السَّوْأةِ بورقِ التّينِ ليسَ هو إلّا ٱلخِداعَ والتّلَفُّفَ بورقِ التّينِ ٱلّذي يُساوي باطناً كلمةَ «دينٍ»، وذلك لأنّ «ت» في حِسابِ ٱلجُمَّلِ تساوي أربعمائة وتُرَدُّ إلى أربعةٍ وحرفُها «د» على طريقَتِهم في ردِّ حروفِ ٱلعشراتِ وٱلمِئاتِ إلى حُروفِ ٱلآحاد.

ففي تَصَوُّرِه، كما هو ظاهرٌ في **اللّزوميّات**، أنّ كُلَّ ٱلفسادِ في النّفسِ ٱلّتي هي توهُّجُ ٱستعدادِ ٱلأخلاطِ وحالةُ تعَقُّدِ نَزَغاتِها ٱلّتي تُسمّى حياةً، قال:

إنْ كـانَ إبـليـسُ ذا جُنْـدٍ يَـصـولُ بـهـم
فـالنَّـفْـسُ أكـبـرُ مَـن يَـدْعـوهُ إبـلـيـسُ (ل٣/٢٥)

أعِــرْقُ آدمَ هـــذا؟ لا يُــمـــازِجُـــه
سِواهُ، أمْ مُـسَّ مـن إبـلـيـسَ، تَـعْـريـقـا (ل٣/٢١١)

فسَبيلُ ٱلإصلاحِ يَقومُ ويَكْمُنُ في إضعافِ ٱلأخلاطِ عنِ ٱلعَمَلِ كُلِيَّةً، إلى دَرجةٍ ما يُسمّيهِ ٱلمعرّيُّ ٱلعَدَمَ ٱلحيَّ في صُلْبِ **رسالة الغفران**(٦)، أو التّصعيدَ وٱلإعلاءَ في التَّعبيرِ النّفسيِّ ٱلحديثِ، وٱتّخاذِ كُلِّ ٱلأسبابِ وٱلوسائلِ إلى ٱلحيلولةِ بينَ الشّيءِ وناموسِ عملِهِ، مَهْما كانَتْ جاهِدَةً مُضْنِيَةً، وبتعبيرٍ أخْصَرَ مَحْوُ حوّاءَ من وُجودِ ٱلبَشَريِّ مَحْواً كاملاً.

وٱلبَشَرِيُّ إذا حَقّقَ مَحْوَ حوّاءَ من كيانِه، تَجَوْهَرَ بٱلعقلِ ٱلكُلّيِّ وٱلقوّةِ

(٦) **رسالة الغفران**، ص ٣٩٥.

آلمُبْدعةِ وأضاءَ فيه، وبذلك يَحْيا بالدّينِ أو يَحْيا الدّينُ فيه، بلْ يكونُ هو إيّاه؛ ومن ثمَّ يَظْهَرُ لنا السِّرُّ آلعَميقُ آلّذي حداهُ إلى آلكنايةِ بالتّينةِ عن كُنهِهِ آلمعنويِّ وجَوْهَرِ سريرتِه.

ولْنرجِعْ بخيالِنا قليلاً إلى ديباجةِ **رسالة الغُفران**، لنَرى كيفَ آستحالَتِ آلقصّةُ آلمذكورةُ في فِكْرِهِ آستحالتَها آلمُدْهِشَةَ آلغريبةِ والطّريفةَ آلمُبتَكَرَةَ.

نراه يتحدَّثُ عن نفسِه بأنّه التّينةُ، أيِ الدّينُ نفسُه في جوهرِه، وليسَ فيما يُداجي به آلآدميّونَ آلآخَرونَ من سَتْرِ سوآتهم وسيّئاتِهم بورقِ التّينِ، أي بمظاهرَ نجِدُ حقيقتَها في قرارةِ النّفسِ ولا ترجِعُ إلى طبيعةٍ في الرّوحِ، والتّينةُ تُوصَفُ بِإلْفِ آلحَيّاتِ لها، أي بإحاطةِ النّزعاتِ والنّزواتِ بها، حتّى لتطمِسُ معالمَها وتحجُبُ حقيقتَها، ولكنَّ السّعيدَ ذلك آلّذي يُنقّي جوهَرَه ويُصفّي سبيكةَ عناصرِه.

وهنا يَرْسُمُ تطوّرَ نفسِه، أي أفْعاهُ، وبتعبيرٍ آخرَ: حَوّاءَه في مجالاتِ آستحالَتِها، فآلمُتَوَحّدُ يبدأ «حَماطة» أي حُرْقَةَ قلبٍ بسبيلِ آلمعرفةِ ويستبدُّ به تساؤلٌ قاسٍ، وما هو حتّى يَستحيلَ حَضباً أي أُواراً مُتَّقداً من الشَّكِّ آلحادِّ والرَّيْبِ الطّائفِ بكُلِّ شيءٍ وآلمُمْتَدِّ إلى جُذورِ كلِّ شيءٍ.

ولقدْ رأيْنا في آلقصّةِ أنّ آلحَيّةَ تُسْلَخُ، وأنّ الدُّعْموصَ ينقلِبُ فراشةً، وسيمُرُّ بنا أنّ آلمُتَوَحّدَ يَتَحوَّلُ آستعلاءً مثلَ هذا التّحوُّل.

وهنا تُدرِكُ آلمُتَوَحّدَ نُقلةٌ، من كونِه حَضْباً إلى منزلةِ «أسْوَد»، وهذه آلمَنْزِلةُ تَبدأُ بآلجُحودِ آلمُطلَقِ نتيجةً للتّساؤلِ في آلمَنْزِلةِ قبلَها، آلّذي حرّكَ أحجارَ آلآعتقاداتِ وآلأفكارِ وآلآراءِ، فلم يكُنْ تحتَها من شيءٍ ثابتٍ، أو كانَ تحتَها أشياءُ من آلوهمِ وآلأباطيلِ، وتَنْتَهي بالتّجوهُرِ بآلعَقْلِ آلكُلّيِّ، نتيجةَ التّسلُّطِ على الطّبيعةِ آلحيّةِ بالرّياضةِ الزّاهدةِ

وآلحيلولَةِ بينَ آلعناصرِ وبينَ عَمَلِ نواميسِها.

وتأكيداً لهذه آلعقيدةِ عندَه، ذهَبَ يَدورُ في مَداراتٍ واسعةٍ، تُثْبِتُ مِقدارَ ما يؤثّرُ هذا آلآسْمُ بآعتبارِ كونِه آسماً فقط، تأثيراً رفيعاً سامياً، بما فيها مِن إرادةٍ عُلْيا مؤثّرةٍ. فهذا أسْودُ كِنْدَةَ وأسْوَدُ لخمٍ... إلخ. وَلَيْسَ هذا فقطْ بل كيفَما آستدارَ مصدَرُه في صُوَرِ آلآشتقاقِ، مثلَ سُوَيْدٍ، أسودانٍ، سودةَ، أبي الأسودِ... إلخ.

وأنا لا أرتابُ في أنّ آلمعرّيَّ، على هذا، كان يُفَضّلُ سودةَ بنتَ زمعةَ «آلّتي ترَفَّعتْ عن آلفِراشِ» تفضيلاً مُطْلَقاً، ويرفَعُها إلى مصافِّ آلمُتَوَحّدِ والزّاهدِ آلمُطْمَئِنِّ آلمُتَحَنّثِ، وتأمّلْ هذه آلفقرةَ في جانِبِها «ولا ينحرِفُ عنه السّولُ» أي آلمأمولُ... وهو خِلالَ ذلك يُشيرُ إلى مَنْهَجِ آلمُتَوَحّدِ من خُشونةِ آلعيشِ وآلبُعْدِ عن مُحَرّضِ الشّهواتِ، ودواعي الرّغبةِ بآلحياةِ الشّقيّةِ من مِثْلِ آلأحامرَةِ وآلأحمَريْن.

على هذا الشّكلِ كانَتِ آستحالَةُ آلقِصّةِ الدّينيّةِ في نفسِه، وعلى هذا الشّكلِ آمتدّ بها خيالُه آمتداداً عَجَباً. ومنه ندرِكُ فرْقَ ما بينَه وبينَ بشّارٍ وتلميذِه، فقدْ كانَتْ عقيدَتُهما ساذَجةً بسيطةً وعقيدتُه رمزيّةً رفيعةً. ولَسْتُ أستبعِدُ أيضاً أن يكونَ آنصرافُه عن الزّواجِ متأثّراً من بعضِ جوانبِهِ بهذِه آلقصّةِ في آتّجاهِ رمزيّتها.

ابن القارح كنية تقابل ابن يقظان

وآلآنَ ينبغي أن نُعنى بدَرْسِ آبنِ آلقارحِ، أيْ بِدَرْسِ حَقيقةِ هذا آلمُرَكّبِ آلإضافيّ آلكُنيةِ، وإلى ماذا ينظُر ويُشيرُ.

بادىءَ بدءٍ نجِدُ عندَ بعضِ تُبّاعِ آلفلسفةِ آليونانيّةِ، كآبنِ سينا، مُرَكّباً

إضافيّاً مُشابِهاً وهو آبنُ يقظان. فهَلْ بينَهما من عَلاقةٍ أو نِسْبَةٍ، وأعني على وَجْهِ التّضادِّ؟ لا سيَّما إذا عرَفْنا أنّ آبنَ سينا تُوفّيَ سنة ٤٢٨هـ، وأنّ كُتُبَهُ كانَتْ شائعةً مُتَداوَلةً، بحيثُ نظنُّ أنّ ٱلمعرّيَّ وقَفَ على آثارِ هذا ٱلمُعاصِرِ، فقدْ وُلِدَ سنة ٣٦٣هـ وماتَ بعدَه سنة ٤٤٩هـ.

أجِدُني غيرَ مُطْمَئِنٍّ أبداً إلى أنّ هذا ٱلمُرَكَّبَ ٱلإضافيَّ كانَ كُنْيَةً لعليِّ بْنِ مَنْصورٍ، الشّخصِ التّاريخيِّ ٱلحقيقيِّ ٱلّذي كَتَبَ إلى ٱلمعرّيّ رسالتَه ٱلمشهورةَ لاَعتبارات:

١ ـ نُدْرَةُ التَّسميةِ بقارحٍ في حدٍّ كبيرٍ.

٢ ـ مُشابهتُهُ للمُرَكَّبِ ٱلإضافيِّ «آبنِ يقظانَ» على وجهِ التّقابُلِ.

٣ ـ ما تَقْضي به ٱلحرفيّةُ ٱلمُعْجَمِيّةُ إذا حُلِّلَ هذا ٱلمُرَكَّبُ على ضوئِها، فهي تَحْفَظُ أنّ ٱلقرْحَ ما يَخْرُجُ بآلبَدَنِ من ٱلفسادِ، وٱلقارحَ النّاقةُ آستبانَ حَمْلُها... إلخ.

وٱلمادّةُ في كُلِّ مُشْتَقّاتِها يُستَشَمُّ منها رائحةُ ٱلبدنِ ٱلعفِنَةُ، فهذه جهةٌ، ومن ورائِها نَجِدُ في «ٱلقارحِ» لغويّاً ناقةً آستبانَ حَمْلُها، ولقد عَرَفنا في ٱلقِصّةِ ٱلأُسطوريّةِ أنّ ٱلحيّةَ بَدَأها ٱلخَلْقُ ٱلأوّلُ ناقةً وهذه جهةٌ أُخرى، ورأينا ٱلحَيّةَ في رمزيّةِ ٱلقِصّةِ تعيشُ مع كُلِّ بشريٍّ في عَمَلِ ٱلأخلاطِ ٱلأربعةِ ٱلمُرَكَّبِ منها. وفي **اللّزوميّات** شدَّ ما ذَكَرَ هذه ٱلأربعةَ وعَمَلَها وأثرَها في سَعْيِ ٱلأحياءِ، مِثْلَ قولِه: «جسدٌ من أربعٍ»، (ل٣٠٣/٢)، وقَولِه «والنّاسُ من أربعٍ شتّى»، (ل١٦٠/٣).

فلِمَ لا نجِدُ في هذه ٱلاعتباراتِ ما يُساعِدُ على تقديرِ أنْ يكونَ آبنُ ٱلقارحِ، أيْ هذا ٱلمُرَكَّبُ ٱلإضافيُّ أو ٱلكُنْيةُ، آصطلاحاً للمعرّيّ، يعني به آبنَ ٱلقُروحِ أو آبنَ النّاقةِ آستبانَ حملُها، أي آبنَ ٱلأخلاطِ ٱلّتي آنتفخَتْ

وتملّأتْ بالنّزعاتِ؛ وبتعبيرٍ آخرَ، آبنَ آلبدنِ آلعَفِنِ، ويكونُ بهذا عندَه مُقابلاً لآبنِ يَقْظانَ أيْ آبنِ آلعقلِ آلكُلّيّ؟

ويُقوّي هذا التّقديرَ لديْنا، الرّأيُ آلّذي سَنَأتي بآلكلامِ عليه، وهو أنّ **لزومَ ما لا يلزَم في النّثرِ والشّعرِ** كانَ مَقْصوداً للمعرّيّ جَزْياً وراءَ غرضٍ باطنيٍّ وَبِوَحْيِ آلباطنيّةِ، وروحِها أيضاً، بلْ صَرّحَ جهرةً في قوله:

كُـشَـيِّـرٌ، أنـا، فـي حَـرْفـي أهَـبْـتُ لـه
فـي التّـاء، يـلـزمُ حـرفاً لـيس يُـلـتَـزَمُ (ل٤/١٥١)

فآلتَزَمَ رَوِيَّيْنِ، رَوِيّاً ظاهراً وهو آلّذي تَنْتَهي به آلكلمةُ وما عليهِ النّاسُ، ورويّاً باطِناً وهو آلحَرْفُ قبلَه وفيه مُجْتَمَعُ آلقصْدِ. وعليهِ فآلقارحُ يَنبوعُ فسادِه في رويِّهِ الظّاهرِ، أي آلحاءِ آلّتي هي حَرْفُ آلحيّةِ أيضاً، وَرَوِيُّ صلاحِه في الرَّويِّ آلباطنِ، أي الرّاءِ آلمُشَدَّدة.

وإذا صَحَّ هذا فآلمعرّيُّ يَرى أنّ آلبَشَريَّ إذا آنطلَقَ في تيّارِ آلأخلاطِ ونزعاتِها، كانَ «آبنَ قارحٍ»، وإذا أوْقَفَ فيه عملَها ومَحا حوّاءَه أو حَيَّتَهَ كانَ «آبنَ القارِّ» أي الثّابتَ آلمُتَوَحّدَ أو آبنَ يقظانَ. وتأمَّلْ بعدَ هذا دِقّةَ تعبيرِه في ديباجةِ **رسالة الغفران** «وإنّ في مقرّي»، وفي هذا ما يُشَجِّعُ على آستنتاجِ أنّ في إمكانِ آلبشريِّ أن يُسْقِطَ «حاءَه» فيقرُّ ويسكُن أي يتوحّد.

وبرُغمِ أنّا نجِدُ عليَّ بنَ منصورٍ في التّراجمِ شَخْصاً يكادُ يكونُ شبهَ تاريخيٍّ، وبرُغمِ أنّا لا نَتحقّقُ من حياتِه سِوى ما حَدّثَنا به في رسالتِه، وسوى ما تَحَدّثَ به شَخْصٌ آخرُ يُدعى آبنَ عبدِ الرّحيمِ، وهو نَكِرةٌ أكثرُ من عليٍّ بْنِ منصورٍ، لا نعرِفُ من أمرِه شيئاً.

مَعَ ذلك فأنا أقتَصِدُ في الشَّكِّ كثيراً، ولا أجِدُ ما يَحْمِلُ على الرَّيبِ

فيه كشخصٍ عاشَ وتَقَلَّبَ هنا وهناك، وآنتهى به ٱلأمرُ أنّه كتَبَ للمعرّيّ رسالتَه ٱلّتي عُرِفَ بها، ولولا هذه ٱلـمُناسبةُ السّعيدةُ بالنّظرِ إليه وإلى ٱلأدَبِ لَما عرفْناه وعَرَفَه التّاريخُ أبداً.

وإنّما أحصُرُ شكّي في كُنيةِ «آبنِ القارحِ»، وفي أنّه كانَ معروفاً بها، ويؤكِّدُ هذا أنَّ ٱلـمُتَرْجمينَ له كانوا يقولونَ بعدَ ذِكْرِ آسمِه هذا التّعبيرَ «المعروفُ بدَوْخَلَةَ» فلوِ آشتُهِرَ بكُنيتِه آشتهارَه بلقَبِه لَعَرفوه بها فقطْ لِشَرَفِ ٱلكُنيةِ على ٱللّقبِ.

وأعتقدُ آعتقاداً لا يُخالجُني معه شكٌّ في أنّها، أيِ ٱلكُنْيَةَ ٱلـمَذْكورةَ، من خَلْقِ أبي ٱلعَلاءِ وآبتداعِه، آصطلاحاً في دائرةِ ٱلـحَيِّ بالطّبيعةِ، لمُقابلةِ آصطلاحِ «آبنِ يقظانَ» في دائرةِ ٱلـحيِّ بٱلعقلِ.

ولا تعجَبْ أنْ يَخْتَرِعَ مِثْلَ هذه ٱلكُنْيَةِ، فلهُ أشْباهُها مثلُ قولِه في **رسالة ٱلغفران**: «إخوان هذه ٱلـخليقةِ»، (ص ٤٨١)، ٱلّتي آستعمَلَها آستعمالاً يُفيدُ أنّها تُقابِلُ «إخوانَ الصّفا» أو ٱلأصفياء.

قيمة الرّسالة الفلسفيّة

وٱلآنَ نلفِتُ النّظرَ لَفْتاً عابراً إلى أهمّيةِ ٱلآراءِ في **رسالةِ الغفران** ومكانِها من فلسفتِه، فهي تُظهِرُنا بالدّرجةِ ٱلأولى على فعاليّةِ ٱلكَلِمةِ، بل فعاليّةِ إرادتِها وخَلْجَةِ ٱلعقلِ بها.

وتُظهِرُنا على ٱلقَسْرِ في التّسلسُلِ الطّبيعيِّ وٱلـحَيَويِّ، وفي دائرةِ ٱلـحَياةِ وآرتباطاتِها يتمكّنُ ٱلبشريُّ من تَغييرِ مَوْضعِه من السِّلسلةِ، وبتعبيرِ ٱلـمعرّيّ: من تَغْييرِ قافيتِه. وهو يسوقُ قصّة «أُمّ حِصْنٍ» مِثالاً وشاهداً، وليسَ لِلَهْوِ ٱلقافيةِ كما يُتوَهَّمُ في النّظرِ ٱلعَفَويِّ السّريعِ... كما نَجِدُ فيها شيئاً كثيراً

من مُناسباتٍ لُغَويّةٍ لا يُرسِلُها تظرّفاً ولا مُعاياةً، وإن كانَتْ لا تخْلو منهُما، ولكنْ لِتَعْنيَ مقاصِدَ جوهريّةً أُخرى، وسَنَأْتي على دَلالاتِها في بحثِ ٱلأقدار.

ومهْما يكنْ من شيءٍ، فإنّ **رسالةَ ٱلغفران** أغنى آثارِ أبي ٱلعلاءِ تعريفاً بفلسفتِه، كما نجِدُ فيها فنّيّةً أكثرَ حَبْكَةً ودِقّةً وٱنسجاماً، تشهَدُ بأنّها كانَتْ في قِمّةِ ٱقتعادِه ٱلفَلْسَفيِّ وبلوغِه ٱلأَوْجَ ٱلفَنيَّ الشّامخ.

ونحنُ لا نَتَحاشى حِيالَها من ٱلقولِ، أنّ المعرّيَّ أعطى بها أقدمَ أثَرٍ رَمْزيٍّ رائعٍ، يَجعَلُه ٱلخَليقَ بأن يُعَدَّ أبا الرّمزيّةِ في ٱلأدبِ، كُلِّ الأدبِ، وإنْ كانَ ٱلمعرّيّ قدْ سَجّلَ فخراً بمَلْهاتِهِ ٱلإلهيّةِ، فقدْ سَجّلَ برمزيّتِه فيها فخراً أكثرَ ٱستطالةً وأسمى تَصعيداً وسُموقاً...

مصادر رسالة الغفران

وٱستئناساً بهذه ٱلمناسبةِ أجدُ من ٱلخيرِ ٱلإشارةَ إلى مصادرِ **رسالة الغفران** ٱلحقيقيّةِ، ونحنُ لا نَرْجِعُ بها إلى أكثرَ من:

١ ـ ٱلأساطيرُ ٱلعربيّةُ عن ٱلّذينَ ٱستهواهم ٱلجِنُّ، وبٱلأخصِّ منهم «خُرافة» ٱلّذي قيلَ فيه: حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عمرو. وكانَ من خبرِ خُرافةَ أنّ ٱلجِنَّ ٱختطفتْه وطافَتْ به في داراتِها ثمّ أعادَتْه، فَطَفِقَ يُحدّثُ النّاسَ بغرائبِ ٱلأخبارِ، فقيلَ حديثُ خرافةٍ أيْ حديثٌ مُعْجِبٌ غريبٌ. قال:

لَـقَـدْ بَـعِـلَ ٱلـمَـرْءُ عَـمـرٌو بـهـا
فـصَـدَّ، عـنِ ٱلـكـاسِ، فـي بَـعْـلَـبَـكْ (ل٣/٢٧١)

٢ ـ أساطيرُ ٱلعَرَبِ عن ٱلغيلانِ، وحكاياتُهم على ألسُنِ ٱلحيوانِ وإنطاقُها بٱلمُثُلِ السّائرةِ، وأقاصيصُهم عن ٱلهَواتفِ ٱلّتي تنطِقُ بٱلأخبارِ

والشِّعرِ، وأحاديثُهم عن الشُّعراءِ وشياطينِهم، وأسمارُهم عن ٱلكواكِب:

أَبِـيـدَةُ قـالَـتْ لـلـوُعـولِ مُـسِـرَّةً:
تَـبِـدْنَ بـحُـكْـمِ ٱلـلّـهِ، ثُـمّ أَبِـيـدُ
ولا أَدَّعــي لِـلْـفَـرقَـدَيْـنِ بـعِـزّةٍ
ولا آلِ نَـعْـشٍ، مـا ٱدّعـاهُ لَـبِـيـدُ (ل١٤/٢)

٣ ـ القرآنُ، وبٱلأخصّ منه حكايةُ ٱلخضرِ في سورةِ ٱلكهفِ وسورةِ ٱلجنّ فيما يتعلّقُ بهيكلِ مَلهاتِه، وأخبارُ ٱلجَنّة والنّارِ فيه، فيما يتعلّقُ بمادّةِ ٱلمَلْهاةِ.

٤ ـ الإسراءُ وٱلمعراجُ النّبويّان.

٥ ـ مجموعةُ ٱلأخبارِ ٱلحَديثةِ ٱلّتي تَدورُ حولَ ٱلجنّةِ والنّارِ من جهةِ أنّها مادّةُ ٱلمَلْهاةِ، بقطْعِ النّظرِ عن صِحَّتِها مثلَ ما يُروى أنّ في ٱلجنّةِ شَجَرةً من أعلاها حُلَلٌ، ومن أسْفَلِها خَيْلٌ بُلْقٌ من ذَهَبٍ، مُسْرَجَةٌ مُلجَمَةٌ بلُجُمٍ من دُرٍّ وياقوتٍ، لا تروثُ ولا تبولُ، لها أجنحةٌ خُطْوَتُها مدُّ بَصَرِها فتطيرُ بهم حيثُ شاؤوا. فيقولُ ٱلّذين همْ أَسْفَلُ درجةٍ: يا ربَّنا بِمَ بلَغَ عِبادُك هذه ٱلكرَامةَ كُلَّها، فيقولُ: بأنَّهم كانوا يَقومونَ ٱللّيلَ وكُنتُمْ تَنامونَ، وكانوا يَصومونَ النّهارَ وأنتمْ تأكُلونَ. ثُمَّ يجْعَلُ ٱللّهُ في قُلوبِهِمُ الرِّضا، فيرضَوْن وَتَقَرُّ أعينُهم، إلى كَثيرٍ من هذه ٱلأخبارِ الّتي لم يَبْرَحْها ٱلمعرّيُّ ٱستعارةً أوِ ٱحتذاءً.

٦ ـ رواجُ سوقِ ٱلقُصّاصِ وأحاديثِهم مَنْ مِثلِ خبرِ ٱلجسّاسةِ وخبرِ جبريلَ في بَدْءِ ٱلخَلْقِ وما إليها.

٧ ـ القَصَصُ ٱلأجنبيُّ مثل **كليلة ودمنة** وأسمارِ ٱلجَهْشَياريّ، ولا سيَّما **كليلة ودمنة** ٱلّتي قامَتْ على إنطاقِ أصْنافِ ٱلحيوانِ، ٱلعقيدةِ ٱلّتي

كانَ يقولُ بها بشّارٌ وسليمانُ ٱلأعمى، وٱلّتي رأيْنا كيفَ ٱستحالتْ عندَ ٱلمعرّيّ ٱستحالَتها الرّفيعةَ.

٨ ـ قصّةُ **سَلامان وأبسال** ٱلّتي ترجَمَها حُنَيْنُ بنُ إسحاقَ[٧]، وضَمّنَها ٱبنُ سينا بعضَ فُصولِ **الإشارات**[٨].

وكذلكَ مُطْلَقُ ٱلأساطيرِ ٱلّتي فَهِمَها فَهْماً رَمزِيّاً:

وإنْ صحَّ أنّ النَّيِّراتِ مُحِسَّةٌ[٩] فَماذا نَكِرْتُمْ من وِدادٍ ومِنْ صِهْرِ
لَعَلَّ سُهَيْلاً وهو فَحْلُ كَواكِبٍ تَزَوَّجَ بِنْتاً للسِّماكِ على مَهْرِ
يَقولونَ تَأْتي فوقَنا، مِثْلَ ما أتى بَنو ٱلأرضِ في حالِ السِّرارِ أوِ ٱلجَهْرِ
فيالَيْتَ شِعْري هَلْ تُراعُ من الرَّدى وَتَرْكَعُ نُسْكاً بٱلعِشاءِ وبالظُّهْرِ
وَتكْذِبُ، إنّ ٱلمَيْنَ في آلِ آدَمٍ غَرائِزُ جاءَتْ بالنِّفاقِ وبِٱلعَهْرِ (ل٢/٢١٥)

٩ ـ رَسائلُ ٱلجاحظِ السّاحرةُ ٱلّتي مَدّتْهُ بعُنْصرِ السُّخْرِ ٱللّاذِعِ.

هذه مصادرُ مَلْهاتِهِ في تَأكيدٍ كَبيرٍ، بيدَ أنّها لا تَسْتَوي في قيمتِها ومُباشَرَتِها، ولكنْ دونَ ما رَيْبٍ، أنّ أهمَّها في ٱلمَلْهاةِ وأشدَّها مُباشَرَةً حَديثُ خُرافةٍ وٱلمِعراجُ، وما وراءَهُما، فمنْه ما أعانَ على ٱلمادّةِ، ومنهُ ما أعانَ على إفراغِ ٱلألوانِ.

(٧) طَبْعُ مَطبعةِ ٱلجوائب سنة ١٢٩٨هـ، الآستانة.

(٨) شَرْحُ **الإشارات**، ٱلمطبعة ٱلخيرية للخَشّاب سنة ١٣٢٥هـ، ٱلقاهرة، ٢/١٠١ ـ ١٠٤.

(٩) مُحِسّة: ذاتُ إدراكٍ حسّيٍّ.

مقدّمة لُزوم ما لا يلزم

هذه ٱلـمُقَدِّمةُ ليسَتْ تَخْلو من لَفَتاتٍ، وَلَفتاتٍ مُشيرةٍ ناطِقَةٍ، وهي مُهِمّةٌ، ومُهِمّةٌ كَثيراً بِسبيلِ ما نَأْخُذُ أنفُسَنا بهِ من إيضاحِ فِكْرِ أبي العَلاء.

لا قيمة لتأريخ مقاطع اللّزوميات

وأوّلُ ما نتناوَلُ منها بَحْثُ ما يهتمُّ بهِ ٱلبعضُ آهتماماً ساذَجاً[1]، من ضَرورةِ تَرتيبِ **اللّزوميّاتِ** تَرتيباً تأريخيّاً، ٱلتِماساً لإدْراكِ تَطوُّرِ ٱلـمعرّيّ ٱلفِكريِّ ومراحِلِ هذا التطوُّرِ ومسافاتِ ما بينَها، وٱلتماساً أيضاً لرفْعِ ما نُحِسُّهُ مِن تَناقُضٍ بارزٍ عندَه. وبحثُنا هذا نُديرُه على تَساؤُلٍ نَجِدُهُ ضَروريّاً، وهو:

هلْ مِن فائِدَةٍ لِمثلِ هذا التّرتيبِ فيما إذا صحَّ وأمكن؟

وأنا أُجيبُ، بلسانِ أبي ٱلعَلاءِ نَفْسِه، بأنَّه غيرُ مَرْجُوِّ ٱلفائدةِ، ضائعُ ٱلغايةِ، فإنَّ التّرتيبَ التّاريخيَّ ٱلـمَذْكورَ قَدْ يَضْمَنُ حقّاً بَيانَ تطوُّرِه

(١) في مقدّمة ٱلـمُهتمّينَ هذا ٱلآهتِمامَ الدّكتورُ عبد الوهّاب عزّام، وظَنَّ هو ومَنْ جاراه أنّ هذا التّرتيبَ التّأريخيَّ يَحُلُّ مُشكلةَ الحَيْرةِ عندَ المعرّيّ.

ٱلفِكريّ، وقدْ يَضْمَنُ حقّاً بيانَ: في أيِّ عهدٍ نَظَمَ هذهِ ٱلقِطعةَ أو تِلك. إنّه قدْ يُعلِمُنا كلَّ ما نحنُ بحاجةٍ إلى عِلمِهِ ومعرِفَتِهِ، ولكنّه لا يَكْفُلُ ٱلغايةَ ٱلمتوخّاةَ أو شيئاً منْها، مَعَ هذا ٱلمعرّيّ ٱلّذي جاءَ وَتَبَنّى مُتناقِضاتِهِ لا مِن جهةِ أنّها أثرٌ من آثارِه، بلْ من جِهةِ أنّها عَقيدةٌ بِجَميعِ ما فيها، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

«كانَ من سَوالِفِ ٱلأقْضِيةِ، أنّي أنْشَأْتُ أبنِيَةَ أوْراقٍ، تَوخَّيْتُ فيها صِدْقَ ٱلكلمةِ، ونزَّهتُها عن ٱلكَذِبِ وٱلمَيْطِ، ولا أَزعُمُها كالسِّمْطِ المُتّخَذِ، وأرجو أن لا تُحسَبَ من السُّمَيْطِ.

فمِنْها ما هو تَمجيدٌ للّه ٱلّذي شَرُفَ عن التّمجيدِ، ووَضَعَ ٱلمِنَنَ في كلِّ جيدٍ، وبعضُها تَذْكيرٌ للنّاسينَ، وتنبيهٌ للرَّقَدةِ ٱلغافلينَ، وتَحْذيرٌ من الدُّنيا ٱلكُبرى ٱلّتي عبَثَتْ بٱلأُوَلِ، وٱستُجِيبَتْ فيها دَعوةُ جِرْوَل، إذْ قال لأُمِّهِ:

جَـزاكِ ٱلـلّـهُ شـرّاً مـن عَـجـوزٍ
ولَـقّـاكِ ٱلـعُـقـوقَ مِـنَ ٱلـبنينا

فهيَ لا تَسْمَحُ لهم بٱلحُقوقِ، وهم يُباكِرونَها بالعُقوقِ. وإنّما وَصَفْتُ أشياءَ من ٱلعِظَةِ، وأفانينَ على ما تَسْمَحُ به ٱلغَريزةُ. فإنْ جاوَزْتُ ٱلمُشْتَرَطَ إلى سِواهُ، فإنّ ٱلّذي جاوزْتُ إليه، قولٌ عَرِيٌّ من ٱلمَيْنِ».

فٱلمعرّيُّ يُشْهِدُنا فيها على أنّها، أيِ **اللّزوميّاتِ**، لم تَكُنْ نَتيجةَ وتيرةٍ

مُتّصلةٍ أو خاطِرَةٍ آنسجَمَ فيها الزّمنُ، ويُشهِدُنا أيضاً على أنّها كُلُّها صِدْقٌ عَرِيَ من ٱلْمَينِ ونَزِهَ عن ٱلكَذِب.

ولعلَّ لِباحثٍ أنْ يَقولَ مَعَ ٱلآحتمالِ إنّ ٱلمعرّيَّ يُريدُ أنّ كُلَّ قِطْعَةٍ منها صِدْقٌ في وقتِها وحينِها، ولكنّه آحتمالٌ يَضْمَحِلُّ حينَما يَعودُ ٱلمعرّيُّ، بالذّات، فيؤكِّدُ أنّها كَلمةُ صِدْقٍ حتّى يومِهِ ٱلّذي شَهِدَ جمْعَها ورَصْفَها، وحَتْماً كانَ بعدَ تَمامِ نَظْمِها جَميعاً.

يَعْرِفُ هؤلاءِ ٱلّذين يعقِدونَ همَّهم على التّرتيبِ التّأريخيِّ لحلِّ مُشكلةِ أبي ٱلعَلاءِ، أنَّهُ متناقضُ ٱلخَطَراتِ على مَنْهَجِهم، ويعرِفونَ من كلمةِ ٱلمُقَدِّمةِ ٱلّتي أثْبَتْناها هنا، أنّ ٱلمعرّيَّ يَرْضى عنها كافّةً ويصِفُها بالصِّدقِ كافّة.

ويَعْرِفونَ أيضاً أنّ الصِّدقَ على التّناقضِ ليسَ يَستقيمُ إلّا بآستمرارٍ، وهذا ينقُضُ ما يَتَوَهّمونَ من أطْوارٍ ومراحلِ آنتقالٍ، بلْ عَلى طَريقتِهم هذه يَحْكُمونَ عليه حُكماً قاسياً بأنّه ما بَرَحَ منزِلَةَ حَيْرَتِه، ولا آستطاعَه.

لهذا أجِدُني غيرَ مُؤْمنٍ بقيمةِ ٱلمُحاولةِ ٱلمذكورةِ، غيرَ مُطْمَئِنٍّ إلى فائدتِها، بلْ على ٱلعكسِ تُقدِّمُه لنا في مُشْكِلَةٍ تُداخِلُها مُشْكِلَةٌ أُخرى، حينَ نُثْبِتُ تناقُضَه ونُثبِتُ آطمئنانَه إلى أشْياءِ هذا التّناقُضِ جميعاً. فلوِ آتّفَقَ وتمَّ لنا تأْريخُ مَقْطوعاتِه في **اللّزوميّات** وكانَ ما يُفيدُ ٱليقينَ ٱلخالصَ آخرَها، فماذا نَصْنَعُ بٱلمُقَدِّمة ٱلّتي وصَفَتِ ٱلمَقْطوعاتِ كُلَّها بالصِّدق.

رمزيّة النّوق والأفراس

وقبلَ ٱلمُضِيِّ في دَرْسِ النّصّ ٱلّذي آنتزعْناهُ من مُقَدِّمة **اللّزوميّاتِ**

وأثبَتْناه في هذا ٱلفَصْلِ، نُنَبِّهُ على أنّ التَّوْرِيَةَ وٱلملاحِنَ فيها مثلُ رابطةٍ لهذه ٱلقِطعةِ، كما وَجَدْنا في ديباجةِ **رسالة الغفران** أنّها تدورُ على ٱلمُشْتَرِكِ ٱللَّفظيّ مثلَ رابطةٍ لها.

وأيضاً نُنَبِّهُ على شيءٍ مُهِمٍّ، وهو أنّنا لا نَسْتَشْعِرُ في مُقَدِّمةِ **اللّزوميّات** تَعَمُّلاً باطنيّاً وإلْحاحاً في هذا التّعمُّلِ، كما لا نَسْتَشِمُّ ذلكَ ٱلغَبَقَ ٱلباطِنيَّ ٱلكَثيفَ بٱلمِقدارِ ٱلّذي نستشعرُهُ ونستشمُّهُ في ديباجةِ **رسالة الغفران**، وهذا يُشعِرُنا بأنَّ هذه ٱلأحْدَثُ تأْليفاً وتَصْنيفاً.

ولْنفرَغْ من بعدُ، إلى كشْفِ ٱلمَعْنى ٱلمقْصودِ بٱلقِطْعَةِ، وهو قَطْعاً خِلافُ ٱلمَعْنى ٱلمُتَبادرِ منها عَفْواً. وٱلمعرّيّ في نظرِنا نثرَها تَحْتَ خيالِ ٱلقَضاءِ ٱلّذي شَبّهَهُ بٱلأفراسِ وٱلخُيولِ ٱلمُنْطَلقةِ، وتحتَ خَيالِ الدُّنيا ٱلّتي شَبَّهَها بالنّاقةِ ٱلمَهْروتَةِ ٱلأشداقِ كِبَراً، ولقد أُولِعَ ٱلمعرّيُّ بتَشْبيهِ وَقْعِ ٱلقَدَرِ وتصاريفِ ٱللّيلِ والنّهارِ بٱلأفْراسِ ٱلمُنْطَلِقَةِ:

أغارَتْ عليهِمْ خُيولُ الزَّمانِ
كَأنَّ خُيولَهُمْ لم تُغِرْ (ل٢/٣١٤)

ويَنْبَغي، بينَ يَدَي النّصِّ ٱلمُثْبَتِ، أن نُثيرَ تَساؤُلاً، وهو: لِماذا ٱتَّخَذَ ٱلخُيولَ مَلْحَناً عن ٱلقَضاءِ؟ نجِدُ ٱلجَوابَ في ٱلأمْثالِ ٱلعربيَّةِ ٱلقَديمةِ وفي أقاصيصِها، فٱلعربُ يقولونَ: «إنّ الفرسَ لا يشرَبُ الماءَ إلّا كَدِراً، وإذا كانَ صافياً كَدَّرَهُ، وإنّه حَديدُ ٱلبَصَرِ، ويَقولونَ إنّ ٱلفَرَسَ لا طِحالَ له، وهو مَثَلٌ لسُرعةِ وَثْبتِه وخَفّةِ حركتِه، ويقولونَ إنَّ في ٱلفَرَسِ عِشرينَ عُضواً، كلُّ عُضوٍ منها يُسمّى بٱسمِ طائرٍ، فمنها: النَّسْرُ وٱلنّعامةُ وٱلهامةُ وٱلبازُ، والسَّمامةُ والسّعدانةُ ـ وهي ٱلحَمامةُ ـ، وٱلقَطاةُ والذُّبابُ وٱلعُصفورُ وٱلغُرابُ والصُّرَدُ، وٱلخُرَبُ ـ وهو ذَكَرُ ٱلحُبارى ـ، والنّاهِضُ ـ وهو فرخُ

ٱلعُقابِ ـ، وٱلخُطّافُ... إلخ. وفي خَبَرٍ: ٱلخيرُ في نَواصي ٱلخَيلِ، وفي آخَرَ: الشُّؤْمُ في ٱلفَرَسِ»(٢).

وإذا تأمّلْنا ٱلفَرَسَ من خِلالِ هذه ٱلخَصائصِ ٱلمُضافةِ إليه وٱللّاحقةِ به، وأدْنَينا ٱلمَنْهَجَ ٱللُّغويَّ منِ آعتبارِنا، وأخذْنا مَجْموعةَ أعضاءِ ٱلفَرسِ ٱلمُسَمّاةِ بمَجموعةٍ من أسماءِ الطُّيورِ لها خصائصُها ٱلمُخْتَلِفَةُ وٱلمُتَناقِضَةُ، نتَوَصّلُ إلى أنّ في ٱلفرسِ مِثْلَ هذه ٱلألوانِ من ٱلخَصائصِ ٱلمُخْتَلِفةِ، وٱلقَضاءُ أو ٱلقَدَرُ في مواقِعِه مجموعةٌ مِنْ هذه ٱلخَصائِص.

إذاً فٱلأقدارُ أفراسُ ٱلغَيْبِ ٱلمُجَنَّحَةُ، وهي تَقَعُ في مثلِ سُرْعَتِها وشِدَّتِها وسَعْدِها وشُؤْمِها، وهذه كِنايةٌ إذا تأمّلنا ألْوانَها على ضَوْءِ خصائصِ كلِّ طائرٍ منَ الطُّيورِ ٱلعِشْرينَ، ٱلمُجْتَمِعَةِ بأسمائِها في هيكَلِهِ ٱلعُضويِّ، تَبْدو مُدْهِشَةً بلْ لا حدَّ لجَمالِها.

ولا تَسْتَبْعِدْ ما نُشيرُ إليه من هذه ٱلكِناياتِ ٱلمُرَكَّبَةِ وٱللَّوازمِ ٱلبَعيدةِ، فٱلمعرّيُّ، فضلاً عن كَوْنِهِ باطنيّاً من نَوْعٍ باطنيّةٍ خاصّةٍ، تولّاه عَصْرٌ أخَذَ بهذه ٱلكِنايةِ ٱلمُرَكّبةِ في قِسْمٍ كبيرٍ من إنتاجِه ٱلأدبيّ.

فقد شَهِدْنا عندَ شاعرٍ قديمٍ كِناياتٍ أكثرَ تَداخُلاً وأعسرَ تَعقيداً، حين يَصِفُ غادةً بأنّ ٱلجهْلَ في قرْطِها وٱلعِلْمُ في خَلْخالِها، كِنايةً عن طولِ عُنُقِها وسُمْنةِ ساقَيْها. وذلكَ لأنّ ٱلجَهْلَ يلزَمُهُ الطّيشُ وخفّةُ ٱلحَرَكَةِ، وأنّ خِفّةَ ٱلحَرَكةِ يلزَمُها ٱلمسافةُ بأنْ تَكونَ بَعيدةَ مَهْوى ٱلقرْطِ والشَّنَفِ، وبُعْدُ مَهْوى ٱلقرْطِ يَلْزَمُه طولُ ٱلعُنُقِ، وأنّ ٱلعِلْمَ يلزَمُهُ ٱلوَقارُ والسُّكونُ،

(٢) راجِعْ **حياة الحيوان** للدّميريّ، ٢/٢٥٠، ٢٦٦، ط ٱلمطبعة ٱلأدبيّة سنة ١٣١٩هـ، ٱلقاهرة.

وأنّ السُّكونَ يَلْزَمُهُ كَوْنُ وَسْواسِ ٱلحُلِيِّ صامتاً، وأنّ هذا الصُّموتَ تَلْزَمُهُ سُمْنَةُ ٱلمُخَلْخَلِ أو السّاقِ:

بَـدرُ تِمٍّ، تَـنَـهَّـرَ[٣] ٱلـلّـيـلُ مِـنْـه
وأخـو ٱلـحُـبّ ذاهِـلٌ مـفـتـونُ
عِـلْـمُ خَـلْـخـالِـهـا وجَـهْـلُ شُـنـوفٍ
أبـرزَتْـهـا الـظُّـنـونُ وهـي فُـتـونُ

وٱستمرَّتْ هذه الظّاهرةُ في لَوْحاتِ ٱلأدبِ ٱلعَرَبيِّ من بَعْدُ، فهذا ٱبْنُ ٱلخطيبِ ٱلأندلُسيُّ في مُوَشَّحِهِ ٱلمشهورِ يقولُ بِتَصَنُّعٍ من هذا النّوعِ في الشَّطْرَيْنِ التاليَيْنِ:

ورَوى الـنُّـعـمـانُ عـن مـاءِ الـسَّـمـا
كـيـفَ يَـروي مَـالِـكٌ عـن أنَـسِ

فَقَدِ ٱستغلَّ ما يُعرَفُ عندَ عُلماءِ ٱلحَديثِ بٱسمِ سِلْسلةِ الذّهبِ، وهي روايةُ مالكٍ عن نافِعٍ عن أنَسٍ، في وصفِ زهْرِ شقائِقِ النُّعمانِ بأنّها ذهبيَّةُ ٱللَّونِ...

وكذلكَ هي ٱلكِنايةُ بالنّاقةِ عن الدُّنيا تنبُعُ من النّبعةِ نفسِها. ولقد سَبَقَ، في فَصْلٍ مَضى، ما يَشْرَحُ وجهَ ٱلكِنايةِ فيها.

ومِنْ هُنا نَرى في ٱلقِطْعَةِ ٱلمَذْكورةِ خَيالاً ٱنعقَدَ على أنّ ٱلمَعْرَكَةَ بينَ ٱلعَناصرِ ٱلّتي تَلُفُّ ٱلحَياةَ وٱلأحياءَ وَبَيْنَ ٱلأقدارِ، كَمِثْلِها مَعْرَكةً بين أفراسٍ ونُوقٍ، وهو، أي ٱلمعرّيُّ، عَوْنٌ للأقدارِ على ٱلعناصِرِ يستَسْلِمُ لها ويَسْتَرْخي في مَهَبِّ إعصارِها.

(٣) تَنَهَّر هنا يعني: تَصَيَّر ٱللّيلُ به نَهاراً، وهو ٱستعمالٌ عبّاسِيٌّ مُوَلّد.

وفي ٱتّجاهِ هذهِ ٱلـخَيالاتِ نأخُذُ ٱلقِطْعَةَ ٱلمَذْكورةَ، لِنرى صِدْقَ ما ٱدّعَيْنا من هذه ٱللَّفَتاتِ عِنْدَه، ونَتَقَدَّمُ بشَرْحِ ٱلمُفْرداتِ وملاحِنِها:

سوالف: في ٱللُّغة جَمْعُ سالِفة، بمَعْنى ٱلحِقْبَةِ ٱلماضيةِ، ومن ٱلفَرَسِ هاديتُهُ، أيْ ما تقدَّمَ من عُنُقِه، ٱلمَقْصودُ هنا هادِيَةُ ٱلفَرَسِ مُلاحِظاً فيه خَبَرَ «ٱلـخيرُ في نَواصي ٱلـخَيْلِ» ولاحِناً إلى السَّلَفِ بمَعْنى كُلِّ عملٍ صالحٍ قدّمتَه أو كُلِّ فَرَطٍ ٱدّخَرْتَه وٱحْتَسَبْتَه.

الأقضية: في ٱللُّغةِ جَمْعُ قضيَّةٍ بمَعْنى واحدةِ ٱلقَضايا، وبمَعْنى ٱلقَضاءِ ٱلحَتْمِ، والثّاني هو ٱلمَقْصودُ.

أبنية: في ٱللُّغة جمعُ بِناءٍ، أيِ ٱلمُشَيَّدُ أو النَّحْويُّ ضِدُّ ٱلإعرابِ، وٱلمَقْصودُ ٱلأوّلُ لاحِناً إلى الثاني.

الـميط: في ٱللُّغة ٱلبُعْدُ وٱلجَوْرُ، وٱلمَقْصودُ الثّاني لاحِناً إلى «الـمَيّاط» أي ٱللعّابِ ٱلبَطّال.

السِّمْط: بٱلكسر في ٱللُّغة ذو معانٍ منها: خَيْطُ النَّظْمِ وٱلقِلادةِ، وٱلفَطِنُ الدّاعيةُ في أمْرِه، وٱلـمُرادُ هنا الثّاني لاحِناً إلى السِّمْطِ بمَعْنى الدّاهي.

الـمتّخذ: من ٱلأَخْذِ، ومن ٱلأُخْذَةِ، رُقْيَةٌ كالسِّحْرِ وخَرَزَةٌ يُؤَخَّذُ ويُسْحَرُ بها، وٱلمَقْصودُ الثاني.

السّميط: في ٱللُّغة: ٱلآجُرُّ بَعْضُه فَوْقَ بَعْضٍ، وٱلـخفيفُ ٱلـحالِ، وٱلمَقْصودُ الثّاني لاحِناً إلى ٱلأوّل.

الكُبرى: هنا من ٱلكِبَرِ بمعْنى الشَّيخوخَةِ لا السَّعَةِ وٱلآمتدادِ. ولاحِظْ قاعدةَ ٱلمقاليبِ، أي ٱلآشتقاقَ ٱلكَبيرَ، وهي تَقْضي بأنّ بينَ صُورِ الثُّلاثيِّ

وحدةً معنويّةً مع فارقٍ آقتضَتْهُ منزلةُ آلحَرْفِ، فَبَيْنَ البَكْرَةِ من النُّوقِ وآلكُبرى جامعٌ معنويٌّ.

الأُمّ: الأمُّ آلوالدةُ والدُّنيا.

الحقوق: جمعُ حَقّ، وآلمُرادُ هنا جَمْعُ حُقٍّ بالضّمّ، أي بَيْتُ آلعنكبوتِ.

باكر: من آلبُكورِ، وآلبَكْرَةُ آلفتيَّةُ من آلإبِلِ، وآلمَقْصودُ آلأوّلُ لاحِناً إلى الثّاني.

العقوق: بالضّمّ ضدُّ آلبِرِّ، وبآلفَتْحِ مِنْ أعْقَتِ آلفَرَسُ حَمَلَتْ، والثّاني هو آلمَقْصودُ.

أفانين: جمعُ أُفنونٍ بمَعْنى آلكَلامِ آلمُتَبَّجِ وآلغُصْنِ آلمُلْتَفِّ، وآلحَيّةِ، وآلجَرْيِ آلمُخْتَلِطِ ـ من جَرى آلفَرَسُ والنّاقةُ ـ وآلمَقْصودُ هنا آلجَرْيُ آلمُخْتَلِطُ لاحِناً إلى الحيّةِ...

ولنسمَعْ بعدَ هذا كيفَ يَقولُ:

كانَ من آلأقدارِ آلخَيِّرةِ حِيالَه آلّتي يَحْسَبُها مِثْلَ نَواصي آلخَيْلِ وآلّتي مَدَّتْهُ بمِثْلِ آلأفراطِ آلمُحْتَسَبَةِ، أنّه أنشأ مُقَطّعاتٍ شعريّةً فيها طبيعةُ آلبِناءِ أي الثّابتُ، قَصَدَ فيها صِدْقَ آلكَلِمَةِ وَنَزَهَها عن آلكذِبِ وآلعَبَثِ آلمُتَجَنّي، وهو لا يزعُمُها كآلقِلادةِ آلمُسْتَهْوِيَةِ.

ويَرْجو أن لا تُحْسَبَ رَصْفاً مُتراكِماً ضَعيفاً، أي مِنْ وَحْيِ خَرِفٍ ضَعيفٍ، فمِنْها ما هو تَمْجيدٌ للّهِ آلّذي شَرُفَ عن التَّمْجيدِ وَوَضَعَ آلمِنَنَ في كُلِّ جيدٍ، وبعضُها تَذْكيرٌ للنّاسينَ، وتنبيهٌ للرَّقَدةِ آلغافلينَ، وتَحْذيرٌ من الدُّنيا آلبَدّادِ آلّتي هي كالنّاقةِ

الشّائِخَةِ، والّتي عَبَثَتْ بالأوائِلِ واسْتُجيبَتْ فيها دَعْوَةُ جِرْوَلٍ، أي الحُطيئةِ.

وهذه الدُّنيا الشّائخةُ المُتَهَرِّئَةُ، لا تَمُدُّ إليهم يَدَ السَّماحِ ولو بِمِثْلِ بُيوتِ العنكبوتِ الواهنةِ ثَباتاً، وهمْ يُقْبِلونَ عَلَيْها في نَشْطَةِ الفتيّةِ من الإِبِلِ، والقَدَرُ من ورائِهم كالفرسِ العَقُوقِ الحامِلِ...

يُريدُنا أن نعرِفَ أنّه ساقَ أشياءَ من العِظَةِ، ورسَمَ أفانينَ، أي أشْواطاً، مُخْتَلِطةً من جَرْيِ افراسِ الأقْدارِ ونُوقِ الحياةِ، مُفْرِغاً في وَصْفِها حيّةً، أي زَهادةً مُتَوَحِدّةً مُتَوَجِّعَةً، على مُقْتَضى ما تَسْمَحُ به الغريزةُ الجاسِئَةُ، أيِ الجافيةُ القاسيةُ، الّتي عَبَّرَ عنها في بعضِ رسائِلِه بقولِه: «إنْسيُّ الوِلادَةِ وَحْشيُّ الغَريزةِ»:

غَـدَوْنـا سـائِـريـنَ عـلـى وِفـازِ
صُـحَـاةً، مِـثْـلَ شُـرّابِ ثِـمـالِ
عَـلـى الـفَـرَسَـيْنِ، لا فَـرسَـيْ رِهـانٍ
أوِ الـجَـمَـلَـيْنِ، لـيـسـا كـالـجِـمـالِ (ل٤/٩٢)

(يَعْني بهما اللّيل والنّهار).

ثمّ يقولُ: وإن جاوَزَ المُشْترطُ، أي رَسَمَ مجاريَ الأقدارِ ومجارِيَ الحياةِ، إلى أشياءَ أُخرى، فإنّ الّذي جاوزَ إليه قَوْلٌ عَرِيٌّ من الكَذِبِ أيضاً...

هذه هي القِطْعَةُ كما أفْهَمُها وأتذوّقُها، وتأمّلْ عَظَمَةَ هذا التّصوُّرِ القائمِ على مَزيجٍ مُخْتَلِطٍ منِ الْتواءِ جَرْيِ القَدَرِ على جَرْيِ الحياةِ إلى غايةٍ مُبْهَمةٍ، مثلَ جَرْيٍ مُخْتَلِطٍ من الخُيولِ والأيْنُق.

وَوَحْدَةُ القِطْعَةِ قائمةٌ على النّاقةِ، أي الحياةِ، مِثْلَما الحيّةُ، أي الزّهادةُ،

هي وَحْدَةُ ديباجةِ **رسالة الغفران**، ومن هنا نَفْهَمُ تماماً سِرَّ كلمتِه ٱلّتي ٱفْتَتَحَ بها:

«قالَ أبو العَلاءِ الضّريرُ رَهَنُ ٱلمَحْبَسَيْنِ، وإنّما قالَ بقَضاءٍ لا يَشْعُرُ كيفَ هو» يَعْني كٱلفَرَسِ ٱلعَقوقِ أي ٱلحامِلِ، لا يُدرى ماذا سَتجيءُ به من خيرٍ أو شرٍّ.

نَرْجو غداً، وغَدٌ كحامِلَةٍ
في ٱلحَيِّ، لا يَدْرونَ ما تَضَعُ...(٤)

المعنى العلائي للزوم ما لا يلزم

ثُمّ يَقولُ: «وَجَمَعْتُ ذلكَ كلَّهُ في كِتابٍ لقَّبْتُه **لزوم ما لا يلزم**»، وقدْ أشَرْنا إشاراتٍ لامِحَةً إلى مَعْنى هذا ٱلاصْطلاحِ ٱلعَروضيِّ، ٱلّذي تَحَوّلَ عندَ أبي ٱلعَلاءِ تَحَوُّلاً فلسفيّاً طَريفاً. وعلى ضوءِ تِلْكَ ٱلإشاراتِ نَسْتطيعُ أن نُدْرِكَ تَماماً، ونَتَصَوَّرَ تصوُّراً شامِلاً، ٱلغايةَ من **اللّزوميّات** وٱلقَصْد ٱلكامِنَ فيها.

فقدْ عَرَفْنا أنّ **لُزومَ ما لا يلزم**، يُعبِّرُ عن ظاهرةِ نزعةٍ باطنيّةٍ بما فيه من رَوِيّيْنِ: ظاهرٍ وباطنٍ. وعَرَفْنا أنّه آعتزالٌ بٱلقافيةِ وأخْذٌ لها بطائِفَةٍ من ٱلوسائلِ ٱلقاسيةِ الصّعبةِ. وعَرَفْنا من سيرةِ ٱلمعرّيّ أنّه أخَذَ نفسَه بِمِثْلِ هذه ٱلوسائلِ ٱلمُضْنِيَةِ، فكانَ في مَحْبَسَيْنِ مثلَما هي في رَوِيَّيْنِ، إذاً فهو ٱلقافيةُ ٱلمُلتَزمُ فيها، أي ٱلمُتَوَحِّدةُ مثلَما كانَ متوحِّداً.

وهذا بدونِ رَيْبٍ، يَقْتادُنا إلى لَمْسِ ٱلغايةِ من **اللّزوميّات** ٱلّتي تُداوِرُها وتَدورُ عليها، وهي أنّها بيانٌ لمناهِجِ ٱلمُتَوَحِّدِ وأُسلوبِ تأمُّلِه، كيفَما

(٤) البيتُ لبشّار بنِ بُرد.

ٱلْتَفَّتْ عليه ٱلخَطَراتُ وَوَقَعَ به طائرُها.

فٱلمُتَوَحِّدُ يَنْبَغي أن يأْنَسَ بكُلِّ ما يَضْطَرِبُ في نَفْسِه، ويأنَسَ طَويلاً بتَحْليلِه ويتمهَّلَ أيضاً على مختلِفِ وجوهِه وأوضاعِه، وإن كان بُطْلاً أو نُكْراً، وبهذا يُروِّضُ فِكْرَه بالتّأمُّلِ ٱلخالِصِ مِثْلَما يُروِّضُ طبيعَتَه بالتّزهُّدِ ٱلخالِصِ، فَيَتَحَرَّرُ عَقلاً وطَبيعةً، ويَسْتَوي تَحْريضاً وٱستجابةً.

ولا نَتَوَسَّعُ بِشَرْحِهِ، فَلَهُ محلُّهُ، وإنّما أثَرْنا طَرَفاً من حديثِه، بِقَصْدِ إيضاحِ ٱلاَسمِ الّذي ٱختارَه لـمَجْموعتِه الشِّعريّةِ، وٱلّذي يَعْني مناهجَ ٱلمُتَوَحِّدِ وتأمُّلاتِه. ويُؤَكِّدُ صِحّةَ هذه ٱلكنائيّةِ فيه ما رأيْنا في مَطْلَعِ ٱلمُقَدِّمةِ، من أنّ **اللّزوميّات** تَصِفُ أفانينَ من مَجاري ٱلأقْدارِ ٱلمُنْصَبَّةِ في أقنيةٍ من مَجاري ٱلحياة...

رمزيّة ناقة ثمود

وإدْناءً للمعرّيّ من كُلِّ أطْرافِه الشّاردةِ، ولَحاقاً به في ٱمتداداتِ خَيالِه النّادِّ، نبحَثُ بَداةَ النّاقةَ في مُقَدِّمةِ **اللّزوميّات**، مِثْلَما بَحَثْنا بداةَ ٱلحَيّةَ في ديباجَةِ **رسالة الغفران**.

نَجِدُ بُذورَ كِنائيّةِ ٱلنّاقةِ في ٱلأقاصيصِ ٱلعربيّةِ وٱلقُرآنِ وٱلآثارِ النّبويّةِ؛ فٱلعربُ شَبَّهوا ٱلحياةَ بالنّاقةِ وقالوا حولَها كثيراً، وٱلقُرآنُ يُحدِّثُنا عن النّبيِّ صالحٍ وناقةِ ثمودَ، وٱلآثارُ تَقُصُّ علينا نَبأها في تَفْصيلٍ كبيرٍ.

فقد رُوِيَ أنّ سيِّدَ ثمودَ، جُنْدُحَ بْنَ عمرٍو، قال: يا صالحُ أخْرِجْ من هذه الصَّخرةِ ـ وأشارَ لصخرةٍ مُنْفَرِدَةٍ في ناحيةِ ٱلحِجْرِ يُقالُ لها ٱلكاثِبَة ـ ناقةً مُخْتَرَجَةً جَوْفاءَ وَبْراءَ عَشْراءَ، فصلّى صالحٌ رَكْعتيْنِ ودَعا ربَّهُ،

فتمخَّضَتْ تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها، ثُمّ تحرّكَتْ فآنصدَعَتْ عن ناقةٍ بالصِّفاتِ نفسِها، وقد نَتَجَتْ سَقَباً مثلَها عِظماً فآمَنَ جُنْدُح.

فقالَ صالحٌ «هذه ناقةُ آللّهِ لها شِرْبُ يومٍ ولكم شِربُ يومٍ معلومٍ»، فعقَرَها قُدارُ بنُ سالفٍ فكَمَنَ لها في أصْلِ شجرةٍ على طريقِها، فلمّا مَرَّتْ به شدَّ عليها بالسّيفِ، فجَرَتْ ورَغَتْ رُغاءةً واحدةً تُحَذِّرُ سَقَبَها، فآنطَلَقَ السَّقَبُ ناشِطاً حتّى أتى جَبَلاً مَنيعاً يُقالُ له صَنْو، فأتَوْا صالِحاً يعتذِرون.

فقالَ: آنْظُروا هل تُدرِكونَ فَصيلها؟ فإنْ أدركتُموهُ فعَسى أن يُرْفَعَ عنكُمُ آلعذابُ، فخَرَجوا يَطْلُبونَه ولكنَّ آلجَبَلَ تَطاولَ إلى السَّماءِ حتّى ما ينالُهُ الطّيرُ.

وكان عَقْرُ النّاقةِ يومَ آلأربعاءِ، فأصبَحوا يومَ آلخَميسِ ووُجوهُهمْ مُصْفَرَّةٌ، وفي آلجُمُعةِ آحمرّتْ ثُمَّ أُخِذوا يومَ السّبْتِ. وأتى صالحٌ بلدةَ حاضورَ في آليمنِ وما لبثَ أن ماتَ فسُمِّيَتْ حَضْرَمَوْت... إلخ[٥].

ونحنُ، إذا أخذْنا هذه النُّتَفَ مِمّا طافَ بالنّاقةِ وضَمَمْنا إليها مَطْلَعَ **اللّزوميّات**، نَجِدُ في إحداهُما «قدار بن...» وهو من مادّةِ آلقَدَر، وفي **اللّزوميّات**: سوالف آلأقْضِيَةِ، ونَجِدُ خَيالَ ناقةٍ هنا، وناقةٍ هناك، إلى وُجوهِ تَشابهٍ كثيرةٍ. مِمّا نعتقدُ معه أنّ النّاقةَ، وما دارَ حولَها، آستحالَ في نَفْسِهِ آستحالةً رمزيّةً خالبةً. ومن آلخَيْرِ أن نكشِفَ عن وَجْهِ آلكِنايةِ فيها على ما يتَبَدّى لنا ويَظْهَرُ.

رَأيْنا النّاقةَ في آلخَلْقِ آلأوّلِ حيّةً، عُقوبةً لها، ونَرى هنا أنّ النّاقةَ تُعبِّرُ عنِ آلحياةِ، إذاً فقدْ غَوِيَتِ آلحياةَ وباتَتِ آلغِوايةُ فيها طَبيعةً ثابتةً. وأنّ

(٥) راجِعْ **حياة الحيوان** للدّميريّ، ٢/ ٢٠٠ ، ٤٠٦.

صالحاً، أيِ الصَّلاحَ، لا يتمُّ إلّا بٱنفطارِ حَياةٍ جديدةٍ، على يدِ ٱلْمُتَوَحِّدِ ٱلأكملِ، مِثْلَ ناقةِ صالحٍ، أي هذه الدُّنيا ٱلفاضلةِ أو ٱلشّريعةِ ٱلّتي أرادَها ورَسَمَ خُطوطَها مُتَوَحِّدُ ثَمود.

ولقدْ نتَجَتْ ناقةُ ٱللّهِ هذه فَصيلاً واحداً مُتألِّهاً، ولقدْ عاشَتْها ثَمودُ حيناً، ولكنْ عادَ فَغالَها قُدار (لاحِظْ أنّ قُدارَ كهُمام في ٱللُّغةِ بمعنى الثُّعبانِ ٱلعَظيم، ولاحِظْ أنّها من مادَّةِ ٱلقَدَرِ) بْنُ سالِفٍ (لاحِظْ أنّ سالِفاً من السَّلَفِ وهو في ٱللّغةِ ٱلأديمُ لم يُحْكَمْ دَبغُه، أي ٱلجَسَدُ لم يُنَقَّ) قال:

لَم تَدْرِ ناقَةُ صالحٍ لمّا غَدَتْ
أنّ الرَّواحَ يَحُمُّ فيه قُدارُ (ل٢/١٥٠)

*

خَطْبٌ تَساوى فيهِ آلُ مُحَرِّقٍ
ومُلوكُ ساسانٍ، ورَهْطُ قُدارِ (ل٢/٢٧٧)

وٱلمعْنى أنّ أفاعيَ الشَّهَواتِ عادَتْ فَصَرَعَتْها، ولقدْ ضَنَّتْ بفَصيلِها أنْ تلتفَّ عليه، فرغَتْ تُحذِّرُه، فٱنطلقَ ناشِطاً إلى عُصُمِ ٱلجَبَلِ ٱلحامي. قالَ مُشيراً إليه:

وٱهْرُبْ من النّاسِ ما في قُربِهِمْ شَرَفٌ
إنّ ٱلفَنيقَ إذا دانى الأنِيسَ عُقِرْ (ل٢/٣٠٠)

على أنّ ٱلأفاعيَ حاولَتْه فٱستَعْلَتْ به ٱلعُزْلةُ إلى ٱلآفاقِ ٱلمُجَنَّحةِ، ولقدْ سارَ صالحٌ وحَضَرَ ٱلموتُ وحلَّتِ النّكباءُ.

*

فكرُ المتوحّد

هذه هي ٱلقِصّةُ في رمزيّتِها عندَ ٱلمعرّيِّ، ولقدِٱستقامَتْ في خيالِه بإيحاءٍ من ٱلمُتَنبّي، ٱلّذي ٱستعادَ روُحَ ٱلقِصَّةِ في روحِه وهتَفَ بها في قولِه:

أنــا فــي أُمّــةٍ تَــدارَكَــهــا ٱلــلّــهُ
غَــريــبٌ كَــصــالــحٍ فــي ثَــمــودِ

وأبو الطيِّبِ تنبّأ بٱلفِعلِ، وبٱلأحرى[٦] تألَّهَ وٱضْطُهِدَ بٱلفِعلِ، وٱلمعرّيُّ مُعجَبٌ به مُولَعٌ حتّى لمْ يكْتُمْنا منه ذلك، على أنّه أحَسَّهُ بارِزاً في نَفْسِهِ فذهبَ إلى أنّه يَعْنيه بقولِه:

أنــا ٱلّــذي نَــظَــرَ ٱلأَعْــمــى إلــى أَدَبــي
وأسْــمَــعَــتْ كَــلِــمــاتــي مَــنْ بِــه صَــمَــمُ

فٱنعقَدَ تَصَوُّرُه على أنّ ٱلمُتَنبّي هو صالحٌ، وهو النّاقةُ، أي شَرْعَةُ ٱلحياةِ ٱلجديدةِ، وعلى أنّه هو، أي ٱلمعرّي، الفَصيلُ ٱلّذي نتَجَتْه نِتاجَ الذّاتِ بالذّاتِ، وٱلجَوْهَرِ بٱلجوهرِ، ولقدْ رَغا له يُجذِّرُهُ فَخَفَّ ٱلمعرّيُّ كما خَفَّ ٱلفَصيلُ، يتمنّعُ من دُنيا ٱلأفاعي والشَّهواتِ. ولقد طَلَبَهُ النّاسُ كعَوْذَةٍ لهم من ٱلعِقابِ، ولكنْ تَصاعدَ به الطّورُ وغابَ في ٱلعَلْياءِ.

وعَلى ضَوْءِ هذهِ الرّمزيّةِ، نَصِلُ إلى حَقيقةِ ٱلفِكْرِ وجَوْهَرِه عندَ ٱلمعرّيِّ في جوانِبَ كثيرةٍ من فلسفتِه:

فهو يَرى أنّ منهجَ إصلاحِ ٱلحيِّ يَقومُ على تَنْقِيةِ أَخْلاطِ ٱلجَسَدِ

(٦) تُحدّثنا الرِّواياتُ ٱلأدبيّةُ أنّ أبا الطَّيّبِ تَنَبَّأ، ولكنّها لا تُعَرِّفُنا شيئاً عن ماهيّةِ دَعْواه، وهلْ كانَتْ نُبُوَّةً كَما نعرفها دينيّاً أم كانَتْ دعوةً جريئةً بمَعْنى التألُّهِ ٱلإصْلاحيّ.

وتَصْحيحِ أُلْفَتِها وفعاليّاتِها، بعمليّةِ التَّوحُّدِ آلّتي هي مِثْلُ عمليّةِ دبغِ آلأديمِ تَماماً قبلَ أن يَحْلَمَ ويفسُدَ في جَوْهَرِه وحَقيقتِه، وكلُّ إصلاحٍ يَخْرُجُ عن حُدودِ آلجَسَدِ كأساسٍ، إلى آلمَعْنويّاتِ وآلأخلاقِ آلّتي عليْها النّظريّاتُ الدّينيّةُ والفَلْسَفيّةُ، مُضمحِلٌّ سَريعُ الآنتكاسِ، بما للعُضويّاتِ آلمُتَمَلِّكَةِ آلعامّةِ من تَأْثيرٍ وغَلَبَةٍ، وتَأْثيرُها دائماً يَكونُ أكثرَ آستبداداً وتَحَكُّماً ومُباشَرةً، قالَ:

وآبْدَأْ بِبُدْنِكَ[٧]، فآهضِمْ منهُ طائِفَةً
مِن قَبْلِ سَوْقِكَ، في أصْحابِكَ آلبدَنا (ل٤/٢٧٣)

ولقدْ وَجدَ سَنَدَ هذا، في آلحديثِ آلمشْهورِ من «أنّ رجلاً سألَ النّبيَّ هل يُرْسِلُ ناقَتَه ويتوكّلُ أمْ يعقِلُها ويتوكّلُ، فقال النَّبيُّ: بل آعقِلْها وَتوكَّلْ». وهو يَعْني في آتّجاهِ رمزيّةِ آلمعرّيِّ: هل يُرْسِلُ آلبَشَريُّ أسبابَ حياتِه ويُطْلِقُ لعَناصِرِها آلعِنانَ وَيَستَسْلِمُ للأقْدارِ تضَعُه حيثُ يَقَعُ، أم يُقيِّدُ حياتَهُ بمثلِ آلأربطةِ وآلقُيودِ ثمّ يَسْتَسْلِمُ للقَدَرِ بعدَ ذلك. فكانَ آلجوابُ قاضِياً بوُجوبِ آلأربطةِ، قاضياً بالتّوحُّدِ، فخَفَّ يتوحّدُ.

ونَفْهَمُ منها أيضاً سِرَّ آلقَدَرِ عندَه، وهو أنَّهُ شيءٌ في آلجَسَدِ ولَيْسَ في السّماءِ. ومن هُنا نُدرِكُ أنّه لم يكنْ جَبْريّاً بحالٍ. وإنّما يقولُ بجبريَّةِ آلمَنْزِلةِ آلّتي تَضَعُ نفسَكَ فيها بكلِّ آلآختيارِ، ولَيْسَ يقولُ بآلجَبْرِ آلقَدَريِّ آلغَيْبِيِّ وسَلْبِ آلآختيارِ، أيْ كآلجَمْرةِ في مَنْزِلةِ كَوْنِها تَحْتَ قِدْرٍ تُنضِجُ وتُعطي نَفْعاً، وفي منزلَةِ كونِها تحتَ مَتاعٍ ورِياشٍ تُحْرِقُ وتُتْلِفُ، أمّا هي في ذاتِها فليسَتْ مَقولةً للخيرِ والشّرِّ. وهذا آلمَثَلُ يُظهِرُنا بوُضوحٍ على ما

(٧) البُدْنُ هنا بضَمّ الباءِ مَصْدَرٌ يَعْني السُّمْنَةَ والبَدانَةَ، وليسَ كَما يُتَبادَرُ جَمعُ: بُدْنة، وعَنى بهَضْم بعضِ السّمنةِ الإقلالَ من الطّعامِ، وهو مَعْنىً كنائيٌّ رائعٌ أيْ هضم من نفسِه بنفسِه.

نَعْني بجبريّةِ ٱلمَنْزِلةِ ٱلمُنْفَصِلِ عنها، عَفْواً وطَبْعاً، ٱلإنضاجُ وما هو خيرٌ، وٱلإتلافُ وما هو شرٌّ.

وٱلمَعْنى أنّ إنشاطَ الطّبيعةِ ٱلحيّةِ يَنْتَهي بنتائِجه ٱلحَتْميَّةِ كٱلجَشَعِ وٱلفُحْشِ، دونَ تَدَخُّلٍ للمَجْهولِ، كٱلمُقَدّماتِ ٱلّتي تَتَضمَّنُ النّتيجةَ وتَنْتَهي بها حَتْماً على وجهِ ٱلمُلازَمةِ العقليّةِ.

ونَستفيدُ كذلكَ من رمزيَّةِ أنّ «قُدارَ بْنَ سالفِ مَنْحولُ النَّسبِ»، أنّ النّفْسَ ٱلحيوانيّةَ بنَزَعاتِها وشُرورِها وأهوائِها، دَخيلةٌ على ٱلجَسَدِ بجعلِه كالزِّقِّ ٱلمَلآنِ ولا تُنسَبُ إليه على وَجْهِ الضَّرورة وٱلأصالةِ، ولقدْ جَعَلَ من نَفْسِه شاهِداً فذّاً على صِحّةِ هذا ٱلآدّعاءِ بٱلإماتة ٱلعُضويَّةِ، قال:

غَدا رَمَضاني، ليسَ عنّي بمُنقَضٍ،
وكُلُّ زماني، لَيلَتَيْ آخِرِ الشَّهْرِ (ل٢/٢١٥)

عَنى بهما ٱلمَحاقَ أو السِّرارَ ليالي ٱمِّحاءِ ٱلقَمَرِ، وبٱللّيلتينِ كَنّى بهما عن ٱلعُزلةِ والزُّهد...

وٱلفائدةُ ٱلمُهِمّةُ، أو أهمُّ فوائِدِ ٱلقِصّةِ، أنّ هذه ٱلحياةَ أضحَتْ شائخةً على الشُّرورِ، ومحاولةُ ٱلإصلاحِ تَنْتَهي دائماً بٱلإخفاقِ، فقد تَوَلّى صالحٌ وحَضَرَ ٱلمَوْتُ، ولِذا خامَرَهُ طائفٌ من ٱلأسَفِ ٱلأَسْيان.

ويجِبُ أن نُعينَ ٱلغَيْبَ في أنفسِنا على التّنَقُّصِ من أطرافِها بكُلِّ ٱلقُوى، لِيشتَحيلَ ٱلجَسَدُ ٱستحالةً أُخرى بطبيعةِ حَياةٍ جَديدةٍ ونفسٍ جَديدةٍ لا قَبْلَ لها. ومن ثَمَّ نَنْتَهي مع ٱلمعرّيِّ إلى وجهِ نظريّةٍ غريبةٍ جدّاً، وهي ٱلقَوْلُ بتكَيُّفِ ٱلجَسَدِ في ٱستحالاتٍ خفيّةٍ، لأنّه من ٱللاّصقِ، أيِ الثّابتِ، وَمْوتِ النّفسِ ورغَباتِها في كُلِّ ٱستحالةٍ أو مَنْزِلةٍ ليكتَسِبَ ٱلجَسَدُ ٱلمُتَحَوِّلُ ذاتُهُ نَفْساً جَديدةَ النّشْأةِ، جَديدةَ ٱلآنفطارِ، أيْ مِثْلَ

آلإناءِ آلّذي يُستَعْمَلُ لمائعاتٍ شتّى في كُلِّ مرَّةٍ، فهو للماءِ حيناً وللشّرابِ أو اللّبَنِ حيناً آخرَ، ولكنّه آلإناءُ نفسُه.

وإذا صَحَّ هذا فآلمعرّيُّ يَقولُ بتناسُخِ آلاستحالاتِ النّفسيّةِ الدّائمةِ التَّشَكُّلِ، مُناقِضاً آلقائلينَ بتناسُخِ آلأرواحِ الدّائبةِ في أجْسادٍ جَديدةٍ.

وفائدةُ التَّوَحُّدِ أو التَّفرُّدِ آلأتمِّ، أنّنا نُعِدُّ أجسادَنا إعداداً بالصَّقْل وإماتةِ الزّوائدِ، مُتَفَتِّحةً لآستحالةٍ جسديّةٍ ذاتِ أخْلاطٍ أسْمى، تُوَلِّدُ نَفْساً جَديدةً وحياةً جديدةً...

هذه طائفةٌ من آلآستنتاجاتِ آلّتي تَقْضي بها رَمزيّةُ النّاقةِ، وهي، وإنْ تَكُنْ غريبةً، تشرَحُ أبا آلعَلاءِ وتُفسِّرُه.

ومنْ بينِ هذا وهذا نخرُجُ بأنَّ آلغايةَ من **اللّزوميّات** كانَتْ بآلقَصْدِ، كُلِّ آلقَصْدِ، لِبَثِّ الرِّيَبِ والشُّكوكِ ولِبثِّها في شَكْلٍ حادٍّ، يُغري آلأحياءَ بالتّساؤُلِ والنَّظرِ من جَديدٍ، كما يُغريهِمْ بشيءٍ آخَرَ، بآلهَرَبِ من أنفُسِهم على ما آجتمَعَ فيها من قَبْليّاتٍ ورَواسبَ سابقةٍ من آراءٍ وأصْداءِ رَغَباتٍ.

إنّه، بهذِه الشُّكوكِ آلحادّةِ، يَدْفَعُ بهمْ إليه، يَدْفَعُهُمْ إلى مِثْلِ مَنْزِلَتِهِ آلمُتَوَحِّدَةِ آلجاهدَةِ، وإلّا ظلُّوا مُتَخَبِّطينَ تَخَبُّطاً مُضحِكاً مُبكِياً، عبَّرَ عنهُ بسخريّتِهِ آللّاذعةِ في تَصارُعِ آلعُميانِ:

وبَصيرُ آلأقْوامِ، مِثْلِيَ أعْمى
فَهَلُمّوا في حَنْدَسٍ نَتَصادَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

وهكذا نَنْتَهي إلى أنَّه طَوى في التّسْمِيَةِ بـ **لُزوم ما لا يلزم**، إلى جانِبِ مَعْناها آلبَديعيّ، معنَيَيْنِ آخَرَيْنِ هما:

أ - رَهَنُ ٱلمَحْبَسَيْنِ كما ٱلقافيةُ فيه رَهينةُ رويَّينْ.

ب - ما يُسمّى في ٱلمُناظَرَةِ بٱلإلزامِ وٱلكَسْرِ على ٱلخَصْمِ، وذلك بجَعْلِ أدلَّتِه على مُدَّعاهُ أدلَّةً تنقُضُ مُدَّعاهُ نفسَه، ويكونُ مَغْزى التّسميةِ لزومَ ما يَظُنُّ ٱلمُخالفونَ أنّه لا يَلْزَمُهم.

قبل حديث الفلسفة

فَعَلْتَ فِعْلَ تِجارٍ مُخسِرينَ به
فآعبُدْ إلهَكَ تُرْزَقْ خيرَ مُتَّجَرِ
ما لِلْمَذاهِبِ قَدْ أمْسَتْ مُغَيَّرَةً
لها آنتِسابٌ إلى آلقَدّاحِ أو هَجَرِ[١]
قالوا: آلبريّةُ فَوْضى، لا حِسابَ لها
وإنّما هِيَ مِثْلُ النَّبْتِ والشَّجَرِ
فَآلجاهِلِيَّةُ خَيْرٌ من إباحَتِهِمْ
سَجِيَّةَ آلحارِثِ آلحَرّابِ أو حُجُرِ[٢]
ضَلَّ آلأَنامُ، وهذا مَنْهَجٌ أَمَمٌ[٣]
يَهْدي إلى آلحَقِّ، فَآسْلُكْهُ ولا تَجُرِ

(١) القداح: عبدُ آللّهِ بْنُ مَيْمون؛ هجر: مكانٌ كَثُرَ آلمنتسبونَ إليه من ذَوي آلآراءِ آلمُمعنَةِ في الشُّذوذِ.

(٢) الحارث: هو آبنُ ظالمِ آلمُرّيّ، وآلحَرّاب: آلوَلوعُ بآلقِتالِ وآلبَطّاشُ في كُلّ شُؤونه.

(٣) أمَم: قَريب، مُستقيم.

خَلِّ ٱلعِبادَ، وما ٱخْتاروا، فمُلْكُهُمُ
إذا نَظَرْتَ، كعَبْدٍ راحَ مُؤتَجَرِ

يغْنيكَ ظِلٌّ سَيالٍ[٤] يُستَظَلُّ بهِ
عن سائِلِ التِّبْرِ في ٱلبُنْيانِ وٱلحُجَرِ (ل٢/٢٣٦)

هذا آخرُ ٱلفُصولِ ٱلّتي تَدْخُلُ في حدِّ ٱلمُقَدِّماتِ أو التّمهيداتِ، وبعبارةٍ أُخرى ٱلّتي تَدْخُلُ في حدِّ معالِمِ ٱلطّريقةِ ٱلعَلائيّةِ، ٱلّتي نَخُصُّها بأكبرِ جُهدٍ وبأوْفَرِ نَصيبٍ.

ونحنُ نُوسِعُ من جوانبِ هذا ٱلفَصْلِ لمُلاحظاتِ مدارسَ عَقائديّةٍ[٥] شِبْهِ مُعاصِرَةٍ، نعتَبِرُها ٱلاتّصالَ بفَهْمِ أبي ٱلعَلاءِ، وتَقْريبِ فلسفتِهِ وتَحْديدِها، لأنّه تأثَّر بها على نَحْوٍ ما، ولو على سَبيلِ الرَّفْضِ، وٱعتمدْتُ فيها مَصْدراً بعينهِ لأنّه ٱلأوثَقُ وٱلأحفَلُ بٱلمفاهيمِ ٱلصّميمةِ ٱلأصيلةِ، وهو الشّهرستانيّ، لأنّ ما عِنْدَ سواهُ غيرُ وَثيقٍ أو مُبْتَسَرٌ، على أنّ أكثرَها صُنِّفَ ٱنتصاراً لمدرسةٍ أوْ هَدْماً لأُخرى أي بِروحٍ عَدائيّةٍ... وأعرِضُ لها عَرْضاً سَريعاً لا يتجاوَزُ ٱلإلمامَ بلِ ٱلإشارةَ، مُدْرِجاً إيّاها تَحْتَ عَناصرَ:

١ ـ **العنصُر الشّيعيُّ**: إذا ما تأمّلْنا ٱلمعرّيَّ جيّداً نَجِدُهُ تأثَّرَ بٱلباطنيّةِ ٱلخارجَةِ من الشّيعةِ إسميّاً، وٱلخارجَةِ عليْها حَقيقةً. ومن ٱلخَيْرِ أنْ نَمُرَّ بكُلِّيّاتٍ بارزةٍ تُعرِّفُنا بما يَنْبَغي أن نَعْرِفَ من هذا ٱلعُنْصُرِ، بين يَدَيْ أبي ٱلعَلاءِ.

(٤) سيال: شَجَرٌ شائِك.
(٥) أظْهَرتِ ٱلأبحاثُ والدِّراساتُ ٱلحديثةُ ولا سيّما ٱلاَستشراقيّةُ مِنها عَلى ما في مَعارفِ ٱلقُدماءِ عن هذه ٱلفِرَقِ، من تَشْويهٍ ونَقصٍ وعَدمِ ٱستيعابٍ، ولكنْ يَجِبُ على كُلِّ دارسٍ لقديمٍ كٱلمعرّيّ أن يأخُذَها على عِلّاتِها أيْ كَما عَرَفها عصرُه وما سبقَه.

الباطنيّة: قالَتْ: «لا نقولُ ٱللّٰهُ مَوْجودٌ ولا غَيْرُ موجودٍ، ولا عالِمٌ ولا جاهِلٌ إلى آخِرِ الصِّفاتِ، فإنّ ٱلإثْباتَ ٱلحقيقيَّ شَرِكَةٌ بينَه وبينَ سائِرِ ٱلمَوْجوداتِ في ٱلمَعْنى، وذلكَ تَشْبيهٌ. فليسَ هو مَحَلّاً للحُكْمِ بٱلإثباتِ والنّفيِ ٱلمُطْلَقِ، بل هو إلهُ ٱلمُتقابلَيْنِ وخالِقُ الضِّدَّيْنِ، ومَعْنى هو عالِمٌ أنَّه واهبُ ٱلعِلْمِ لا أنّه قامَ به ٱلعِلمْ.

«أبْدَعَ بٱلأمرِ ٱلعَقْلَ ٱلأوّلَ الّذي هو تامٌّ بٱلفِعْلِ، ثمّ بِتَوَسُّطِهِ أبدَعَ النّفسَ الثّاني ٱلّذي هو غيرُ تامٍّ، ونِسْبَةُ النّفسِ إلى ٱلعَقْلِ كَنِسبةِ النُّطفةِ إلى تَمامِ ٱلخِلْقَةِ. ولمّا ٱشتاقَتِ النَّفْسُ إلى كَمالِ ٱلعَقْلِ ٱحتاجَتْ إلى حَرَكَةٍ من النَّقصِ إلى ٱلكَمالِ، وٱحتاجَتِ ٱلحَرَكةُ إلى ٱلآلةِ فحدَثَتِ ٱلأفْلاكُ، وتَحرّكَتْ حَرَكةً دوريّةً بتدبيرِ النّفْسِ فحدَثَتِ ٱلطّبائعُ ٱلبَسيطةُ بعدَها، وتحرّكَتِ الطّبائعُ حَرَكةً ٱسْتقامَتْ بتدبيرِ النّفسِ أيضاً فتركّبَتِ ٱلمُرَكَّباتُ، من ٱلمعادنِ والنّباتِ وٱلحيوانِ وٱلإنسانِ، وٱتّصلَتِ النُّفوسُ ٱلجزئيَّةُ بٱلأبْدان.

«وكانَ نوعُ ٱلإنسانِ مُتَمَيِّزاً عن سائرِ ٱلمَوْجوداتِ بٱلٱستعدادِ ٱلخاصِّ لفَيْضِ تلكَ ٱلأنوارِ، وكانَ عَالَمُه في مُقابَلةِ ٱلعالَمِ كُلِّهِ. وفي ٱلعالَم ٱلعُلْويِّ عَقْلٌ كُلّيٌّ ونَفْسٌ كُلّيٌّ، فَوَجَبَ أن يكونَ في هذا ٱلعالَمِ عَقْلٌ هو كُلٌّ، وحُكْمُه حُكْمُ الشّخصِ ٱلكامِلِ ٱلبالغِ، ويُسمّونَهُ النّاطقَ، وهو النّبيُّ؛ ونَفْسٌ مُشَخّصَةٌ هي كُلٌّ أيضاً وحُكْمُها حُكْمُ الطِّفْلِ النّاقِصِ ٱلمُتَوَجِّهِ إلى ٱلكَمالِ أو حُكْمُ النُّطفةِ ٱلمُتَوَجِّهةِ إلى التّمامِ، ويُسمّونَهُ ٱلأساسَ، وهو ٱلوَصِيُّ.

«وكَما تحرّكَتِ ٱلأفلاكُ بتَحْريكِ النّفسِ وٱلعَقْلِ والطّبائعِ، تحرّكَتِ النُّفوسُ وٱلأشخاصُ بالشّرائعِ بتَحريكِ النّبيِّ وٱلوَصيِّ في كُلِّ زمانٍ، دائراً

على سبعةٍ سبعةٍ حتّى يَنْتَهيَ الدّوْرُ ٱلأخيرُ، ويحِلَّ زمنُ ٱلقِيامةِ، وتَرْتَفِعَ التّكاليفُ، وتَضْمَحِلَّ الشّرائع.

«وليسَتْ هذهِ ٱلحَرَكاتُ ٱلفَلَكيَّةُ والسُّنَنُ الشّرعيَّةُ، إلّا لتبلُغَ النّفسُ إلى حالِ كمالِها، وٱلكَمالُ بُلوغُها إلى درجةِ ٱلعَقْلِ وٱتّحادُها به وَوُصولُها إلى مرتبتِه فِعلاً، وحينَ يتِمُّ هذا تنحَلُّ التّراكيبُ وتتّصِلُ جُزئِيّاتُ ٱلحَقِّ بالنّفسِ ٱلكُلّيِّ، وجُزْئِيّاتُ ٱلباطِلِ بالشَّيْطانِ ٱلمُبْطِلِ... فمِنْ وقْتِ ٱلحركةِ إلى السُّكونِ هو ٱلمبْدأُ، ومن وَقْتِ السُّكونِ إلى ما لانِهايَةَ هو ٱلمَعادُ وٱلكَمالُ.

«وما من فَريضةٍ إلّا ولها وِزانٌ من ٱلعالَمِ، عَدَداً في مُقابلةِ عددٍ، وحُكْماً في مُطابقةِ حُكْمٍ. فإنّ الشّرائعَ عوالمُ روحانيّةٌ أمريّةٌ، وٱلعَوالمُ شرائعُ جِسْمانيّةٌ خُلُقيّةٌ.

«وكذلكَ التّركيباتُ في ٱلحروفِ وٱلكَلِماتِ، على وِزانِ تَرْكيباتِ الصُّوَرِ وٱلأجسامِ. ونِسْبَةُ ٱلحُروفِ ٱلمُفْرِدَةِ إلى ٱلمُرَكَّباتِ كنِسْبَةِ ٱلبسائِطِ ٱلمُجَرّدَةِ إلى ٱلمُرَكَّباتِ من ٱلأجسامِ. ولكُلِّ حَرْفٍ وِزانٌ في ٱلعالَمِ وطَبيعةٌ تَخُصُّهُ، وتأثيرٌ من حيثُ تلكَ ٱلخاصّيّةُ في النّفوس.

«فعنْ هذا صارَتِ ٱلعُلومُ ٱلمُسْتفادةُ من ٱلكلماتِ التّعليميّةِ غِذاءً للنُّفوسِ، كما صارَتِ ٱلأغذيةُ ٱلمُسْتفادةُ من الطّبائعِ غِذاءً للأبْدان...

«هذه لَمْحَةٌ من ٱلباطنيّةِ ٱلقديمةِ، وأمّا ٱلباطنيّةُ ٱلجَديدةُ فقدْ زادَتْ بٱستِحداثِ ميزانٍ لجميعِ ٱلمُتضادّاتِ، دَعَتْه قانونَ النَّفي وٱلإثباتِ. وترجِعُ في كُلِّ مَعْرفةٍ إلى إثباتِ ٱلمَعْلَمِ، كما تُقرِّرُ أنّ التَّوْحيدَ، هو ٱلوَحْديّةُ والنّبوّةُ معاً حتّى يكونَ تَوْحيداً، وأنّ النّبوّةَ هي النُّبوّةُ وٱلإمامةُ معاً حتّى

تكونَ نبوَّةً، وأنّ علامةَ ٱلحقِّ هي ٱلوَحْدَةُ وعَلاقةُ ٱلباطلِ هي ٱلكثرةُ»(٦).

الكياليّة: قالتْ: «إنّ كُلَّ مَنْ قَدَرَ ٱلآفاقَ على ٱلأنْفُسِ، وأمكَنَه أن يُبَيِّنَ مناهجَ ٱلعالَمينِ، أيْ عالَمِ ٱلآفاقِ، وهو ٱلعالمُ ٱلعُلْويُّ، وعالَمِ ٱلأنفُسِ وهو ٱلعالَمُ السُّفليُّ، كانَ هو ٱلإمامَ، وأنّ مَنْ قرَّرَ ٱلكُلَّ في ذاتِه وأمكَنَهُ أن يُبيِّنَ كُلَّ كُلّيٍّ في شَخْصِهِ ٱلمُعَيّنِ ٱلجُزْئيِّ كانَ هو ٱلقائمَ». وقالتْ أيضاً: «إنّ ٱلأنبياءَ هم قادةُ أهلِ التّقليدِ وهؤلاءِ عُميانٌ، وٱلقائِمُ قائدُ أهلِ ٱلبَصيرةِ، وهؤلاءِ هُم أُولو ٱلألباب»(٧).

وهُنا مَقالاتٌ أُخرى مثلُ ٱلقولِ بأنَّ الدّينَ طاعةُ الرَّجُلِ وحُمِلَتِ ٱلأركانُ، من الصَّلاةِ والصِّيامِ... إلخ، على رجالٍ(٨)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنَّ ٱلإمامةَ نورٌ يتناسَخُ من شَخْصٍ إلى آخرَ، وذلك النّورُ في شَخْصٍ يَكونُ نُبوَّةً وفي سِواهُ إمامةً؛ وأنّ ٱللّهَ ظاهِرٌ بشَخْصٍ، وٱلحُلولَ يكونُ بجُزْءٍ مِثْلَ إشراقِ الشَّمسِ من كُوَّةٍ، ويكونُ بكُلٍّ مِثْلَ ظُهورِ مَلَكٍ بشَخْصٍ(٩)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنَّ ٱللّهَ صورةٌ وجسمٌ، ذو أعضاءٍ على حُروفِ ٱلهِجاءِ(١٠)... ومثلُ ٱلقولِ بأنّ الرِّسالَةَ لا تَنْقَطِعُ، وأنّ ٱلجَنّةَ رَجُلٌ أُمِرْنا بمُوالاتِه وهو إمامُ ٱلوَقْتِ، والنّارَ رجلٌ أُمِرْنا بمُعاداتِه وهو خَصْمُ ٱلإمامِ(١١)... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنّ ٱلإلهيّةَ نورٌ في النّبوّةِ، والنّبوّةَ نورٌ في ٱلإمامةِ، ولا يَخْلو ٱلعالَمُ من هذه ٱلآثارِ وٱلأنوارِ، وأنّ كُلَّ مؤمنٍ يُوحى إليه، وأنَّ ٱلإنسانَ إذا بَلَغَ ٱلكَمالَ لا

(٦) الشّهرستانيّ، ٢٦/٢ في بَحْثِ ٱلباطنيّة.
(٧) **المصدر نفسه،** ١٧/٢ في بَحْثِ ٱلكياليّة.
(٨) **المصدر نفسه،** ١٥٢/١ في بَحْثِ ٱلكيسانيّة.
(٩) **المصدر نفسه،** في بَحْثِ ٱلكامليّة.
(١٠) **المصدر نفسه،** ١٤/٢ في بَحْثِ ٱلمَغيريّة.
(١١) **المصدر نفسه،** ١٥/٢ في بَحْثِ ٱلمَنصوريّة.

يُقالُ إنّه ماتَ وإنْ هَمَدَ جسَدُه وتحلّلَ، بل يُقالُ رُفِعَ إلى ٱلمَلَكوتِ(١٢)... ومِثْلُ القولِ بأنَّ ٱللّهَ نورٌ أسودُ(١٣)... ومثلُ القولِ بدورِ ٱلأئمّةِ الظّاهرينَ ودورِ ٱلأئمّةِ ٱلمَسْتورينَ، وٱلأئمّةُ تَدورُ أحكامُهُمْ على سَبْعةٍ كأيّامِ ٱلأُسبوعِ والسّماواتِ وٱلكَواكبِ، والنُّقباءُ تَدورُ أحكامُهم على ٱثنيْ عَشَر(١٤).

٢ ـ **العنصرُ ٱلآريّ الشرقيّ**(١٥): نلمِسُ عندَه أثراً لهذا ٱلعُنصرِ أيضاً وَيْنبغي لنا أن نُلِمَّ به إلْماماً سَريعاً وفاءً بٱلبحث.

وهذا ٱلعُنصرُ يقومُ على مَقالاتٍ شتّى، وكلُّها تُحاوِلُ شرحَ قضيَّتَيْنِ:

الأولى: بيانُ سَبَبِ ٱمتزاجِ النّورِ والظُّلمةِ؛

والثّانيةُ: بيانُ كيفَ يَتِمُّ خَلاصُ النّورِ من الظُّلمةِ، على أنّها أجْمَعَتْ على أنّ ٱلآمتزاجَ هو ٱلمبدأُ وأنّ ٱلخَلاصَ هو ٱلمَعادُ.

ويندَرِجُ تحتَ هذا ٱلعُنصُرِ مَذاهبُ ونِحَلٌ كثيرةٌ، مثلُ ٱلقولِ بأصْلَيْنِ ٱثنينِ قَديمَيْنِ «يزدن: خَيْر» و«أهرمن: شَرّ»(١٦)... ومِثْلُ ٱلقولِ: بأنّ «يزدن» أزليٌّ وأنّ «أهرمن» مُحْدَثٌ، وذلك لأنَّ ٱلأوّلَ فَكَّرَ في نفسِه: لو كانَ لي مُنازِعٌ كيفَ يَكونُ؟ وهذه فِكْرَةٌ رَديئةٌ بالنّسبةِ إلى النّورِ، فحَدَثَ الظَّلامُ وتَنازَعا(١٧)... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ ٱلأصلَيْنِ هما مبدأُ مَوْجوداتِ ٱلعالَمِ، وحصَلَتِ التّراكيبُ مِن ٱمتِزاجِهِما وحدَثَتِ الصُّوَرُ من التّراكيبِ ٱلمُخْتَلِفَةِ، وأنّ ٱلباريَ خالقُ النّورِ والظّلمةِ، وأنّ مِن ضَرورةِ ٱلوُجودِ التَّضادَّ كالظِّلِّ

(١٢) **المصدر نفسه**، ١٦/٢ في بَحْثِ ٱلخَطابيّة.
(١٣) **المصدر نفسه** ٢٠/٢ في بَحْثِ ٱلهشاميّة.
(١٤) **المصدر نفسه** ٢٤/٢ في بَحْثِ ٱلإسماعيليّة.
(١٥) عبرت بالآري ليعمّ ٱلهنديّ وٱلبهلويّ وما إليهما.
(١٦) الشهرستاني، ٦٥/٢ في بَحْثِ الثّنويّة.
(١٧) **المصدر نفسه**، ٥٩/٢ في بَحْثِ ٱلكيومرثيّة.

والشّخصِ[١٨]... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ أعمالَ ٱلبِرّ والرّياضاتِ الرّوحيّةَ تُعينُ على تَخْليصِ ٱلاَمتزاجِ، وأنّ ٱلمِزاجَ ٱلقَديمَ هو ٱمتزاجُ ٱلحَرارةِ وٱلبُرودةِ والرُّطوبةِ وٱليُبوسَةِ، وٱلمِزاجَ ٱلجديدَ هو ٱمتزاجُ ٱلخَيْرِ والشّرّ[١٩]... ومثلُ ٱلقَوْلِ بأنّ النّورَ يَفْعَلُ بٱلقَصْدِ وٱلاَختيارِ، والظُّلمةَ تَفْعَلُ خَبْطَ عَشْواءَ وٱتّفاقاً، وأنّ ٱلإلهَ بينَ يَدَيْهِ أربعُ قُوىً، وهذه تُديرُ ٱلعالَمَ بسبعةٍ، وهذه السّبعةُ تَدورُ في ٱثْنَيْ عَشَرَ. وكُلُّ إنسانٍ ٱجتمعَتْ له هذه ٱلأربعةُ والسَّبعةُ والاَثنتا عَشْرَةَ صارَ رَبّانياً في ٱلعالَمِ السُّفليّ، وأنّ ٱلإلهَ في ٱلعالمِ ٱلأعْلى يُدَبِّرُ بٱلحرفِ كُلَّ شيءٍ[٢٠]... ومِثْلُ ٱلقَوْلِ بأنّ النّورَ داخَلَ الظُّلمةَ فَنادى بتلْيينِها ليتخَلَّصَ منها، كٱلمِنشارِ صَفْحَتُه ناعمةٌ وأسنانُهُ خشنةٌ ولا يُمْكِنُه الدُّخولُ إلّا بتلكَ ٱلخُشونةِ، ولا يُتَصَوَّرُ ٱلوُصولُ إلى كَمالِ ٱلوُجودِ إلّا بتلْيينٍ وخُشونةٍ[٢١]... ومثلُ ٱلقولِ بأنّ هُناكَ أصْلاً ثالثاً إلى جانِبِ ٱلأصلَيْنِ، أي النّورِ والظُّلمةِ، يُدْعَى ٱلمُعَدِّلَ ٱلجامِعَ وهو ٱلإنسانُ، وأنَّ كلَّ ما فيهِ مَسَرَّةُ ٱلبَدَنِ حرامٌ، وكذلك كُلُّ إيلامٍ حَرامٌ[٢٢]... ومِثْلُ ٱلقولِ بأنّ ٱلإنسانَ إمّا في فِعْلٍ أو جَزاءٍ، وٱلجنّةُ والنّارُ في هذهِ ٱلأبدانِ، وأعْلى عِلّيّينَ درجةُ النُّبوَّةِ، وأسفلُ السّافلينَ دَرَكَةُ ٱلحَيَّةِ[٢٣].

ونحنُ لا نَرْتابُ في أنّ أهمَّ ما يَعْنينا من هذا ٱلعُنْصُرِ ٱلآرِيِّ الشَّرْقيِّ هو مَقالُ الصِّياميّةِ، هذه ٱلفرقةِ ٱلّتي تَجِدُ ٱلخَلاصَ في ٱلإمساكِ عن طيِّباتِ الرِّزقِ، والتَّجرُّدِ وٱلاَنقباضِ عن النِّكاحِ والذَّبائحِ.

(١٨) **المصدر نفسه**، ٦٢/٢ في بَحْثِ الزّرادشتيّة.
(١٩) **المصدر نفسه**، ٦٥/٢.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ٦٩/٢ في بَحْثِ ٱلمَزدكيّة.
(٢١) **المصدر نفسه**، ٧٠/٢ في بَحْثِ الدّيصانيّة.
(٢٢) **المصدر نفسه**، ٧١/٢ في بَحْثِ المَرْقونيّة.
(٢٣) **المصدر نفسه** ٧٣/٢ في بَحْثِ التّناسُخيّة.

٣ ـ **العنصرُ ٱلإغريقيّ**: نعتقِدُ بأنّ هذا ٱلعُنصرَ كانَ ضَئيلَ ٱلأثَرِ في ٱلقِسْمِ ٱلإلهيِّ عندَه، إن لم نَقُلْ كانَ مَعْدوماً أصلاً. بل رُبّما عَرَضَ له بالتَّوْهينِ في حَمَلاتٍ حادّةٍ، كما لو كانَ قَليلَ الثِّقةِ بهذا ٱلعقلِ للتَّعبيرِ عمّا هو إلهيٌّ، إلّا مُشَوَّهاً مَدْخولاً بما تَخالَطَهُ من عقليّةٍ طبيعيّةٍ خالصةٍ...

ولسنا نَعني بإثباتِ هذه ٱلعناصرِ تأثُّرَها وأثرَها، وإنّما لِنَرى كيفَ تأثَّر بها في أشكالِ ٱستحالةٍ فَذّةٍ. وٱسمَعْهُ كيفَ يقولُ:

كأنَّ نُفوسَ النّاسِ، وٱللّهُ شاهِدٌ
نُفوسُ فَراشٍ، ما لَهُنّ حُلومُ
وقالوا: فَقيهٌ، وٱلفَقيهُ مُمَوِّهٌ
وحِلْفُ جِدالٍ، وٱلكَلامُ كُلومُ
أَتَوكَ بأَصْنافِ ٱلمُحالِ، وإنّما
لَهُم غَرَضٌ في أنْ يُقالَ: عَلومُ (ل٤/١٤٦)

منزلة سورة «عبس» في منهجه

وٱلآنَ نَنْقُلُ إلى مُلاحَظَةٍ مهمَّةٍ وأخيرةٍ في التّمهيداتِ، هي سورةُ عَبَسَ ٱلواردةُ في ٱلقُرآنِ، وٱلإشارةِ إلى عَلاقَتِها بٱلإمامِ ٱلمكتومِ، وعَلاقَتِهما جَميعاً بٱلمعرّي:

«عَبَسَ وَتَوَلّى، أَنْ جاءَهُ ٱلأعْمى، وما يُدْريكَ لَعَلّه يَزَّكّى؟... أو يَذَّكَّرُ فتَنْفَعَهُ الذِّكْرى. أَمّا مَنِ ٱسْتَغْنى، فأَنْتَ له تَصَدّى، وما عَلَيْكَ ألّا يَزّكّى؟!

وأَمّا مَنْ جاءَكَ يَسعى، وهو يَخْشى، فأنْتَ عنهُ تَلَهّى؟

كَلّا، إنَّها تَذكِرَةٌ، فمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ، في صُحُفٍ مُكرَّمةٍ، مَرْفوعَةٍ مُطهَّرةٍ، بأيْدي سَفَرَةٍ، كِرامٍ بَرَرَةٍ.

قُتِلَ ٱلإنسانُ ما أكفَرَهُ! من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ، من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أماتَهُ فأقْبَرَهُ، ثُمَّ إذا شاء أنْشَرَهُ، كَلّا لَمّا يَقْضِ ما أمَرَهُ.

فَلْيَنْظُرِ ٱلإنسانُ إلى طَعامِهِ، أنّا صبَبْنا ٱلماءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنا ٱلأرضَ شَقّاً، فأنْبتْنا فيها حَبّاً، وعِنَباً وقَضْباً، وزَيْتوناً ونَخْلاً، وحَدائِقَ غُلْباً، وفاكِهةً وأبّاً، مَتاعاً لكمْ ولأنْعامِكُم.

فإذا جاءَتِ الصّاخَّةُ، يومَ يَفِرُّ ٱلمَرْءُ من أخيهِ، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصاحِبَتِه وبَنيهِ، لِكُلِّ آمْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغنيهِ.

وُجوهٌ يَومَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ،

وَوُجوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ، أولئِكَ هُمُ ٱلكَفَرَةُ ٱلفَجَرَةُ».

هذه السُّورةُ نَزَلَتْ في أعْمى من قُريشٍ، جاءَ إلى النَّبيِّ بقلْبٍ خاشِعٍ يَسْتَهديهِ ويَطْلُبُ التَّقوى، وكانَ النّبيُّ خالِياً برؤساءِ قُريشٍ يُحاوِرُهُم ويُحاوِلُهُم ٱلإيمانَ، مُهتَمّاً بنُصْرتِهِم في ظَرفِه ٱلاَضطهاديِّ ٱلحازِّ، فأعرَضَ عنْهُ إليهم.

وكانَ النّبيُّ بَعْدَها لا يفتأُ مُكْرِماً له في حَدْبٍ وتَقديم، وترجَمَتُه كما جاءَتْ بها الرِّواياتُ: هو عبدُ ٱللّهِ بنُ زائدةَ ٱلمعروفُ بآبنِ أمِّ مكتومٍ القُرَشيِّ. وفي رِوايةٍ: كانَ آسمُهُ ٱلحُصَيْنَ فسمّاهُ النّبيُّ عبدَ اللّهِ، وهو آبنُ خالِ خَديجةَ زَوْجِ الرّسولِ. أسلَمَ قديماً بمكّةَ وكانَ من ٱلمهاجرينَ ٱلأوّلينَ. وكانَ النّبيُّ يستخْلِفُه على ٱلمدينةِ في عامِ غزَواتِه، يُصلّي بالنّاس، وقَدِ آستخلَفه ثَلاثَ عَشْرَةَ مرّةً ونَزَلَتْ فيه سورةُ عَبَسَ، وآيةُ «لا

يَسْتَوي القاعِدونَ مِنَ المُؤمنينَ غَيْرُ أولي الضَّرَرِ، وٱلمجاهِدونَ في سَبيلِ ٱللّهِ بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِم» (النّساء ٤: ٩٤).

نحنُ نَعْرِفُ عندَ ٱلباطنيّةِ نظريّةَ ٱلإمامِ ٱلمَكْتوم، ونَجِدُ في الرِّوايةِ ٱلمُثْبَتَةِ «ٱبْنَ أمِّ مكتومٍ» ونَرى لعبدِ ٱللّهِ هذا، دالّةً خاصّةً في ٱلقُرآنِ وعندَ النَّبيِّ، حتّى ليَكِلُ إليه أمرَ النّاسِ في دينِهم ودُنْياهُم، فهو يَؤُمُّهم بالصَّلاةِ ويَقومُ بأعباءِ إمْرَتِهْم في شُؤونِ ٱلحياةِ ومَذاهِبِها.

ونظريّةُ ٱلإمامِ ٱلمكتومِ تَقولُ إنّ ٱلعقلَ ٱلكلِّيَّ والرّوحَ ٱلكُلِّيَّ يُشرِقانِ في كلِّ دَوْرٍ على بَشَرِيَّيْنِ، ويَكونُ مظهرُ إشراقِ ٱلأوّلِ هو ٱلإمامَ ٱلمَكْتومَ، ومَظْهَرُ إشراقِ الثّاني هو ٱلإمامَ الظّاهِرَ.

ونحنُ لا نَسْتَبْعِدُ أنْ يَكونَ تَصَوُّرُ ٱلمعرّيِّ ٱنْعَقَدَ على أنّ ٱبنَ أمِّ مَكتومٍ كانَ مَظْهَراً لإشراقِ ٱلعَقْلِ ٱلكُلِّيِّ «كإمامٍ مُسْتَودَعٍ لا كإمامٍ مُسْتَقرٍّ». وإذا تأمّلْنا سورةَ عَبَسَ جيّداً، نرى فيها تَقْييماً إلى أبْعَدِ حدٍّ لنَقاءِ الطّبيعةِ ٱلخالِصةِ من الزُّهوماتِ ٱلبشريَّةِ، وإرذالاً إلى أبْعَدِ حدٍّ للطّبيعةِ ٱلمُسْتَقْوِيَةِ بمَظاهِرِ ضَراوَتِها، وٱلمُسْتَغْوِيَةِ بألْوانِ شِرَّتِها، ويُسمّي ٱلبغْيُ أشخاصَها عُظَماءَ وكُبَراء وسادَةً. ونَرى فيها حُكْماً صارِماً على الطّبيعةِ ٱلبشريّةِ «قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ». ونَرى بياناً للطُّعومِ، وكلُّها نباتيَّةٌ، خُصوصاً إلحاحَهُ بتعبيرَيْ «حَبّاً، أَبّاً» وهي بمَثابةِ «البَلَسِ، البُلْسُنِ» ونَرى فيها ٱعْتِزالَ الإنسانِ إلى درجةِ ٱلفرارِ... وهي هي ٱلخُطَّةُ الّتي ٱنتهجَها ٱلمعرّيُّ، مِمّا يحمِلُنا على تَقْديرِ أنّ هذهِ السُّورَةَ تَدُلّ وتُشيرُ إلى مناهجِ ٱلإمامِ ٱلمكتومِ:

أمـا تَـرانـي فـي الـزَّمـانِ مُـحـتَـبَـسْ
أعْـمـارُنـا تَـعْـجِـزُ عَـمّـا يُـقْـتَـبَـسْ

تَضيقُ أنْ يُكْشَفَ فيها ما ٱلْتَبَسْ

وَهْيَ قَصيراتٌ كآياتِ عَبَسْ

لو قَبِلَ النُّصْحَ لِساني ما نَبَسْ (ل٦٩/٣)

فإذا كانَ سائرُ القُرآنِ لبيانِ مناهِجِ ٱلمَرْضى، فإنَّ هذه السّورَةَ لبيانِ مناهِجِ ٱلأصِحّاءِ ٱلمُتَوَحِّدينَ، وإنّ سائِرَ ٱلقرآنِ ظاهرٌ، وباطنَه هذه السُّورةُ...

ويَحْسُنُ بنا أن نَستعيدَ إلى الذِّهنِ ما سَبَق لنا تَقْريرُه في ٱلفَصْلِ السّابقِ، من ٱلعَلاقةِ ٱلحَميمةِ بينَ ٱلمُتَنبّي وٱلمعرّيّ ٱلماثِلَةِ في ٱلنّاقةِ وفَصيلِها، لنُقرِّرَ هُنا أنّ ٱلمُتنبّي كانَ هو ٱلمَظْهرَ ٱلأخيرَ لإشراقِ الرّوح ٱلكلّيِّ، أيِ ٱلإمامِ ٱلظّاهِرِ، وٱلمعرّيّ كانَ هو ٱلمظهرَ ٱلأخيرَ لإشراقِ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، أيِ ٱلإمامِ ٱلمَكتومِ.

وفي النِّحْلَةِ ٱلكَياليّةِ أنّ ٱسمَ «أحمد» يَجْمَعُ ٱلأربعَةَ ٱلأماكِنِ ٱلعُلويّةِ (أي ٱلآفاقيّةِ)، وٱلأربعةَ ٱلأماكِنِ السُّفْليّةِ (أيِ ٱلأنْفُسيّةِ). وٱسمُ كلٍّ منهُما أحمدُ، وتَظْهَرُ نِسبةُ ٱلفَرْقِ بينَهما في نسبةِ ٱلفَرْقِ بين ٱلكُنْيَتَيْن.

فٱلمُتَنبّي هو أبو الطَّيّبِ، وٱلمعرّيُّ أبو ٱلعَلاءِ،[٢٤] فالثّاني في كُنْيَتِهِ آفاقيٌّ تَجْريديٌّ، وٱلأوّلُ أنْفُسِيٌّ طابَ وطَهُرَ، ولكنَّ علائِقَهَ ظَلَّتْ وَشيجةً في الزّمانِ وٱلمكانِ...

(٢٤) في هذا ما يُعلّلُ سرَّ غضبتِه عَلى مَن يُحرّفُ ٱسمه ويُصحّفُه في رِسالتِه إلى أبي ٱلحُسينِ التّكتيّ ٱلبَصريّ (أمّا السّمة فَغَيرها، وأمّا ٱلكنية فَقَصَرها، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعونَ؟ ليسَ هو من ضَعْفِ الشّاعِرِ ولا وَهَنِ ٱلقائِلِ، ولكنّه مِن سوءِ ٱلحظّ لمَنْ خوطِبَ، وٱلاتّفاقُ الرّديءُ لِمَنْ سَمّى وذَكَر ولا يَقُلْ سيّدي الشّيخُ ـ أدام ٱللّه عزّه ـ قد قَصَّرَتِ الشعراء، فإنّه لو كانَ ٱستعملَ ضَرورةً غيرَ تلكَ لقُبِلَتْ حُجّتُه، ولكنّه ألغى الضَّروراتِ كُلَّها ورَفَضَ فلم يستعمِلْها، إلخ)، **رسائل أبي العلاء**، الرّسالةُ السّابعةُ والعِشرون ص ٦٥، ط مرغليوث.

وأنا هنا، أُقَيِّدُ خاطرةً أجِدُها ضَروريّةً، بل أشَدَّ ما تَكونُ ضَرورةً لفهمِ أبي ٱلعَلاءِ، وهي ٱلعَوْدةُ إلى دَرْسِ ٱلمُتَنبّي لا على ذلكَ النَّحوِ السّاذَجِ ٱلّذي تعوَّدْناهُ من بحثِهِ شاعِراً، بلْ على نحوِ أنّه زَعيمُ مدرسةٍ مَذْهبيّةٍ جَديدةٍ يَسوغُ أن نسمِّيَها ٱلمتنبِّئيّةَ ٱلّتي كانَ ٱلمعرّيُّ أكبرَ مُجتهِديها.

حديث الفلسفة

لنْ نتّسِعَ في هذا ٱلكِتابِ لمَقالِ كُلِّ ما نَودُّ من أمرِها، وإنْ كُنّا لا نُغْفِلها إطلاقاً، ليَكونَ ٱلكِتابُ دَليلَ دِراسةٍ أو دِراساتٍ، تَشتَوي وذلكَ النّشاطَ ٱلعلائيَّ ٱلعَظيمَ، نَضَعُها نحنُ أو يَضَعُها ٱلآخَرونَ.

نظريّةُ المعرفةِ عند دارسيه المُحدَثين

«الأصولُ ٱلمُعتَمَدَةُ عندَه يَسْهُلُ تَعْدادُها، ولكنْ قلّما تجِدُ عِنْدَه أصْلاً خَلا من التّناقُضِ والاضطرابِ. فها هو يَقولُ في **الفُصول والغايات**: يُدرَكُ ٱلعِلمُ بثلاثةِ أشْياءَ: ٱلقياسِ الثّابتِ، وٱلعَيانِ ٱلمُدرِكِ، وٱلخَبَرِ ٱلمُتَواتِرِ (ص٤٦٨).

«وحينَ نُحاوِلُ دَرْسَها عندَه، نجِدُهُ يَدْعو إلى ٱلائتمامِ بٱلعقلِ ٱلخالِصِ وٱلاهتداءِ بهَدْيِهِ، وإلى أنّه ٱلمُخلِّصُ من ٱلحَيْرَةِ والضَّلالِ، وهو هو سَبيلُ ٱلمعرفة:

فَكِّروا في ٱلأُمورِ يُكْشَفْ لكُم
بَعْضُ ٱلّذي تَجْهَلونَ بالتّفكيرِ (ل٢/٢٩٨)

ولـــمْ يَـتَناولْ دُرَّةَ آلــحَــقِّ غــائــصٌ
مـن الـنّـاسِ، إلّا بـالـرَّوِيَّـةِ وآلـفِـكْـرِ (ل٢/٢١٦)

«وأسرَفَ في تَمجيدِ آلعَقْلِ حَتّى جَعَلَه خَيْرَ مُشيرٍ، وأعلَنَ إمامَتَه:
فـشَـاوِرِ آلـعَـقْـلَ، وآتْـرُكْ غـيـرَه هَـدَراً
فآلعقلُ خيرُ مُشيرٍ ضـمَّـهُ النّادي (ل٢/٧٥)

«بَلْ بالَغَ فخاصَمَ السَّفْسَطَةَ في إنكارِ آلحقائِقِ قالَ:
وقــالَ أنــاسٌ: مــا لِأمْــرٍ حَــقــيــقــةٌ
فَهَلْ أثْبتوا أنْ لا شقَاءَ ولا نُعْمى (ل٤/١٧٣)

«وهو في إسرافِهِ في تَمجيدِ آلعقلِ يُنكِرُ آلأخْبارَ مَهْما بلَغَ من تأكيدِها، قالَ:
فَـلا تَـقْـبَـلَـنْ مـا يُـخْـبِـرونَـكَ ضِـلَّـةً
إذا لـمْ يُـؤَيِّـدْ مـا أَتَـوْكَ بـهِ، آلـعـقـلُ (ل٤/٨)

ولكنْ لا يَلْبَثُ أنْ يُداخِلَهُ الشَّكُّ في آلعَقْلِ نفسِه، فَيَعْتَرِفُ بقُصورِه، قالَ:
وقــدْ أعْــمَــلَ الــنّــاسُ أفْــكــارَهــم
فَـلَـمْ يُـغْـنِـهِـمْ طُـولُ إعْـمـالِـهـا (ل٤/١١٩)

«ويَردّونَ هذا كُلَّه عندَه إلى تردُّدِه وتخبُّطِه، ومَصْدَرُ هذا التَّخبُّطِ أنّ آلعَقْلَ يَعْجِزُ عن فَهْمِ ما يَحْفِلُ به آلكَوْنُ من أسْرارٍ. ماذا عَرَفَ آلعَقْلُ من أُمورِ آلخَيْرِ والشَّرِّ وآلجَبْرِ والآختيارِ؟ كما بانَ عَجْزُه عن إدراكِ آليَقينِ في مُشكِلاتِ آلحَياةِ. وإنّه لأعْجَزُ حينَ يَتَجاوَزُ آلأمرُ هذه آلمَشاهِدَ آلّتي نَراها بأعيُنِنا إلى آلأمورِ آلغَيْبيّةِ، وما يتّصِلُ بمَصيرِ آلكائِنِ، قالَ:

أُمـورٌ يَـلْـتَـبِـسْـنَ عَـلـى آلـبَـرايـا
كـأنّ آلـعَـقْـلَ مِـنْـهـا فـي عِـقـالِ (ل٤/٨٩)

*

وَجَـدْتُ آلـغـيـبَ، تَجْـهَـلُـهُ الـبَـرايـا
فما «شِقٌّ»؟، هُدِيتَ، وما «سَطيحُ»؟ (ل١/٢٩٨)

«إنّ الرّجُلَ، كما رَأَيْتَ في مسألةِ آلمعرفةِ، لم يَخْضَعْ في فَهمِه للحياةِ لأصلٍ ثابتٍ من أُصولِ آلمعرفةِ، فهو لا يثبُتُ على إيمانِه بآلعقلِ ولا يطمئنُّ إلى عَجْزِ آلعقلِ وقُصورِه.

«وإنّـما يَقِفُ مُتَرَدِّداً بحَيْثُ لا تَستطيعُ أن تَضُمَّهُ إلى فريقٍ من آلمُفَكِّرينَ، فهو لَيْسَ عقليّاً لأنّه لم يثبُتْ إيمانُه بآلعقلِ، وليسَ هو سوفسطائيّاً لأنَّه لم يَطْمَئِنَّ إلى عَجْزِ آلعَقْلِ، وليسَ هو شَكّاكاً لاأدْرِيّاً، لأنّه تَيقَّنَ حيناً وآتَّهَمَ بآلعَقْلِ حيناً»[١].

المعرفة: نظريتها وطبيعتها عندنا

نبدَأُ قبلَ أيِّ شيءٍ آخَرَ من فلسفتِه ببَحْثِ آلمَعْرفةِ عندَه في نظريَّتِها وطَبيعَتِها ومنهَجِها، وهذا طبيعيٌّ جِدّاً. فقبلَ الدُّخولِ إليه يلزَمُنا أن نعلَمَ كيفَ يُفكِّرُ ويعرِفُ، وكيفَ لنا أن نُفكِّرَ ونَعْرِفَ معه، وما قيمةُ آلمعرفةِ، وما أُصولُها.

ونظريّةُ آلمَعْرفةِ لها من آلأهميّةِ أنّها كانَتْ دائماً، وتَكونُ أبداً، أساساً أوّليّاً لتوالُدِ آلمَدارسِ آلفلسفيّةِ آلمُخْتَلِفةِ من قُربٍ أو بُعدٍ، وأساساً أوّليّاً

(١) وهي مَجموعةُ آستنتاجاتٍ ساذَجةٍ، وإنْ أجْمَعَ عليْها آلمُحْدَثونَ من الدّارسينَ، وهو أعمقُ جِدّاً مِمّا وَهِموا.

أيضاً لنُشوءِ ٱلفِرَقِ الدّينيّةِ، والنِّحَلِ ٱلمُختلفةِ إلى حدِّ التّبايُنِ أحياناً في ٱلمِلَّةِ ٱلواحدةِ. وليسَ يتّسِعُ ٱلمجالُ بنا للتحدُّثِ عن شَيءٍ من نظريّاتِها وإنْ كانَ خَيْراً، قصْداً لِلاتصالِ بأبي ٱلعَلاءِ قُدُماً ومن أخْصَرِ طَريقٍ.

وَيْنبَغي ٱلآنَ أن نَدورَ مع ٱلمعرّيّ في لُزوميّاتِه دَورةً قَصيرةً لنَرى حَقيقةَ النّظريّةِ عندَه، قال:

هلْ صَحَّ قولٌ مِنَ ٱلحاكي، فنَقْبَلَهُ
أمْ كُلُّ ذاكَ أباطيلٌ وأسْمارُ؟
أمّا ٱلعُقولُ، فآلَتْ أنَّهُ كَذِبٌ
وٱلعقلُ غَرْسٌ، له بالصِّدْقِ إثْمارُ (ل٢/١٣١)

*

إذا تَفَكَّرْتَ فِكْراً لا يُمازِجُهْ
فَسادُ عَقْلٍ صَحيحٍ، هانَ ما صَعُبا (ل١/١٢٨)

*

لَقَدْ صَدِئَتْ أفْهامُ قَوْمٍ، فَهَلْ لها
صِقالٌ، ويَحْتاجُ ٱلحُسامُ إلى الصَّقْلِ؟
وكَمْ غَرّتِ الدُّنيا بَنيها وَساءَني
مَعَ النّاسِ، مَيْنٌ في ٱلأحاديثِ والنَّقْلِ
سَأتْبَعُ مَنْ يَدْعو إلى ٱلخَيْرِ جاهِداً
وأرْحَلُ عنْها، ما إمامي سِوى عَقْلي (ل٤/٦٧)

*

نُكَذِّبُ ٱلعَقْلَ في تَصْديقِ كاذِبِهِمْ
وٱلعَقْلُ أوْلى بإكْرامٍ وتَصْديقِ (ل٣/٢٢٠)

هِـيَ غُـرْبَـتـانِ: فَـغُـربَـةٌ مِـنْ عـاقِـلٍ
ثُـمَّ ٱغْـتِـرابٌ مِـنْ مُـحـكَّـمِ عَـقْـلِ (ل٤/١٠٢)

*

لـم تَـلْـقَ إلّا جـاهِـلاً مُـتَـعـاقِـلاً،
مُـتَـجَـمِّـلاً مِـنْـهُـمْ بـغَـيْـرِ جَـمـالِ
مِـثْـلَ ٱلـبَـهـائـمِ أُبْـهِـمَـتْ عَـنْ رُشْـدِهـا
إلّا ٱحْـتِـمـالَ ثَـقـائِـلِ ٱلأحْـمـالِ (ل٤/١٠٨)

*

كَـذَبَ الـظَّـنُّ لا إمـامَ سِـوى ٱلـ
ـعَقْلِ مُشيراً في صُبْحِهِ وٱلـمساءِ
فـإذا مـا أَطَـعْـتَـهُ جَـلَـبَ ٱلـ
ـرحـمـةَ عِـنْـدَ ٱلـمَـسـيـرِ وٱلإرسـاءِ
فـٱنْـفَـرِدْ، مـا ٱسـتـطَـعْـتَ، فـٱلـقـائِـلُ الـ
ـصادقُ يُضْحي ثِقْلاً على ٱلجُلَساءِ (ل١/٧٤أ)

*

هِـيَ ٱلأفْـهـامُ قَـدْ صَـدِئَـتْ وكَـلَّـتْ
ولَـمْ يَـظْـفَـرْ لـهـا أَحَـدٌ بـصَـقْـلِ
أَتَـعْـقِـلُ سـاعَـةً ـ فَـتَـرومَ عَـقْـلاً
لعَنْسِكَ ـ أمْ خُلِقْتَ بغَيْرِ عَقْلِ (ل٤/٩٥)

*

قـالَ الـمُـنـجِّـمُ والـطَّـبـيـبُ كِـلاهُـمـا:
لا تُـحْشَرُ الأجْسادُ، قُلْتُ: إلَيْكُما

إنْ صحّ قولُكُما، فَلَسْتُ بِخاسِرٍ،
أو صحّ قَوْلي، فالخسارُ عَلَيْكُما (ل٤/١٨٧)

هذه نُتَفٌ، وهي قَليلٌ مِن كَثيرٍ يُشبِهُها ويأخُذُ نَسَقَها في **اللّزوميّات**، ولْنُطالِعْ من خِلالِها رأيَهُ في المعرفةِ وطَبيعةِ العَقْلِ، ولا سيّما حُسْنُ تصرُّفِهِ فيما أبْدَعَ من بُرهانِ الرِّهانِ.

يُقرّرُ المعرّيُّ في قولِهِ: «هل صَحَّ قَوْلُ... إلخ» بأنّ العقلَ غرْسٌ، وحَرِيٌّ أنْ نأخُذَ كلمةَ «غرْس» بفضلِ تأمُّلٍ دَقيقٍ، لنُرافِقَ المعرّيَّ على بَصيرةٍ... نعرِفُ الغرْسَ بأنّه يَعْني النّبتةَ الّتي تُدَسُّ أو الفَسيلُ(٢) أو النّواةُ، وعلى أيِّها حُمِلَتْ فهيَ تَلْتقي على إفادَةٍ واحِدةٍ. فالنّبتةُ تتفتّحُ فيها كُلُّ الخصائِصِ، والفَسيلُ أيضاً كذلكَ، على أنّه يَزيدُ بمعنى الانفِراعِ من أصْلٍ، والنّواةُ تَكْمُنُ فيها الخصائِصُ الأولى. وإنْ كنتُ أميلُ إلى تَرْجيحِ أنّه يَعْني الفَسيلَ، من جِهةِ كونِهِ أشدَّ اتّصالاً بالأساسِ الفَلسفيِّ عندَ المعرّيّ.

ومن هذا نَنْتَهي إلى أنّ العقلَ عندَه مُزوَّدٌ بخَصائِصَ ثابتةٍ، أيْ أوّليّاتٍ، وهي تَنْمو بأشكالٍ مُختلفةٍ من طَبيعةِ ما يَسْتَقي الغرسُ به، فيجيءُ ضاوِياً مُلتوِياً حيناً، وبالغاً زَكيّاً حيناً.

ويؤكّدُ هذا في قولِه «إذا تَفَكَّرْتَ ... إلخ»، ويَنْبغي أن نتأمّلَ تَعبيرَه الرّائعَ «فساد عقل صحيح»، هذا التّعبيرَ الّذي يُقرِّرُ بأنّ التّصَعُّبَ الّذي نَعْيا به ونَجْهَدُ بحلِّه ليسَ هو في الشّيءِ وليسَ في العَقْلِ نفسِه ومَلَكَةِ الإدراكِ، وإنّما ينبَعُ مِمّا يُخالِطُ العقلَ من الأباطيلِ، وتُسَمّى أفكاراً

(٢) الفَسيل: العِذْقُ الّذي يَتَفَرَّعُ من جُذورِ بعضِ الأشجارِ كالنّخيلِ والمَوْزِ، وبالتّجريدِ التّصعيديّ يُفيدُ رمزيّاً: المنبثقُ من كُلّيٍّ أي من أصلٍ، ولذا قُلْتُ من بعدُ، هو الأشدّ اتّصالاً بالأساس العَلائيّ.

وفلسفاتٍ ومُسلَّماتٍ أحياناً، وهي في حَقيقتِها فسادٌ فقطْ لا يزالُ بآلعقلِ حتّى يَحْتَقِنَ مُتَوَرِّماً وينغِلَ نازّاً بآلمِدَّة والصَّديد:

وقُلْتَ: الشَّمْسُ بآلبَيْداءِ تِبْرٌ،
ومِثْلُكَ مَنْ تَخَيَّلَ، ثُمَّ خالا (س١/٢٠)

وفي هذا البيتِ يوضِحُ أنّ أكثرَ ما يتخيّلُهُ الناسُ تخيُّلاً، لا يَلْبَثونَ أن يَعُدّوه ويَخالوهُ حَقائِقَ.

ويَعودُ فيَشْرَحُ لنا هذا في قولِه «لقدْ صَدِئَتْ أَفْهامُ... إلخ»، يُحدِّثنا بأنّ آلمعارِفَ آلّتي نَجْهَدُ بتَحميلِ آلعَقْلِ إيّاها تَتَراكَبُ عليهِ مثلَ صَدَإٍ كَثيفٍ، فأشدَّ ما تَكونُ آلحاجةُ إلى عمليّةِ صَقْلٍ، تتناوَلُه من كُلِّ جِهاتِه وجَميعِ نواحيه.

على أنّه ينتقِلُ إلى مَنْحىً آخرَ في قَوْلِه «نُكذِّبُ آلعَقْلَ في تَصْديق... إلخ»، ليُعَرِّفَنا بأنّنا نُخضِعُ آلعَقْلَ ونُخضِعُهُ في إكراهٍ، لتَصْديقِ قَضايا يَزْعُمونَها كآلمُسَلَّماتِ وآلمبادِىءِ.

وهو بهذا يُلمِسُنا رأيَه الصَّريحَ في آلعَقْلِ آلفِطْرِيِّ وآلعقلِ آلمُكْتَسَبِ، وآلمعرّيُّ يَطْمَئِنُّ إلى آلأوّلِ آطمِئْناناً لا حدَّ له، ويَحْقِدُ على الثّاني حِقْداً لا حَدَّ له أيضاً، إذْ يمتَدُّ بعُروقِه وشَرايينِه في آلعَقْلِ آلأوّلِ، وينبِضُ بنَبَضاتِ فَسادِه، وآسمَعْه كيفَ يَقولُ:

إنّما نحنُ في ضَلالٍ وتعليلٍ،
فإنْ كُنْتَ ذا يقينٍ فهاتِهْ (ل١/٢٥٢)

أليسَ هو يُظهِرُنا في صَراحةٍ بالغةٍ، على أنّنا في ضَلالِ التّعميماتِ، وهي طَبْعاً قَضايا آلعقلِ آلمُكتسَبِ. ويَزيدُنا صَراحةً في قولِه «هي غُرْبَتانِ... إلخ»، وهنا وَضَعَ أيْدينا على التَّقْسيمِ في شَكْلٍ بارِزٍ نُحِسُّهُ

ونلمِسُهُ. ولقدْ رامَ أخْذَ ٱلعَقْلِ ٱلمُكْتسَبِ بضربةٍ ساحِقَةٍ أخيراً، فقالَ «لم تَلْقَ إلّا جاهِلاً... إلخ».

وٱلمعرّيُّ، مُتَلَمِّسُ النّهجِ ٱلقَويمِ والطّريقِ السّالكِ بلهفَةِ ٱلأعمى، كيفَ يَرْجوهُ مِمّنْ هو مِثْلُه عَميّ:

أنا أعْمى، فكَيْفَ أُهْدى إلى ٱلمنـ
ـهجِ، والنّاسُ كُلُّهم عُميانُ (ل٤/٢٦٧)

وعندَ هذهِ النُّقطةِ الدّقيقةِ، يشعُرُ ٱلمعرّيُّ بأنّ ٱلعقلَ ٱلفِطريَّ ٱنْطَمَسَتْ معالمُهُ بصدإِ ٱلعقلِ ٱلمُكْتَسَبِ، والضّرورةُ تَقْضي بصَقْلِه. ولكيْ يتَسَنّى لنا ذلك الصَّقْلُ، فهذا ما يحدِّثُنا ٱلمعرّيُّ عنْه في قولِه «كَذَبَ الظَّنُّ... إلخ». وتأمّلْ بدِقّةٍ كبيرةٍ قولَه «فٱنفرَدْتُ ما ٱستطعْتُ».

إنّه يجِدُ تَخْليصَ ٱلعَقْلِ ٱلفِطْريِّ من طُفيْليّاتِ ٱلعقلِ ٱلمُكْتسَبِ وتَنْقِيَتَهُ من شَوائبِه وأوهامِهِ، إنّما يتمُّ بٱلعُزلةِ ٱلحائلةِ بينَه وبينَ ٱلآخرينَ، فلا تَعْبَثُ به ٱلعَدْوى وتَهُبُّ عليهِ «الثُّؤَباءُ»:

تَثاءَبَ عَمْرٌو إذ تَثاءَبَ خالِدٌ
بِعَدْوَى، فَما أعْدَتْنِيَ الثُّؤَباءُ (ل١/٥٠)

وكأنّه يُشيرُ إلى ٱلقسريّةِ الٱجتماعيّةِ وشِدّةِ خَطَرِها على ٱلفِكْرِ وٱلكائِنِ، ولذا هو يَقودُنا إلى ٱلعُزلةِ ٱلمُحَصِّنةِ، ٱلّتي تَسْمَحُ لنا أيضاً بتَقْليبِ قَضايا ٱلعَقْلِ على متنوِّعِ وُجوهِها في تَمَهُّلٍ، وتَحْليلِها طَويلاً في صِدْقٍ، وٱسمَعْه كيفَ يَقولُ:

ويَعْتري النَّفسَ إنكارٌ ومعرفةٌ
وكلُّ معنىً له نَفْيٌ وإيجابُ (ل١/١٠٤)

وكأنّهُ خَشِيَ ٱرتيابَ النّاسِ في قيمةِ هذه ٱلوَسيلةِ، فيهتِفُ فيهمْ بقولِه

«هِيَ ٱلأفْهامُ... إلخ». إنّهُ يشتَدُّ في طَلَبِ التَّجرِبةِ ويَتَحدّى أيضاً، في مَقالٍ صَريحٍ لا لُبْسَ فيه ولا غُموضَ: ألا تَعقِلُ ساعةً وتَرومُ رَبْطاً لعَنْسِكَ أي لناقَتِكَ أي عُضويَّةِ حياتِك ـ فقدْ سَبَقَ لنا، في فَصْلِ «مقدِّمةٍ لزوم ما لا يلزم»، (ص ٩٣)، بَيانُ أنّ النّاقةَ تَقومُ كِنايةً عن ٱلحياةِ ـ وتُدرِكُهُ غَضْبَةٌ مشتعلةٌ حادَّةٌ على أولئكَ الشّارِدينَ النّادّينَ، فيقولُ: أمْ خُلِقْتَ بغيرِ عقلٍ، حينَ لا تَعْقِلُ، أيْ تُقيِّدُ طَبيعتَك ٱلحَيّةَ بمِثْلِ ٱلعُقالِ:

وإنَّـكَ، مُـنْـذُ كَـوْنِ الـنَّـفْـسِ عَـنْـساً
لَـتُـوضِـعُ فـي الـضَّـلالـةِ، أو تَـخُـبُّ (ل١/١٠٦)

ومِنْ وَراءِ هذهِ الدَّوْرةِ ٱلقَصيرةِ مَعَ أبي ٱلعَلاءِ، نَنْتَهي إلى أنّه يَقولُ بٱلعقلِ ٱلخالِصِ وأنّه يَنْبوعُ ٱلمعرفةِ، وبهذا فارَقَ ٱللّاأدريّةَ، ونُفاةَ ٱلحقائِقِ، والرِّيْبيّةَ، وٱلباطنيّةَ وبٱلأخصِّ ٱلجَديدةَ. ويُقرِّرُ أنّ ٱلعَقْلَ يَشْتَمِلُ على أوّليّاتٍ أزليّةٍ، أو خَصائِصَ ثابتةٍ في ٱلعَقْلِ ٱلجُزئيِّ من ذلكَ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وهي، أيْ هذه ٱلأوّليّاتُ، يَنبوعُ ٱلمَعْرفةِ الصّحيحةِ الصّادقةِ.

بَيْدَ أنّ هذا ٱلعَقْلَ ٱلفِطريَّ لَبَّسَ عليهِ ٱلأحياءُ بٱلأوْهامِ وأبلَسُوهُ بٱلأباطيلِ وٱلخَيالاتِ ٱلّتي صاغوا منْها مُقَدِّماتٍ وبديهيّاتٍ سَمَّوْها مبادِىءَ، وفَرَضوها على ٱلعَقْلِ ثُمّ لا يُجاوِزونَها، وإذا جاوَزوا حَرْفِيَّتَها أحْياناً فليسَ يُجاوِزونَ روحَها، فكانوا سَبيلاً إلى خَلْقِ أوهامٍ جَديدةٍ، تزيدُ في تَكْبيلِه وجَمْعِ ٱلأغْلالِ وٱلأصْفادِ عليهِ، وهذا، دونَ ريْبٍ، سِرُّ حملتِهِ على ٱلمُعْتَزلةِ وأشباهِهِم.

وكانَ من هذا ـ كما يُحدِّثُنا أبو ٱلعَلاءِ ـ أنْ صَدِىءَ ٱلعقلُ وتأكَّلَهُ الصَّدَأُ. فلمْ يَعُدْ ثمَّةَ مَناصٌ عن صَقْلِه كيْ يَتَحَرَّكَ بخصائِصِه ٱلأزليّةِ، مُتّصِلاً بجَوْهرِ ٱلعقلِ ٱلكُلّيِّ مثلَ عاكِسٍ نقيٍّ ٱلمائيّةِ، أو بتعبيرِ ٱلباطنيّةِ،

مثلَ مرآةٍ لـم تَعُدْ ذاتَ وَجْهَيْنِ، أحدُهما مُتَجَمِّدٌ صامِتٌ والآخرُ عاكِسٌ ناطِقٌ.

وقدْ رأى سَبيلَ هذا الصّقلِ في الآنفرادِ، والعُزْلةِ المُقيّدةِ للطّبيعةِ الحيّةِ بالزُّهْدِ، وهي تَضْمَنُ، أوّلاً، إضعافَ عملِ الأخلاطِ في الفِكْرِ، أيْ تَنْقِيَتَهُ من كُلِّ أثرٍ عُضويٍّ؛ ثانياً، تَنْقِيَتَه من أشياءِ العَقْلِ المُكْتَسَبِ؛ ثالثاً، التّفلُّتَ من أسْرِ القَسْريّةِ الاجتماعيّةِ الّتي تطبَعُ الفِكْرَ والكائِنَ بإرادةٍ ودونَ إرادةٍ:

سَرَيْتُمْ على غِيٍّ، فهَلّا اهتَدَيتُمْ
بما خَبَّرَتْكُم صافِياتُ القَرائِحِ (ل٣٠٦/١)

وما هو حتّى يَنْشَطَ بالعَقْلِ خالِصاً مِنَ الأدرانِ، نابِضاً بخصائِصِه الثّابتةِ، ذاهِباً في اتّجاهِ مَنطقٍ جَديدٍ.

ثمَّ يبتَدِعُ لأوّلِ مرّةٍ ما يُعرَفُ باسمِ بُرهانِ الرِّهانِ الّذي يُعزى اليَوْمَ خَطَأً إلى باسكال في الدِّراساتِ الفَلسفيّةِ «قالَ المُنَجِّمُ والطَّبيبُ كِلاهما... إلخ».

منطق المعرّي

رأيْنا في بَحْثِ ٱلمَعْرِفةِ وطَبيعتِها، أنّ ٱلعَقْلَ ٱلمُكْتَسَبَ بمُتناقِضاتِه يُفْسِدُ أُلْفَةَ ٱلعَقْلِ ٱلمَنْطقيّةَ، وبتَعبيرِ أبي ٱلعَلاءِ يُفسِدُ الصِّدْقَ، ٱلخاصّةَ ٱلطّبْعيّةَ فيه، وبذلكَ يضِلُّ ويتعقّدُ على ٱلأباطيلِ ولا تصدُقُ نتائجُه بحالٍ.

فالصّدق هو أساسُ ٱلمَنْطِقِ ٱلعَلائيّ. والصّدقُ، في مفهومِه، أعمُّ كثيراً من ٱلمَفْهومِ ٱللُّغويِّ وٱلأخلاقيِّ في ٱلفَلْسفاتِ التّعليميّة. فهو يَعْني ما يتّسِعُ ويشمُلُ:

أوّلاً ـ تَصْحيحُ الطّبيعةِ ٱلعُضْويّةِ ٱلحَيَّةِ، وبتعبيرِ أبي ٱلعَلاءِ «عقل ٱلعَنْس» ٱلّذي أوضَحَهُ وعَبَّر عنه مرّةً أُخرى بقولِه:

فرجِّبِ ٱللّهَ صِفْراً من مَحارِمِه،
فَكَمْ مَضَتْ بك أصفارٌ وأَرجابُ (ل١/١٠٤)

فإنّ ٱلأخلاطَ ٱلعُضويّةَ إذا ما تَوَهّجتْ بشِرَّتِها، تُفسِدُ أُلْفَةَ ٱلعقلِ وعنصرَ الصِّدقِ فيه. فَوَجَب إذاً تنقيةُ ٱلعَقْلِ من كُلِّ راسبٍ عُضويٍّ، وإلّا فٱلعُضويّةُ تَشْكُمُهُ وتَستبِدُّ بأحكامِه، ويظهَرُ فيه بأكثرَ مِمّا يظْهَرُ فيها،

وبٱلجُملةِ هي تكسِفُهُ كَسْفاً تامّاً:

قد أسْرَفَ ٱلإنْسُ، في الدَّعْوى، بجَهْلِهِمُ
حَتّى ٱدَّعَوْا أنَّهم لِلْخَلْقِ أربابُ

إلْبابُهُمْ كانَ بٱللَّذّات مُتَّصِلاً،
طُولَ ٱلحياةِ، وما لِلْقَوْمِ ألْبابُ (ل١/١٠٢)

ثانياً ـ التّفلُّتُ من أسْرِ القَسرِيّةِ ٱلاّجتماعيّةِ، وعَدْوى ٱلفِكْرِ والشُّعورِ جَميعاً:

بُعْدي مِن النّاسِ بُرءٌ من سَقامِهِمُ،
وقُرْبُهُمْ للحِجى والدِّينِ، أدْواءُ (ل١/٥٦)

*

تَثاءَبَ عَمْرٌو إذْ تَثاءَبَ خالدٌ
بعَدْوى، فما أعْدَتْنِيَ الثُّؤَباءُ (ل١/٥٠)

ثالثاً ـ الرَّيْبُ ٱلحادُّ ٱلعَميقُ في كُلِّ ما يعتبُره النّاسُ حَقائقَ أوّليّةً، ومبادىءَ للنّظرِ والفِكْرِ:

وما تُريكَ مَرائي ٱلعَيْنِ، صادِقَةً،
فٱجْعَلْ لنفسِكَ مِرآةً من ٱلفِكَرِ (ل٢/٢٣٥)

*

مِرْآةُ عقلِكَ، إنْ رأيتَ بِها سِوى
ما في حِجاكَ، أرَتْه وهو قَبيحُ (ل١/٢٩٩)

رابعاً ـ جُحودُها أيضاً لا عَلى مَعْنى ٱلجُحودِ للجُحودِ، بلْ عَلى مَعْنى ٱلجُحودِ لسَلامةِ التّحليلِ والنّظرِ ٱلمنطقيِّ، تَوْفيراً لعُنصرِ الصِّدقِ بتَحريرِ ٱلعقلِ من ضَغْطِ ٱلأفكارِ ٱلّتي سبَقَ له ٱلاّقتناعُ بها، وتَوَصُّلاً لليَقينِ وٱلقَطْعِ

بسَلْبٍ أو إيجابٍ، وآسمَعْ قولَه «إنّما نحنُ في ضَلالٍ وتعْليلٍ... إلخ»، وقولَه:

غَدَوْتَ مَريضَ ٱلعَقلِ والدِّينِ، فٱلْقَني
لِتَسْمَعَ أنْباءَ ٱلأُمورِ الصَّحائِحِ (ل١/٣٠٦)

فهو يشجُبُ، بٱلقَصْدِ، جميعَ ما يُعَدُّ واقِعاً فكريّاً، زَلزلةً للعقلِ ٱلمُطْمَئِنِّ، وحَفْزاً له على النَّظَرِ مرّةً أُخرى:

قَدْ صَيَّرَ الإنسانُ، في أحشائِهِ،
قَبْراً لغانِيَةٍ عنِ ٱلإقبارِ (ل٢/٢٨٤)

هذا مفهومُ عُنصرِ الصِّدقِ ٱلعَقْليِّ كَما نستنتجُهُ من أبي ٱلعَلاءِ. وبدونِه لا يَتردَّدُ ٱلمعرّيُّ عن ٱلحُكْمِ على ٱلعقلِ بأنّه مَدْخولٌ مُزوَّرٌ، يترَعُ بٱلفَسادِ ويتموَّهُ بٱلأباطيلِ. وهذا يُهيِّئُ لنا سَبيلَ ٱلآنتقالِ إلى آستنتاجٍ جديدٍ، يَدورُ على معنى ٱلفكرِ والنَّظرِ ٱلعقليّ.

نحنُ نُعرِّفُهُ، أي ٱلفِكرَ، في مَنْطِقِ ٱلفلسفةِ الصُّوريِّ، بأنّه تَرْتيبُ أُمورٍ مَعْلومةٍ للتَّوَصُّلِ إلى مَجهولٍ تصوُّريٍّ، أيْ حَدٌّ أو قولٍ شارحٍ، أو تَصْديقيٍّ أيْ قِياسٍ.

وٱلمَلحوظُ في ٱلأُمورِ ٱلمَعْلومةِ، ما سبقَ وكانَ لها معنىً حاصِلٌ في الذِّهنِ. وقد عرَفْنا أنَّ ٱلمعرّيَّ لا يثِقُ أبداً بٱلحُصولِ الذِّهنيِّ السّابِقِ، لأنّه بعضٌ منَ ٱلعَقْلِ ٱلمُكْتَسَبِ ٱلمَدْخولِ، وٱلفاقِدُ لخاصّةِ الصِّدْقِ الضَّروريّةِ لأُلْفَتِهِ ٱلمَنْطِقيّةِ. فَمِثْلُ هذا ٱلفِكْرِ مُنْكَرٌ عندَه، بل هو سبيلٌ سَوِيٌّ للتخبُّطِ وٱلجَهالاتِ الدّاكنةِ الدَّهْماءِ:

وَقَدْ يَفْسُدُ ٱلفِكْرُ في حالَةٍ،
فيُوهِمُكَ الدُّرَّ قَطْرُ الشَّرى (ل١/٨٩)

إذاً فلَهُ معنىً آخرُ عندَه، وهو في آتّجاهِ ما تَقَدّمْنَا به: تَرتيبُ أُمورٍ عفويّةٍ ـ أي مُجَرَّدةٍ عن كُلِّ حُصولِ ذهنيٍّ سابقٍ ـ للتوصُّلِ إلى صِدْقٍ عقليٍّ أو تجرِبةٍ حيّةٍ، ومن ثَمَّ يكونُ التّوصُّلُ صَحيحاً، والتّوصُّلُ واقِعاً في حُدودِ أُلْفةٍ منطقيّةٍ، فإنّ آطِّراحَ كُلِّ معرفةٍ سابقةٍ هي آلمُقَدّمةُ لِكُلِّ معرفةٍ صادقةٍ:

لَعَمْرُك ما غادَرْتُ مَطلعَ هَضْبَةٍ
مِنَ آلفِكْرِ، إلّا وآرتَقَيْتُ هِضابَها (ل١/١٢٥)

*

إنْ عَذُبَ آلمَيْنُ بأفواهِكُمْ،
فإنَّ صِدْقِي بِفَمِيَ أعْذَبُ
طَلَبْتُ للعالَمِ تَهذيبَهُمْ،
والنّاسُ ما صُفُّوا ولا هُذِّبوا
وأكْثَروا الدَّعْوى بلا حُجّةٍ،
كُلٌّ، إلى حَيِّزِه يَجذِبُ (ل١/١١٦)

فلِلمعرّيّ إذاً منطقٌ، وهو أيضاً آلةٌ تَعْصِمُ الذِّهنَ عن آلخَطَأِ في آلفِكْرِ، وعناصِرُه هي:

ـ **قانونُ التَّجرِبةِ وآنعكاساتها مَشاعِرَ حيّةً**: وهو عندَه آلمُنطَلَقُ آلأوّلُ للإثباتِ، ولا سيَّما التّجربةُ آلمُقْتَرِنةُ بعقلِ أَلْمَعيٍّ نَفّاذٍ:

إذا قُرِنَ الظَّنُّ آلمُصيبُ مِنَ آلفَتى
بتَجرِبةٍ، جاءا بعِلْمِ غُيُوبِ (ل١/١٦٠)

ـ **قانونُ النَّفْيِ والإثباتِ**: وهذا آلقانونُ آستمَدّهُ آلمعرّيُّ من آلباطنيّةِ

آلـجَديدةِ، آلّتي آستمَدَّتْهُ ـ حَسَبَ مقالِها ـ من كلمةِ الشّهادةِ «لا إله إلّا اللّه». فقد عَمَدَتْ وصاغَتْها في مُعادلةِ عقليّةِ هي (لا. إلّا)، دالّةً على النَّفْيِ للأشياءِ توصُّلاً إلى إثباتِ الشّيء.

وهذا آلقانونُ يَنْتَهي بنتيجتيْنِ، آلأولى، أنَّ النّظرَ آلعَقْليَّ يَنْبَغي أنْ يبتدىءَ بالنَّفْيِ آلـمُطْلَقِ، ليتوصَّلَ إلى آلإثباتِ آلـمُحَدَّدِ؛ والثّانيةُ، أنّ آلـكَثْرةَ هي عَلامةُ آلـباطـلِ (لاحِـظْ أنّ لا إلـهَ نـفـيٌ لـلـجِـنْـس)، فالتّعليلُ آلّذي يَنْتَهي بتَفْسيرٍ ذي شُعَبٍ يَشْهَدُ على بُطلانِ نفسِه، وأنّ آلوَحْدَةَ هي عَلاقةُ آلـحَقِّ (لاحِظْ أنّ آلآستثناءَ مِعيارُ آلعُمومِ فهو يُفيدُ آلقَصْرَ). ولْننتقلْ من بعدُ إلى **اللّزوميّات**، لنتبيّنَ مُشَخّصاتِ هذا آلقانونِ، قالَ:

وآلإنْـسُ مـا بَـيْنَ إكْـثـارٍ إلـى عَـدَمٍ،
كآلوَحْشِ ما بينَ إمْحالٍ وإخْصابِ
لـم يُـثـبِـتـوا بـقِـيـاسٍ أصـلَ دِيـنِـهُـمُ،
فـيَـحْـكُـمـوا بَـيْنَ رُفّـاضٍ ونُـصّـابِ (ل١/١٦٣)

*

يا لَيلُ؟ ضِدّانِ: قَوْمٌ في الدُّجى سُهُدٌ
تَـهـجَّـدوكَ[1]، وقـومٌ فـيـكَ هُـجّـادُ (ل٢/٢٩)

*

تَـرومُ قِـيـاسـاً لـلـحَـوادِثِ ضِـلَّـةً،
وتلكَ أُصولٌ، ليسَ يَجْمَعُها حَصْرُ

(١) وفي رِوايةٍ: في الدُّجى سَهَر، ـ تَهَجّدوكَ: لم يَغمضْ لهم جفنٌ وهمْ أيقاظٌ، أو بالتّعبيرِ آلأصيل في آلعربيّةِ: لم يَغْمضْ لليلهِمْ جفنٌ عِبادةً وتَحَنُّثاً ـ هجّاد: يَغطّونَ في نَوْمٍ عَميقٍ.

وعندَ ضِياءِ ٱلفَجرِ صُلِّيَتِ الضُّحى[٢]
وعندَ غُروبِ الشَّمْسِ صُلِّيَتِ ٱلعَصْرُ (ل١١٣/٢)

*

ومـا يَـزالـونَ، فـي شـامٍ وفـي يَـمَـنٍ،
يَـسْـتَـنْبِـطـونَ قِـيـاسـاً مـا لَـهُ أَمَـدُ
فَـذَرْهُـمُ ودَنـايـاهُـمْ فَـقَـدْ شُـغِـلـوا
بِها، ويَكْفيكَ مِنْها ٱلواحدُ الصَّمَدُ[٣] (ل١٧/٢)

*

يـا ثُـلَّـةً فـي غَـفْـلَـةٍ، وأُوَيْـسُـهـا آلـ
ـقَـرَنـيُّ مِـثْـلُ أُويـسِـهـا، أيْ ذيـبِـهـا (ل١٧٧/١)

فٱلمعرّيُّ يُحدّثنا في قَوْلِهِ «وٱلإنس... إلخ»، أنّ الناسَ من تَفْكيرِهم بينَ رَجُلين: إيجابيٌّ مُبالغٍ، وسلبيٌّ مُبالغٍ أيضاً، فضَلّوا لِذلك وهاموا في الضَّلالِ. فإنّ ٱلمُبالغةَ في ٱلإيجابِ كَثْرةٌ وهي باطلةٌ، كما أنّ ٱلمُبالغةَ في السَّلْبِ كَثرةٌ وهي باطلةٌ أيضاً. وفي كِليْهما لا يَستقيمُ قِياسٌ يكونُ حَكَماً فَصْلاً، بينَ قائلٍ مثلاً بأنّ عَليَّ بنَ أبي طالبٍ في أعلى الدَّرجاتِ، وبينَ قائلٍ بأنّه في أسفلِ الدَّركاتِ، وأنّ النّاسَ، من أقْيسَتِهِم ومنطِقِهِم، مثلُ وَحْشٍ (لاحِظْ دِقَّةَ تَعبيرِهِ بوَحْشٍ ٱلمُشتَمِلِ على النُّفْرة وعدمِ ٱلانْقيادِ) مُمْحِلٍ عَقيمٍ، وآخَرَ مُخْصِبٍ مُتزيِّدٍ.

فمنطقُهُم هذا يَنبُعُ بٱلأضدادِ لأنّه كثرةٌ. وكُلُّ واحدٍ بِمَحَلِّه من ٱلكَثرةِ يُمثِّلُ ضِدّاً. فلو أخَذْنا عليّاً ٱلّذي ساقَه شاهداً نجِدُ فيه غُلُوّاً برَفْعِهِ وهو

(٢) الضّحى: صَلاةٌ مَسنونةٌ تُؤدّى مَعَ ٱرتِفاعِ الشُّروقِ.
(٣) وفي رِوايةٍ: ٱلقادِرُ الصَّمَدُ.

ينتظِمُ فِرَقاً كثيرةً مُتضادّةً بِنسَبٍ متفاوتةٍ، وغُلُوّاً بوَضْعِه وهو ينتظِمُ فِرَقاً كثيرةً مُتضادّةً كذلك، وبينَ هذينِ الغُلُوَّيْنِ توسّطٌ ينتظِمُ أيضاً فِرَقاً كثيرةً مُتضادّةً، فإنّ من طَبيعةِ التّضادِّ أنّه نِسبةٌ وُجوديّةٌ، وهو يَتكاثَرُ بتكاثُرِ النِّسَبِ ومنزلةِ وَضْعِها:

وِلِكُلِّ ما أصْبَحْتَ تُدْرِكُ حِسَّه
ضِدٌّ، وكِبْرَةُ مَنْ تَرى كصَغارِ
شِيَعٌ أجَلَّتْ يَوْمَ خُمٍّ[٤]، وآنْثَنَتْ
أُخْرى تُعارِضُها بيَوْمِ آلغَارِ (ل٢/٢٨٧)

ومن آلخَيْرِ أنْ نَشْرَحَ مَعْنى التّضادِّ بآلمِثالِ، حينَما نأخُذُ حركةَ آلجِسمِ آلحيِّ نجِدُها تُؤلِّفُ حالاتٍ كثيرةً تَبعاً لنسبةٍ أو وَضْعٍ، فتكونُ قِياماً وقُعوداً وآضْطِجاعاً وآنبِطاحاً وآستِلقاءً وجُلوساً وتَحَفُّزاً وآستيفازاً وآنحناءً وآلتِواءً وتنكُّساً... إلخ، وحينَما نأْخُذُ آللّونَ نَجِدُهُ يُؤَلِّفُ بَياضاً وسَواداً وحُمْرَةً وخُضرةً وصُفرةً، إلخ، وكلُّها أضدادٌ لأنّ مَوْرِدَها آلوجودُ، ومن طَبيعتِه أنْ يَكونَ واقِعاً في نِسَبٍ وأوضاعٍ.

وإنّ آلمنطقَ آلّذي يَقومُ على طَرَفِ آلإيجابِ وحدَه يَجُرُّ إلى أضْدادٍ كثيرةٍ في آلإيجابِ، وآلّذي يقومُ على طَرَفِ السّلْبِ وحدَه يجرُّ إلى أمثالِها كثرةً في السَّلْبِ، وكلُّ هذا ضَلالٌ وحَيْرَةٌ وتخبُّطٌ.

وإنّما آلحقُّ في آلقِياسِ أو آلقانونِ هو آلّذي يَسْتَوي على طَرَفَي التّناقُضِ، ويُصاغُ في بَساطةِ آلواحِدِ، وتأليفُ التّناقُضِ يَنْتَهي بأُلْفَةِ آلفِكرِ حتْماً، دونَ إمكانيّةِ آلكثرةِ أو آحتمالِها.

(٤) يَوْمُ خُمّ أو غَدير خُمّ: مُناسبةٌ مُقَدَّسَةٌ عندَ الشّيعةِ لأنّ مُوالاةَ عليٍّ تَمَّتْ فيهِ. يَوْمُ آلغارِ: مُناسبةٌ مُقَدَّسَةٌ عندَ مُخالفيهِم لأنّ أبا بَكْرٍ كانَ فيه ثانيَ آثْنَيْن.

وينْبَغي أنْ نَشرحَ هُنا مَعْنى التّناقُضِ بآلمثالِ أيضاً، فآلعِلْمُ نقيضُه آللّاعِلْمُ، أمّا آلجَهْلُ فليسَ نَقيضاً بلْ مُساوٍ للنّقيضِ، وعليهِ ففي مفهومِ النّقيضِ آلعدمُ آلخالصُ. إذاً فعلى الشّيءِ وآللّاشيءِ يَقومُ قانونُ النّفْيِ وآلإثباتِ في حَقيقتِه، والتّناقُضُ لا يَسْمَحُ أبداً بالتّكثُّرِ. فما آنْتفى وُجودُه كانَ عَدَماً محْضاً، وآلعَدَمُ لا يقبَلُ النِّسبةَ، لأنّ النِّسبةَ تَسْتَدْعي وتستَلْزِمُ آلوَضْعَ في نُقْطةٍ مُنزَلةٍ، وهو وُجودِيٌّ لا يقَعُ على آلأعْدامِ بحالٍ، فكلُّ ما آرتَفَعَتْ عنه صفةُ آلوُجودِ كانَ عَدَماً.

ومنْ ثَمّ نَنْتَهي إلى أنّ دِقّةَ قانونِ النّفيِ وآلإثباتِ تستَنِدُ إلى إبرازِ عُنصرِ آلعَدَمِ فِي التّناقُضِ، وإلّا فهو مِثلُ غيرِه من آلقوانينِ آلّتي هي يَنابيعُ التّضادِّ والضَّلالِ.

ومَعْنى هذا أنّنا عندَما نُقيمُ قانونَ النّفيِ وآلإثباتِ، على الشّيءِ وآلمُساوي لنقيضِه كآلعِلمِ وآلجَهْلِ(٥)، نُفسِدُ وحدَةَ آلفِكرِ في آلعقلِ وأُلْفتِه آلمَنْطِقيّةِ، وَنَنْتَهي حَتْماً بكثرةٍ فكريّةٍ متضادّةٍ. وذلك لأنّ آلمُساويَ للنّقيضِ شيءٌ، وهو وُجوديٌّ قابلٌ للنِّسبةِ وتفاوتِها، أي قابلٌ لإنتاجِ آلأضْدادِ.

ولذا هو يُضَلّلُ الثَّنَويَّةَ آلقائلةَ بأصليْنِ آثنينِ، ويُنْكِرُ على آلباطِنيّةِ آلقديمةِ عَدَمَ دِقّتِها. وآلمعرّيُّ يُظْهِرُنا على هذا كُلِّهِ في قولِه «يا ليلُ... إلخ»، فإنّه يُنادي آللّيلَ بمعناهُ آلكِنائيِّ ـ وتأمّلْ دقّتَه الرّمزيَّةَ وعُمْقَها، لأنّ آللّيلَ يوحِّدُ آلمُتَجزّئاتِ وآلمُتَضادّاتِ آلكونيّةَ ويُظْهِرُها بمَظهرٍ واحدٍ،

(٥) دَعْوَى أنّ آلمُساوِيَ للنّقيضِ كالنّقيضِ مِن حيثُ هو هو، إنّما تَستَنِدُ إلى قِياسِ آلمُساواةِ في صُورتَيْهِ آللّتين هُما: آلمُساوي للشّيءِ هو عينُه، ومُساوي آلمُساوي لشيءٍ مُساوٍ لذلك الشّيءِ، أيْ ما يُعرفُ بآلقِياسِ آلمُركَّبِ، مصدرٌ للمُغالطاتِ آلكُبرى النُّكْراء.

يجْمَعُ ٱلـمُبْيَضَّ وٱلـمُحْمَرَّ وٱلـمُرْتَفِعَ وٱلـمُنْحَدِرَ وٱلقِمَّةَ وٱلواديَ وٱلغَبْراءَ والدّمّاءَ. والصّوفيّةُ أنفُسهم ٱستعملوهُ كِنايةً عن وَحْدةِ ٱلوُجودِ، ومِن أغانيهِمْ شاعَتْ «يا ليلُ» مَطْلعاً للأغاني ٱلعامّةِ ـ وٱلمعنى عندَ ٱلمعرّي: أيُّها ٱلقائِلونَ بالنَّفْيِ وٱلإثباتِ، لقدِ ٱنعكَسَتْ في عقولِكُم طبيعتُه، فبعدَ أنْ كانَ لرفعِ التّضادِّ أضْحى سَبباً وسَبيلاً إليه، فأنتمْ مِثلُ قومٍ ساهرينَ مُلِحّينَ في التّعبُّدِ والتّهَجُّدِ، وآخَرينَ يَغُطّونَ هاجِعينَ.

ويَزيدُنا بَصيرةً فيما عندَ النّاسِ من أقْيِسَةٍ مُشتقّةٍ من أصولٍ فاسدةٍ ويستخدِمونَها أيضاً ٱستخداماً يَزيدُ مَعْنى ٱلفَسادِ فيها، قالَ «تَرومُ قِياساً... إلخ». وٱلمعنى أنّهم يُحاوِلونَ إخضاعَ ٱلحوادثِ ومجاريها لأقْيسةٍ مُضَلِّلَةٍ، وهي أصولٌ نظريّةٌ ليسَتْ تَقَعُ تَحْتَ حَصْرٍ، فكيفَ تَكونُ فيها أُلْفةٌ منطقيّةٌ؟ وهيهاتَ أنْ تَصْدُقَ أيضاً.

على أنّهم يَضَعونَها في غيرِ مراتِبِها، مثلَ قومٍ يُصَلّونَ الضُّحى في وقتِ ٱلفَجْرِ ويُصلّونَ ٱلعَصْرَ مع ٱلغُروبِ، أيْ باطلةٌ تَقواهُم بينَ تقديمٍ وتأخيرٍ مثلَما هي أقيِسَتُهم باطلةٌ كذلِك.

ويَعودُ ٱلمعرّيُّ فيبسُطُ ٱلموضوعَ بأكثرَ دِقّةً في قولِه «وما يَزالونَ في شامٍ... إلخ»، وٱلمعنى ما زالَ مَنْ في الشّامِ تحتَ هواهُمُ ٱلأُمويِّ ومَنْ في ٱليَمنِ تحتَ هواهُم ٱلمُناوىءِ، يَعْتَصِرونَ عُقولَهم ليَستنبطُوا منها أقيسةً ليسَ لها نهايةٌ تُبرِّرُ أهواءَهُمْ. فيا أيُّها ٱلمُتلِعُ جيدَك إلى ٱلحَقِّ ٱلخالِصِ، ذَرْهُمْ وما شُغِلوا به ويَكْفيكَ منها ٱلقادرُ الصَّمَدُ، أي السّرمديُّ الصّامدُ بديمومةٍ يَتَلاقى فيها أزلٌ وأبدٌ.

وأخيراً يهتِفُ في بُحّةٍ غاضبةٍ: إنّ الناسَ في غَفْلةِ منطقِهم يُلزِمُهم ولا يَشْعرونَ، أنّهم يَقْرِنونَ أُويساً ٱلقرنيَّ ٱلمُتَطَهِّرَ ٱلمُتَوَحِّدَ بأُويسٍ ٱلخبِّ

ٱلّذي ٱسْتَوَتْ في طبيعتِهِ طبيعةُ الذّئابِ...

ـ **المنهجُ ٱللّغويّ**: تقدَّمنا بٱلكلامِ على هذا ٱلمنهجِ ودَلالاتِه، ويهمُّنا ٱلآنَ أن نُبيِّنَ أثَره في **اللّزوميّات**، وهل كانَ ٱلمعرّيُّ حَقيقةً يجنَحُ إليهِ في ٱلفكرِ، قال:

وكأنّما هذا الزّمانُ قصيدةٌ
ما ٱضطرَّ شاعِرُها إلى إيطائِها (ل١/٧٦)

*

وٱلفَتى ٱلمُصَرِّفُ هذا ٱلجِسْم
يَلْقى التّغييرَ والتَّقْليبا (ل١/١٤٣)

*

لَعِبَتْ به أيّامُه فَكَأنّهُ
حَرْفٌ يلينُ في ٱلكلامِ ويَنْبُرُ (ل٢/١٤١)

*

مالي غَدَوْتُ كقافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ
في الدَّهْرِ لَمْ يُقدَرْ لها إجراؤُها
أُعْلِلْتُ عِلَّةَ «قال» وهي قَديمَةٌ
أعْيا ٱلأطِبَّةَ كُلَّهُم إبْراؤُها (ل١/٦٢)

*

فَمَنْ لي بأرْضٍ رَحْبةٍ لا يَحُلُّها
سِواي تُضاهي دارَةَ ٱلمتقارِبِ (ل١/١٥٢)

*

فـإنّ الـطّـويـلَ نَجـيـبُ ٱلـقَـريـضِ
أَخـوهُ ٱلـمَـديـدُ، ولـم يَـنْـجُـبِ (ل١/١٨٨)

*

فـلَـسْـتُ لـهـم وإن قَـرُبـوا ألـيـفـاً
كَـمـا لـم تَـأْتَـلِـفْ ذالٌ وطـاءُ (ل١/٦٠)

*

أكـفِـيءُ سَـوامَـكَ فـي الـدُّنـيـا مُـيـاسَـرةً
وأعـرِضَـنْ عن قَوافي الشِّعر تُكفِئها (ل١/٥٧)

*

وبَـدائـعُ ٱلـلّـهِ ٱلـقَـديـرِ كَـثـيـرةٌ
فـيَـحـورُ فـيـهـا لـيّـنـاً ويَـحـارُ
هـذي حُـروفُ ٱلـلّـفـظِ سَـطْـرٌ واحـدٌ
مـنْـهـا يُـؤَلَّـفُ لـلـكَـلامِ بِـحـارُ (ل٢/١٥٨)

إلى كثيرٍ كثيرٍ من أمثالِ هذه ٱللُّمَعِ ٱللُّغويّةِ ٱلمَقْصودةِ لذاتِها، في محلِّها مِن التَّصوُّرِ ومقامِها من التّقديرِ.

ولقائلٍ أن يَذْهَبَ معَ ٱلاَحتمالِ إلى أنَّ مثلَ هذا التّضمينِ وٱلاَستغناء به، هو ضَرْبٌ من ضُروبِ ٱلفَنِّ حَفَلَ عَصْرَ ٱلمعرّيِّ، وقَبْلَ عصرِه، لمحضِ التظرُّفِ، فما مجالُ هذه الدّعوى عندَ ٱلمعرّيّ؟

بيدَ أنّ معرِفَتَنا بأبي ٱلعَلاءِ ووقوفَنا على كُنْهِ إلْحاحِه بٱستخدامِ قَواعِدِ ٱللُّغةِ وٱصطلاحاتِها، وٱهتمامِه بأدائِها في شَكْلٍ أدقَّ من ٱهتمامِه بأداءِ ٱلفِكرةِ، تُشيرُ بلْ لَتَنْطِقُ بما نَقولُ.

وأكتفي لهدمِ هذا ٱلآدّعاءِ ومثلِه عندَ مَنْ يقولُ به أو يفترضُه، أنْ أُسائِلَ وَجْهَ قولِ ٱلمعرّيِّ في مطلعِ مَقْطوعتِه:

أَكْـفِـيءْ سَـوامَـكَ فـي الـدُّنـيـا مُـيـاسَـرةً
وأَعْرِضَنْ عن قَوافي الشِّعر تُكفِئُها

فٱلبيتُ، بحَسَبِ آدّعائِهِم، مُضْطَرِبٌ يَتَجانَفُ شَطْراه، وأتحدّى مَنْ شاء أنْ يجِدَ الرّابطَ إلّا على طريقَتِنا في فَهْمِه، فهو بِحَسَبِ ٱللُّغةِ يَقولُ: إجعَلْ لماشِيَتِكَ أكفاءً وأمثالاً، سَعْياً وراء ٱلغِنى وٱليَسارِ. وٱجتَنِبْ هذا ٱلإجفاءَ في قَوافي الشِّعرِ. بربِّك أيَّةَ عَلاقةٍ ترى بينَ الشَّطرينِ غَيْرَ ٱلعبَثِ وٱللَّغْوِ، بينَما هو على طريقتِنا يَبْدو أغنى ما يُقالُ في مِضمارِه.

فهو، أيِ ٱلمعرّيُّ، يُريدُنا على أن لا نَزِنَ ٱلأُمورَ بميزانٍ ما تعوَّدْناه كيفَما ٱتَّفَقَ، بلْ لكُلٍّ باديَةٍ ميزانُها. فٱلإكفاءُ في ٱلمُياسَرَةِ غيرُهُ في ٱلقافيةِ، فهو في ٱلأُولى مَصْدَرُ إغناءٍ وفي الثّانيةِ مَصْدرُ ٱنكفاءٍ، فَيَجِبُ أن نَضَعَ ٱلموازينَ ٱلقِسْطَ عارضةً بحسبِها... كما أُطالِبُهم بكَشْفِ السّتيرِ ٱلخَبيءِ في قوله:

وكـأنّـمـا هـذا الـزَّمـانُ قـصـيـدةٌ
مـا آضْـطُـرَّ شـاعِـرُهـا إلـى إيـطـائِـهـا

وهو لا يَبينُ لهم منه إلّا براعةُ التّصويرِ وجماليّتُه. بينَما هو على مَنْهَجِنا يتضمَّنُ بأنّ ٱلمنظومةَ ٱلكونيّةَ ٱلمُتَمَثِّلَةَ بالزَّمانِ، وهو صَيْرورةٌ مُتَجَدِّدةٌ، لا تَتَكرّرُ فيها ٱلهُنَيْهَةُ، وٱلإيطاءُ كما نَعْرِفُ هو تَكريرُ ٱلقافيةِ لَفْظاً ومَعنىً، فنخْرُجُ من هذا بنتيجَتَيْنِ: أولاهما طَرْحُ ٱلقَوْلِ بالتّناسُخِ؛ ثانيتُهما، ٱستبعادُ ٱلقولِ بٱلمُسَلَّمَةِ الشّائعةِ «التّاريخُ يُعيدُ نَفْسَه»، بل هو تغيُّرٌ يتّفِقُ والتّبدُّلاتِ الطّارئةَ وإنْ تشاكَلَتِ الصّورةُ.

ومِن بعدُ نَتَخَيَّرُ من جُمْلَةِ ٱلأبياتِ ٱلّتي سُقْناها شواهِدَ، لنتبَيّنَ مَدى عَملِ ٱلمنهجِ ٱللُّغويِّ عندَه في ٱلفِكْرِ.

عَرَفْنا هُناكَ، في فَصْلِ ٱلمَنْهَجِ ٱللُّغويِّ، أنّه أنشأَ تصوُّرَهُ في ٱلحياةِ وعَقَدَه على النَّظْمِ. ورَأى في بُحورهِ ظاهِراتٍ من مَجاري ٱلحياةِ، ورأى في دوائِرِها ٱلعَروضيّةِ وَحَداتِ هذه ٱلمجاري ٱلّتي تنبُعُ منها وتَرْتدُّ إليها. وهو كما رأى في بعضِ ٱلبُحورِ إنْجاباً وفي بَعْضِها إمْحالاً، وَجَدَ في بعض الدّوائرِ تفرُّداً يَخُطُّ مَجْرىً فذّاً، فٱستَوْحى من مثلِ هذهِ الدّائرةِ حَقيقَتَه ومنهجَهُ ٱلكاملَ، وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

فمَنَ لي بأرضٍ رَحْبَةٍ لا يَحُلُّها
سِوايَ، تُضاهي دارةَ ٱلمتقارَبِ

ورأى في تَداخُلِ ٱلبُحورِ فَساداً عَروضيّاً قَبيحاً، قادَه إلى أنّ تَداخُلَ مجاري ٱلحياةِ يُفْسِدُها كذلكَ. وعلى ضوءِ ٱلفَسادِ ٱلعَروضيِّ دَرَسَ فَسادَ ٱلحياةِ ٱلمُتَداخلةِ ٱلمجاري، ٱلمُضطّربةِ ٱلأوزانِ، ٱلمُتنافرةِ التّفاعيلِ. وٱسمَعْه كيفَ يقولُ:

يَوَدُّ ٱلفتى أنّ ٱلحياةَ بَسيطةٌ
وأنّ شَقاءَ ٱلعيشِ ليسَ يَبيدُ...
وقدْ يُخْطِئُ الرّأيَ ٱمْرُؤٌ، وهْوَ حازِمٌ
كما ٱخْتَلَّ في وَزْنِ القَريضِ، عَبِيدُ (ل١٢/٢)

*

ويُصْبِحُ منثورُ ٱلبِلى كنَظيمَةٍ،
بَناها عَبيدٌ، لا يُقيمُ لها وَزْنا (ل٢٧٠/٤)

وهنا نَجِدُ ٱلمُناسبةَ مُؤاتيةً للكشْفِ عن وجهِ السِّرِّ في تعلُّقِ أبي ٱلعلاءِ بٱلحَركاتِ، إنْ في النّثْرِ أو النَّظْمِ، وإلْحاحِه بالتّنبيهِ عليْها في ٱلمُقَدِّماتِ لكُتُبِهِ، ولا سيَّما ٱلّتي تَدورُ منها على ٱلحياةِ:

فالضَّمُّ رَمزٌ عنِ ٱلكُمونِ وٱلٱنضمامِ قبلَ ٱلٱنبثاقِ، وٱلفَتْحُ رمزٌ عن الظُّهورِ والشَّخْصِ ٱلماثِلِ في ٱلوُجودِ، وٱلكَسْرُ رمزٌ عنِ ٱلفسادِ في ٱلبِناءِ ٱلوُجوديِّ وٱلحَيَويِّ، والسُّكونُ رمزٌ عن التَّوحُّدِ والرَّجعةِ إلى ٱلعدمِ ٱلحيِّ ٱلأوّلِ، أو بتعبيرِ ٱلحديثِ النّبويِّ: ٱلعَماء[٦]، وبقولٍ أكثرَ وُضوحاً طَلَبُ ٱلخُروجِ مِن حيِّزِ ٱلكَوْنِ وٱلفَسادِ وٱلٱستعلاءِ عليهِ بٱلكفكفةِ مِن حَواشي فِعلِه، أو كما نُعبِّرُ ٱليومَ: ٱلخُروجُ من نِطاق جاذبيَّةِ عملِه.

ولْندرُسْ هنا تعلُّقَه بأمِّ دَفْرٍ، أي هذه ٱلكُنْيَةِ، فإنّها عَدا عن كونِها كُنيةَ الضَّبُعِ ولها أُسطورةٌ تتعلَّقُ بمعْناها ٱلكِنائيِّ ٱلّذي هو الدُّنيْا، فقدْ طبَّقَ عليها قاعِدةَ ٱلٱشتقاقِ ٱلكَبيرِ، ومِن صُوَرِها [دفر]، [فدر]، [ردف] إلخ. وهذه ٱلقاعِدَةُ تُظهِرُ جيِّداً كيفَ يُصبِحُ الظّاهِرُ وهو خبْثُ الرّائحةِ في [دفر]، باطِناً، وٱلباطِنُ ظاهِراً وهو ٱلحُمْقُ في [فدر] وعلى ٱلعَجْزِ في [ردف]، وتَبْعاً لهذا الظُّهورِ وٱلبُطونِ في ٱلحَرْفِ يتغيَّرُ ٱلمَعْنى وتتغيَّرُ طاقةُ ٱلكلمةِ وقُدْرَتُها على التّشكُّلِ.

- **رَمزيّةُ الدِّياناتِ ورمزِيَّةُ ٱلأساطير:** أَلْمحنا فيما سبَقَ إلى أنّ ٱلمعرّيَّ آهتمّ بٱلأقاصيصِ وأخذَها بضَرْبِ عَميقٍ من ٱلكِنائيّةِ ٱلفلسفيّةِ، فوجَدَ فيها

(٦) العَماء: ٱلواردُ في حَديث: كانَ ٱللّه في عَماءٍ قَبْلَ خَلقِه ٱلخَلْقَ، يَعْني كُنْه كُمونيّ لا تُدركُهُ ٱلعُقولُ، ويُفسّرهُ أكثرُ ٱلحديثِ ٱلقُدسيِّ: كُنتُ كَنزاً مَخْفيّاً فَخَلَقْتُ ٱلخَلْقَ، فبي عَرفوني، أي عَرَفوني بٱلمَعْنى ٱلإلهيِّ فيهم أو بمَعْنايَ فيهم، وحَديث: كانَ ٱللّهُ ولا شيءَ معه وهو الآنَ عَلى ما عَليه كانَ... وَٱلعَماءُ في ٱلوُجوديّة ٱلقَديمةِ أو ٱلعينيّةِ، يُرادِفُ ٱلأحديّةَ أو ٱلواحديّةَ.

جانِباً من الطّريق إلى ٱلمعرفةِ، فتعلّقَها في كَثيرٍ من ٱلاَطمئنانِ إلى كثيرٍ من ٱلاَفتنانِ.

وٱلمعرّيُّ يلمَحُ فيها عِبارةَ ٱلعقلِ ٱلفِطريِّ، وبقولٍ آخَرَ أكثرَ ٱصطلاحيّةً، عِبارةَ ٱلعقلِ ٱلمَطْبوعِ(٧)، قبْلَما لَحِقَهُ وعَلِقَ به تزويرُ ٱلعقلِ ٱلمُكْتَسَبِ أو ٱلعَقْلِ ٱلمَسْموعِ.

وهذا ٱلعقلُ ٱلمطبوعُ جدُّ حريصٍ على الرّمزِ، فقدْ عَرَفْنا أنّه جُزَيْىءٌ من ذلك ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ ٱلأزليِّ، ٱلّذي تَضيقُ عن مَكْنوناتِه لُغةُ ٱلحقيقةِ ٱلبسيطةُ، فَشَدَّ على مكنوناتِه ثوبَ الرّمزِ، مثلَما ضاقَتِ الطّبيعةُ عنْها أيضاً فألبَسَتْ نفسَها أثوابَ ٱلإشارةِ الرّامزةِ.

وكانَ مِنْ هذا أن عمَدَ ٱلمعرّيُّ إلى تَبَنّي الدّياناتِ كُلِّها ومقالاتِها، وليسَ في صرائِحِها بلْ في كناياتِها ٱلّتي وَجَدَها وَحدةً مشتركةً. وهو لذلك يَحْمِلُ حَمَلاتٍ حادّةً عنيفةً على أصحابِها، ٱلمُتَمَسِّكينَ بالصّرائحِ الظّاهرةِ، وكلُّها من وُجهةِ نظرِه مُتضادّاتٌ تَمُدُّ بأفانينَ مِن الضّلالاتِ.

فٱلمعرّيُّ من هذه النّاحيةِ أوّلُ من فَلْسَفَ ٱلقِصّةَ أو ٱلأُسطورةَ، دينيَّةً كانَتْ أمْ وضعيّةً، دارَتْ على ٱلأشخاصِ أمْ دارَتْ على ٱلحوادِث، وبتعبيرِ ٱلباطنيّةِ، أوَّلُ مَنْ تَمَكّنَ من تَأْويلِها على شَكْلِ تنزيلِ ٱلآفاقِ على ٱلأنْفُسِ. ولقدْ رأيْنا جانباً من عمَلِه هذا في ديباجةِ **رسالةِ الغفران**، ونَرى جوانِبَ كثيرةً منه أيضاً في كُلِّ لُزوميّةٍ من لزوميّاتِه ٱلكَبيرةِ ٱلعَدَدِ، حتّى

(٧) وَرَدَ هذا التّقسيمُ في بيتينِ يُنْسَبان لعليِّ بنِ أبي طالبٍ:

رأَيْتُ ٱلعَقْلَ عَقْلَيْن: فَمَطْبوعٌ ومسموع
ولا يَكُ مَسْموعٌ إذا لَمْ يَكُ مَطْبوعُ

لتكادُ تَقَعُ عليهِ في كُلِّ واحدةٍ منها. ولْنأْخُذْ بيتاً من **اللّزوميّاتِ** عَرَضاً كيفَما ٱتّفقَ، مثل:

ومَـنْ لـصـخْـرِ بْـنِ عَـمْـرٍو أَنّ جُـثّـتَـهُ
صَخْرٌ، وخَنْساءَهُ في السِّرْبِ، خَنْساءُ (ل١/٥٥)

كُلُّنـا نَعْرِفُ أنّ صَـخْـرَ بنَ عَـمرٍو كـانَ سيِّداً نَبيلاً، وكـانَ أخـاً شَقيقاً للخَنْساءِ الشّاعرةِ وكانَ يَحْنو عليْها كَثيراً ويَتَعَلّقُها كَثيراً، والـخَنساءُ وَجدَتْ حُزْناً عليه وبَكَتْهُ حياتَها... هذه هي ٱلقِصّةُ كما تَـمُدُّ بهـا الرِّواياتُ، ولْننظرْ كيـفَ تَـسْـتَـحيـلُ في تـصـوُّرِ الـمعرّيِّ ٱستحالةً رَفيعةً جدّاً. فقدِ ٱنصرَفَ تصوُّرُه إلى أنّ صخرَ بنَ عَمرٍو يَعْني ٱلجسدَ ٱبْنَ الدَّهرِ. فعمرٌو جاءَ أيضْاً بمعْنى إلهِ ٱلأمَدِ، وأنَّ ٱلـخَنساءَ الشّاعرةَ تَعْني النَّفسَ ٱلّتي هي شقيقةُ ٱلجسدِ، وٱلّتي هي مَصْدَرُ أحاسيسِه ومشاعِرِه. وأنّ النَّفسَ تُراعُ لِفِراقِ ٱلـجَسَدِ وتتحَسَّرُه، وهي بعدَ ذلك مصدرُ نكباتِه وأرزائِه... وقدْ ساعدَهُ على تَصَيُّدِ هذا ٱلمعنى، ٱلاَشتراكُ ٱللَّفظيُّ، ولا سيَّما في كلمةِ خَنساء الّتي تَأتْي أيضاً بمعنى الظَّبْيَةِ، والظَّبيةُ في الطّبعِ ٱلأعرابيِّ كٱلبوارحِ والسّوانحِ من الطّيرِ تَبْعَثُ على التّطيُّرِ في ٱتّجاهِها. وٱسمعْه كيفَ يَقولُ:

تَـفْـزَعُ أعْـرابِـيّـةٌ، إنْ جَـرَتْ لـهـا،
نَـواعِـبُ يَـسْـتَـعْـرِضْـنَـهـا، وظِـبـاءُ (ل١/٥٢)

وفيه نلمِسُ جَلِيّاً عُنصرَ ٱلأفلاطونيّةِ ٱلحديثةِ ٱلّذي أدارَ عليهِ ٱبنُ سينا قصيدَتَه ٱلعينيّةَ.

ولنأخُذْ هذا ٱلبيتَ أيضاً:

في بَيْتِه ٱلحَكَمُ ٱلّذي هو صادِقٌ،
فأْتُوا بُيوتَ ٱلقَوْمِ من أبوابِها (ل١/١٨٠)

ففي الشَّطْرِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى ٱلمَثَلِ ٱلعَرَبيِ ٱلمشهورِ، ٱلمَحكِيِّ على لِسانِ الضَّبِّ: «في بيتِه يُؤْتى ٱلحَكَمُ». وٱختارَهُ لأنّ ٱسمَ الضَّبِّ يَدُلّ على ٱلعُزلةِ وٱلانكفاءِ على نفسِه في جُحرِه، وهو عندَ ٱلعَرَبِ مِثْلُ ٱلحكيمِ ٱلمُطْمَئنِّ... وفي الشّطرِ الثّاني إلْماعٌ إلى ٱلآية «وليسَ ٱلبِرُّ بأنْ تَأْتوا ٱلبُيوتَ من ظُهورِها، ولكنّ البِرَّ مَنِ ٱتّقى، وأْتوا ٱلبُيوتَ من أبوابِها، وٱتّقوا ٱللّهَ لعلَّكُم تُفْلِحونَ» (البقرة: ١٨٩). وهو بهذا يُهاجِمُ ٱلمُتَسَلّقينَ في مَنْطِقِهِم تَسَلُّقاً دونَ أن يَأْخُذوا الطَّريقَ ٱللّاحب.

وإذا تأَمَّلْنا **اللّزوميّات** جيّداً، نجِدُ أبا ٱلعَلاءِ يتَّسِعُ لقَضايا كُلِّ ٱلأديانِ ولِما حَفِلَت بِهِ من التّعابيرِ، ولِما أطافَ بها من ٱلأخْبارِ، ولا تلبثُ حتّى تَستحيلَ عندَه ٱستحالَتَها ٱلخاصَّةَ وتَخْرُجَ كُلّاً مُشترَكاً. ولعلَّ هدَفَه لم يكنْ أبداً وراءَ تبيُّنِ هذه ٱلوَحدةِ وتَشْخيصِها، وإبرازِ كُنْهِها برُغْمِ ما هي عليهِ، أي ٱلأديانُ، من التّنافرِ وٱلخِلافِ.

وعَظَمَةُ ٱلمعرّيِّ، من وُجهةِ نَظري، تستَنِدُ في أكْبرِ جوانِبِها، إلى أنّه ٱستَحْيا ٱلأديانَ في أُلفتِها ٱلمَفْقودةِ، وبٱلأخرى ٱلمَحْجُوبةِ وراءَ ظَواهِرَ يتعبَّدُها النّاسُ تعبُّداً غَبيّاً، وكانَتْ هي وحدَها هَدفَ حملتِه على أديانِ النّاس.

آفاتُ المنطقِ

ثُمّ ينتقِلُ ٱلمعرّيُّ فيحدِّثُنا عن ٱلآفاتِ ٱلّتي تَعْرِضُ في هذا ٱلمَنْطِقِ، وتُوقِعُ في ٱلمُغالَطاتِ الضّالّةِ، وتَكونُ مَصْدَرَ أوهامٍ ومُخْرَقاتٍ، أو، كما

يُعبِّرُ ٱلمعرّيُّ، مَصْدَرَ السَّدَرِ في عينِ ٱلعَقْلِ، إذ يقولُ:

يَغْدو ٱلفَتى للأُمورِ، يَلمَحُ كٱلباز
يٍّ، وفي طَرْفِ لُبِّه سَدَرُ (ل٢/١٧٦)

*

ما سَدِرَتْ، في ٱلعَيانِ، أعيُنُهم،
لكِنْ عُيونُ ٱلحِجى بها سَدَرُ (ل٢/١٧٦)

وتأمّلْ تعبيرَه ٱلفاتِنَ بكَلِمةَ سَدَرَ، وهو تَحَيُّرُ عينِ ٱلبَعيرِ من شِدّةِ ٱلحرّ بما يَتَمَوَّهُ بها من رَقيقِ الدّمْعِ، فلا يستَثْبِتُ الرُّؤْيةَ للأشياءِ، وزِدْ تأمُّلاً في أنّ السَّدَرَ أكثرُ ما يُضافُ إلى ٱلبَعير.

وقد عَرَفْنا ٱلكِنايةَ في النّاقةِ عندَ ٱلمعرّيِّ، وأنّها تَعْني ٱلحياةَ ٱلعضويَّةَ، ومن ثَمَّ ينكَشِفُ لنا وجهُ ٱلمعنى ٱلعَميقِ في ٱلبيتِ، وهو: أنّ ٱلفتى ٱللّمّاحَ ٱلفِكْرِ، ٱلبعيدَ مَدى وَقعِ ٱلبَصرِ، قد يَلمَحُ مثلَ بازٍ، ولكنْ بما هو مأسورٌ به من ٱلعُضويّةِ وقَضايا ٱلعَقْلِ ٱلمَشموعِ، يُدْرِكُ عينَ لُبِّه تَحَيُّرٌ وعَدَمُ آستثباتٍ، وهو يَنبوعُ كُلِّ ٱلأوهامِ(٨)، ومِنْ أهمِّها:

أ ـ ما سبَقْنا بحديثه من أنّ ٱلمُساويَ للنّقيضِ، عينُ النّقيضِ مِنْ حيثُ هو هو.

ب ـ ضَلالُ ٱلأسماءِ، فإنَّ ٱللُّغةَ، برُغمِ أنّها جُزءٌ من مَنْهَجِ ٱلمعرفةِ، فقد أخذَها ٱلعَقْلُ ٱلمَشموعُ بأوهامِه وٱشتَقَّ منها كَلماتِه، فكانَتْ سبباً لسَدَرِ ٱلفِكْرِ وضَلالِ ٱلمَعْرِفةِ، ولذا تجبُ الدِّقَّةُ في ٱلفِقْهِ ٱللُّغويِّ مِن حيثُ ٱلفُروقُ، (Nuance). وٱسمَعْ قولَه:

(٨) مثلَ ما يُسمّيهِ تُبّاعُ أرسطو بخِداعِ ٱلحواسِّ فإنّه سدرٌ وعَدَمُ آستثباتٍ ومثلَ ٱلأقيسةِ ٱلمُغالِطة.

وَرُبَّ مُسمّىً عَنْبَراً، وهو مُوهِتٌ[٩]
وَلَيْثاً وفيهِ، أَنْ يَهيجَ، نُباحُ (ل١/٢٩٥)

ولقدْ أعْطانا ٱلمعرّيُّ في دِقّتِهِ ٱللُّغويّةِ مَثَلاً فذّاً لسَلامةِ تَطبيقِ ٱلمَنْهَجِ ٱللُّغويِّ، ٱلّذي كانَ منهُ أكبرُ ضَلالاتِ أربابِ ٱلفِكْرِ وٱلأديانِ. إذْ يأخُذونَ كلماتِ ٱلأشياءِ أخْذاً ظاهِريّاً ويبنُونَ ٱلمعرفةَ عليها ساذَجةً غبيّةً، فيقَعونَ في التّضادِّ ويلحَقُهُمُ «ٱلكَسْرُ»[١٠] حتّى في منطقِهِم، وتلزَمُهُم طائفةٌ من إلزاماتِ ٱلعَقْلِ ٱلمسموعِ نفسِه، ٱلّذي به يَهْتدونَ وعليه يعتمِدونَ. وٱسمعْه كيفَ يَقولُ:

قُلْتُمْ: لنا خالِقٌ حَكيمٌ
قُلْنا: صَدقْتُم، كَذا نَقولُ
زَعَمْتُموه بِلا مكانٍ
ولا زَمانٍ، ألا فَقولوا:
هذا كَلامٌ، لهُ خَبيءٌ
مَعْناه: ليَستْ لنا عُقولُ (ل١٩/٤)

وفَهْمُ هذهِ ٱلقِطْعَةِ، على وَجْهِ أنّهُ يَتَصَوَّرُ ٱلحَقيقةَ ٱلإلهيّةَ بمَكانٍ وزَمانٍ، سَذاجةٌ تُعبّرُ عن أنّ ٱلقائلينَ به وبِمِثْلِه لا يفْهمونَ ٱلمعرّيَّ في مَلاحِنِه، بلْ عَسيرٌ عليهم فهمُه. وذلكَ لأنّكَ حينَ تَقولُ «خالق» لَزِمَكَ ٱلقَوْلُ بالزّمانِ لُزوماً غيرَ مُنْفَكٍّ، أردْتَ أم لم تُرِدْ، ولذا عَقَّبَ ٱلمعرّيُّ على هذا بقَوْلِه ساخِراً: هذا كلامٌ له خَبيءٌ، وٱلقَصْدُ أنّه هُنا لا يُقرِّرُ رأياً كما وَهِموا، بلْ يَطْرَحُ فسَادَ

(٩) الموهِت: ٱلمُنتِن الشّديد النّتنَ.
(١٠) إشارةٌ إلى قانونِ ٱلإلزامِ وٱلكَسْرِ عَلى ٱلخَصْم.

ٱلآستدلالِ على الدَّعوى بما يُنتِجُ عكسَ ٱلمُدَّعى، أو بمُصادَرَة.

ومنَ ٱلخَيْرِ أن يَعودوا إلى دَرْسِ ما تُسمِّيه ٱلباطنيّةُ منهجَ ٱلإلزاماتِ وٱلكَسْرِ على ٱلمُخالفينَ، وقد أعطى نَموذَجَها الشّهرستانيّ في **الملل والنحل** حينَ عَرَضَ للباطنيّة وحديثِها.

ومِن ٱلخَيْرِ أيضاً أن نُثبِتَ هُنا في مَعْنى **لزوم ما لا يلزم**، أنّه بملاحِنِه يُفيدُ لُزومَ ما يظُنُّ ٱلمُخالفونَ أنّه لا يَلْزَمُهُم، وعليه فـ **اللّزوميّات** بمَلاحِنِها طائفةٌ من ٱلإلزاماتِ وٱلكَسْرِ على ٱلخُصومِ الدّينيّينِ وٱلعَقْليّينَ. على أنّ ٱلباحثينَ في أدبِ ٱلبحثِ وٱلمُناظرةِ يَذْهَبونَ إلى أن للمُناظِرِ سبيليْن: أوّلهما، الرّدُّ بٱلمَنْعِ أيْ بٱلْتِماسِ أدلّةٍ جَديدةٍ يُفْحِمُ خَصْمَه؛ ثانيهما، الرَّدُّ بالتّسليمِ أو بالتَّنزُّلِ أيْ يُسَلِّمُ لخصمِه أدلّتَهُ نفسَها ويَستخرِجُ منها ما يُبطِلُ مُدَّعاهُ، وهذا النّوعُ هو ما كانَ يُسمّيه ٱلباطنيّونَ ٱلإلزامَ وٱلكَسْرَ على ٱلخَصْمِ.

جـ ـ ضلال ٱلحقائق: يَرى أنّ ٱلحقائقَ قدَ تتركَّبُ أحياناً بشَكْلٍ غيرِ دَقيقٍ، فتوهِمُ ٱلحقَّ في غَيرِ ٱلحقِّ نَتيجةً للخَطَأِ في أُسلوبِ سبْكِها وصِياغتِها.

فإنّ ٱلحقائقَ ألفاظٌ فِكْريّةٌ كما عرَفْنا، فيَقعُ ٱلخطأُ في أُسلوبِ تركيبِها جُملةً، مثلَما هو ٱلأمرُ وٱلواقعُ عندَ ٱلقائلينَ بٱلعَدِدِ من تُبّاعِ فيثاغورَ، ٱلّذينَ ٱنتَهوْا إلى ٱلقولِ بالتّناسُخِ، شاؤوا أم أَبَوْا. ومثلُ هذهِ الطّرائقِ لا توصِلُ أبداً إلى ٱليَقينِ، لأنّها أساليبُ مُلْتوِيةٌ:

وقَدْ عَدِمَ التَّيَقُّنُ في زَمانٍ،
حَصَلْنا من حِجاهُ على التَّظَنّي

فقُلْنا للهِزَبْرِ: أأَنتَ لَيثٌ؟
فَشَكَّ وقالَ: عَلّي أو كأنّي (ل٤/٣٢٦)

بينَما ٱلمعرّيُّ يَسْتَوْحي قاعِدةَ ٱلأُسلوبِ ٱلفِكريِّ من قاعِدةِ التّركيبِ ٱللُّغويِّ، ولا سيَّما قواعدُ ٱلفَصْلِ وٱلوصلِ، وقواعدُ ٱلإسنادِ في عُلومِ ٱلبَلاغةِ ٱللُّغويّةِ.

د ـ ضلال التّعميم: كثيراً ما تَتَعَدَّدُ ظاهراتٌ مُتَشابهةٌ، ولكنّ تشابُهَها لا يَكونُ نتيجةً لسَببيّةٍ حَقيقيّةٍ مشترَكَةٍ، فيُصاغُ، من تشابُهِها الآتفاقيِّ، قانونٌ سببيٌّ، ومنهُ ضَلالُ أربابِ التّنْجيم:

أسْطُرٌ، لابَ حَوْلَهُنّ جَهولٌ
فهْوَ يَرْجو هَدْياً، بأسْطرلابِ
لا تَقِسْني على ٱلّذي شاعَ عنّي،
إنّ دُنْياكَ مَعدِنٌ للخِلاب (ل١/١٨٧)

وٱللَّوْبُ تَطوافُ الظّامِىءِ ٱلعَطْشانِ بَحْثاً عن ٱلماءِ، وإذا دقّقْنا النّظرَ في ٱلعَلاقةِ ٱلحَرْفيّةِ بين «ٱللُّبِّ»، و«ٱللَّوْبِ» نَجِدُها تامّةً، بيدَ أنّ ٱللَّوْبَ أدركَتْه «علّةُ قالَ» كما يُعَبّرُ ٱلمَعرّيُّ، إذاً فٱللَّوْبُ ٱصطلاحٌ خاصٌّ بهِ يَعْني حَيْرَةَ ٱلفِكْرِ بأوهامِ التَّعميمِ، مثلَما عَرَفْنا في السَّدَرِ ٱلّذي يَعْني حَيْرَةَ ٱلفِكْرِ بعدَمِ الدِّقّةِ وعَدَمِ ٱلآستثباتِ.

ومنَ التّعميمِ أيْضاً يَنْبُعُ ضَلالُ ٱلقائلينَ بقِياسِ الشّاهدِ على ٱلغائبِ، مثْلَ الصّوفيّةِ الشّاطحَةِ، وٱلقائلينَ بقِياسِ ٱلغائبِ على الشّاهدِ مِثْلَ ٱلمُشبِّهَةِ:

شابَ علَيْنا أمْرُنا شائِبٌ
وقَدْ وَدِدْنا، أنّه لم يُشَبْ (ل١/١٩٤)

طـوَّفْـتَ فـي الآفـاقِ عَـصْـراً، فـمـا
أسْفَرْتَ من حِنْدَسِكَ ٱلـمُظْلِمِ[١١]
سَـأَلْـتَ أقْـوامـاً، فـلـم تُـلْـفِ مَـنْ
يَـهْـديـكَ مِـنْ رُشْـدٍ إلـى مَـعْـلَـمِ (ل٤/٢٢٧)

هذهِ خُلاصةٌ سَريعةٌ خاطِفةٌ لنظريّةِ ٱلمَعْرفةِ وطَبيعةِ ٱلعَقْلِ، وفي ٱلحَقِّ أنّ نظريّةَ ٱلمَعْرفةِ عندَه من أخصبِ النّظرياتِ وأحفَلِها وأعمَقِها، وليسَتْ تَفي بها خُلاصةٌ أو خُلاصاتٌ، مهْما أُوسِعَ من جوانِبِها وأُضفيَ من حواشيها وأطرافِها، بلْ هي خليقةٌ بِكتابٍ ضَخْمٍ مُسْتَقِلٍّ، لِنرى دقّتَها وٱستيعابَها وتَفْصيلَها، ونَرى أيضاً دِقّتَه فيها وٱستيعابَهُ وتَفْصيلَه. ولعلّنا نُخرِجُ سِلسلةَ دِراساتٍ ضَخْمةٍ في ظُروفٍ أكثرَ مُناسبَةً، تتناولُه في نَفْسِه وآثارِه تَناولاً تَفْصيليّاً، يَسْتَوْعِبُ فَلْسَفَتَهَ ولُغَتَه ٱلفنّيّةَ في ٱلفَلْسَفةِ وٱلعَقْلِ. ولكنّ الشَّيءَ ٱلّذي لا يَسَعُنا ٱلآنَ إغفالُه هو أنّه كانَ أشدَّ ٱلقائلينَ بإمكانِ ٱلـمَعْرفةِ ٱلحقِّ ٱلـمُطْمَئِنَّةِ، بعدَ ٱستدْناءِ وَسائِلِها وصَبِّها في ذاتِ طالبِ ٱلمَعْرفةِ وفي فِكْرِه:
الـلُّـبّ قُـطْـبٌ، وٱلأُمـورُ لَـهُ رَحـىً
فـيـهِ تُـدَبَّـرُ كُـلُّـهـا وتُـدارُ (ل٢/١٥٠)

*

(١١) يَدُلُّ عَلى تأثُّرِه بٱبْنِ سينا ٱلّذي سَبَقَ وألْمَحْنا إليه، هذان ٱلبيتان عندَه ٱلمُشْبِهانَ بَيْتَيْنِ للشّيخِ الرّئيسِ:
لَقَدْ طُفْتُ في تِلْكَ ٱلمَعاهِدِ كُلِّها
وسَيَّرْتُ طَرْفي بَيْنَ تِلْكَ ٱلمَعالِمِ
فَلَمْ أرَ إلّا واضِعاً كَفَّ حائرٍ
عَلى ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادِمِ

الفِكْرُ حَبْلٌ، مَتى يُمْسَكْ على طَرَفٍ
مِنهُ، يُنَطْ بالثّريّا ذلِكَ الطَّرَفُ (ل٣/١٦١)

*

فَكّري أنْتِ، رُبّما هُدِيَ الإنـ
ـسانُ لِلْمُشْكِلاتِ، بالتّفكيرِ (ل٢/٢٩٧)

*

وَٱلحَديثُ ٱلمَسْموعُ يُوزَنُ بٱلعَـ
ـقْلِ فيُضْوَى إليهِ عُرْفٌ ونُكْرُ (ل٢/١٧٣)

*

العِلْمُ كٱلقُفْلِ، إنْ ألْفَيْتَهُ عَسِراً
فَخَلِّهِ، ثُمّ عاوِدْهُ لِيَنفَتِحا (ل١/٣٠٢)

*

جاءَتْ أحاديثُ إنْ صَحّتْ فإنّ لها
شأْناً ولكِنْ فيها ضَعْفُ إسْنادِ
فَشاوِرِ ٱلعَقْلَ وٱتْرُكْ غَيْرَه هَدَراً
فٱلعَقْلُ خَيْرُ مُشيرٍ ضَمّهُ النّادي (ل٢/٧٥)

*

تخيُّلٌ مِن بَني الدُّنيا غدا عَجَباً
للمُفْكِرين، وكُلُّ النّاسِ مَحسورُ
كَأنّ إعْرابَ أغرابٍ ثَوَوْا، زَمَناً
بالدّوّ فينا، بحُكْمِ النّحْوِ، مأسورُ

فَناطِقٌ يَسكُنُ ٱلأمصارَ من عَجَمٍ
نُطْقَ ٱبْنِ بَيْداءَ، لَمّا يَحْوِه سُورُ
وناظِمٌ لِعَرُوضِ الشِّعْرِ، عَنْ عُرُضٍ
وما يُحِسُّ بأنّ ٱلبَيْتَ مَكْسورُ
ومُغْتَدٍ بِحِبالِ الصَّيْدِ يَنصِبُها،
كما يَفيءُ له مِنْ ذاكَ مَيْسورُ (ل٢/١٣٤)

وتأمّلْ جيّداً عِندَه حبالَ الصَّيدِ ٱلّتي هيَ في ٱلفِكْرِ، مثلَها في يدِ ٱلقانِصِ، تَجْعَلُ ٱلمُتَعَسِّرَ مُتَيَسِّراً. أمّا ٱلمُشْكلةُ فليْسَتْ إلّا في ضَحْلِ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ ٱلعقليّةِ، وعندَ ناظِمينَ في غيرِ رَوِيّةٍ ولا فِطْنَةٍ، لا يُحِسّونَ بكَسرِ تفاعيلِهِمْ وأقيستِهِمْ. بينمَا ٱلمُغْتَدي بحِبالِ صَيْدٍ فِكريّةٍ سليمةٍ، ليسَ يَفوتُهُ ٱلقَنْصُ، وليسَ يَقْعُدُ أبَداً دونَ الظَّفَرِ، وفي هذه ٱلأبياتِ حِكايةُ ٱلفِكْرِ من أنحائِه في تَكوُّنِهِ وتَغيُّرِهِ، ثُمّ يَختِمُ حِكايتَه بقولِه:

وما أمَدٌ، في الدَّهْرِ يَبْلُغُ مرّةً،
بأبْعَدَ مِمّا نالَهُ ٱلمَرْءُ بٱلفِكْرِ (ل٢/٢٢١)

وبهذا يَكونُ أوّلَ مَنْ قالَ بِمَذْهَبِ ٱلعَقْلِ ٱلعامِّ، في بَحْثِه الصِّفاتِ ٱلأساسيّةَ... كَما نجِدُهُ أسْبقَ مَنْ قالَ بمَذْهبِ الضَّرورةِ ٱلّذي يَرى أنّ ما يَجْري في ٱلكَوْنِ من حَوادِثَ، إنّما يصدُرُ عَنْ عِللٍ ضَروريّةٍ خاضِعةٍ لقَوانينِ ٱلمادّةِ وٱلحَرَكَةِ. وهو ٱلمَذْهَبُ ٱلمَعْروفُ بٱلمَذْهبِ ٱلميكانيِّ (الميكانيكيّ) أو مَذْهبِ ٱلجَبْرِ ٱلآليِّ. ولعَدَمِ فَهْمِ دارسيه ظَنّوه يقولُ بٱلجَبْرِ.

الأساس الفلسفي العلائي

نَحتاجُ في هذا ٱلفَصْلِ إلى فَضْلِ رويّةٍ وإنعامِ نَظَرٍ وتَمَهُّلٍ بَصيرٍ، فنحنُ ٱلآنَ نُحاوِلُ ٱلكَشْفَ عَنِ ٱلأساسِ ٱلفَلْسَفيِّ ٱلعَلائيِّ، لا سيَّما وقَدْ أوردَهُ بشكلٍ إيمائيٍّ. وتَسنّى له به تَفْسيرُ كُلِّ شيءٍ وأشاعَه بٱطِّرادٍ، في مُداراتِه ٱلفِكْريّةِ وأشواطِه ٱلفسيحةِ ٱلعميقةِ في عالَمي ٱلغَيْبِ والشَّهادَةِ.

نَقَعُ عند ٱلباطنيّةِ عَلى نَظَريّةِ ٱلعَدَدِ، وأنّ الوُجودَ قائِمٌ قِيامَها وعلى مِثْلِ تَرْتيبِها، ونَجِدُ في ٱصْطلاحاتِهم كَلِمَتَيْ نِسبةٍ عَدديّةٍ ونِسبةٍ هَنْدسيةٍ، وفي ٱلاصطلاحِ الرّياضيِّ ٱلبَحْتِ تُسمَّيانِ أيضاً مُتَواليةً عَدَديّةً ومُتَواليةً هَنْدسيّةً.

وعلينا أنْ نَدْرُسَ سِرَّ هذا التَّوالي ٱلّذي بِوَعْيِهِ نَعي حَقائِقَ ٱلأشياءِ كُلِّها، ولكِنْ على ضَوْءِ مُقَدِّمَتَيْنِ أصْليَّتينِ، ٱلأولى أنّ ما كانَ بالذّاتِ لا يَتَغَيَّرُ بلْ يَتَكَيَّفُ فقطْ؛ الثّانيةُ أنّ فاقِدَ الشَّيءِ لا يُعطيه.

وهُما مُقَدِّمتانِ مَفْروضٌ فيهما ٱلبَداهةُ ٱلمُطْلَقَةُ، أو بتَعْبيرِ أبي ٱلعَلاءِ مَفْروضٌ فيهما «إصفاقُ ٱلفِكْرِ عليهِما». فإذا ذَهَبْنا نَبْحَثُ كيفَ يُنتِجُ ٱلواحدُ ٱثنينِ، وبتعْبيرٍ آخرَ كَيْفَ تُنتِجُ ٱلفرديّةُ زَوْجيّةً، وبينَهما شَبَهُ تَبائُنٍ،

مَعَ ما هو مَعْروفٌ مِن أنّ ما كانَ بالذّاتِ لا يتَغيَّرُ، وفاقِدَ الشّيءِ لا يُعطيهِ، نَجِدُهُ كَلاماً له خَبيءٌ.

بَيْدَ أنّ ٱلمَعَرّيَّ يَجِدُ تفَسيرَ هذا في ٱللُّغةِ ودلالاتِها، وذلك أنّ ٱلجُمْلَةَ ٱلإنشائيّةَ تَكونُ أمراً مثلَ «إفعلْ» في وَقْتِ كَوْنِها نهياً «لا تَفْعَلْ». وهُما مُتَبايِنانِ تَبايُنَ ٱلفَرْدِ والزَّوجِ. فإذا فَرَضْنا أنّ ٱلأمْرَ أصْلٌ فَكَيْفَ نَبَتَ ٱلنَّهْيُ منه؟ هذا شيءٌ لا يُجيبُ عنهُ ٱلعَدَدُ وتُجيبُ عنهُ ٱللُّغَةُ.

فإنّ مَفْهومَ ٱلأمرِ ٱلإيجابيِّ لا يتَحدَّدُ في التَّصوُّرِ إلّا في مَفْهومِ ٱلأمرِ السَّلْبيِّ، مثلاً، «إفْعَلْ» تَشتَمِلُ على مَفْهومَيْنِ: ٱلأمْرِ بٱلفِعْلِ وٱلأمْرِ بعدَمِ التَّركِ، ومن مَفْهومِ ٱلأمرِ الثّاني أيِ السَّلْبيِّ، يَنْبُعُ ويَتَوَلّدُ النَّهْيُ... ولِذا قالَتِ اللُّغَةُ إنّ ٱلأمرَ بالشَّيءِ أمرٌ بٱلآمْتناعِ عَنِ ٱلمُقابلِ أو مَفْهومِ ٱلمُخالَفَةِ، وخُذِ ٱلمَثَلَ في ٱلمِرْآةِ ذاتِ ٱلوَجهيْنِ ٱلمُتَقابِلَيْنِ، أحَدُهُما عَاكِسٌ للصّورَةِ، وثانيهما غَيْرُ عاكِسٍ لها، وعلى كِلَيْهِما تَشتوي حَقيقةُ ٱلمِرآة.

وهُنا يَجِبُ أن نَميلَ مَع ٱلمعرّيِّ إلى التَّحديدِ بأنّ ٱلأمْرَ بالشَّيءِ أمرٌ بٱلآمْتناعِ عن النّقيضِ، وأمّا ٱلقَوْلُ بأنّ ٱلأمْرَ بالشّيءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ فضَلالٌ، لأنّه تَزَيُّدٌ، وبتَعبيرِه ٱلعلائيِّ «إخصاب» أيْ إكثارٌ وإعطاءٌ للنّتائجِ عَفْواً ومَجّاناً، ومِثْلُهُ ٱلقولُ بأنّ ٱلأمْرَ بالشّيءِ لا يَتَضَمَّنُ نَهْياً أبداً، لأنّه تَعطيلٌ للّفظِ عن مَعْناهُ السَّلبيِّ وهو لا يتِمُّ إلّا به، وبتَعْبيرِه نفسِه «إمحال» أيْ عَقَمٌ عن ٱلإنتاجِ في مَوْضِع الضَّرورةِ ٱلعقليّة.

وعليه فالصِّدقُ ٱلعَقْليُّ إنّما يَقومُ على أنَّ ٱلأمرَ بالشّيءِ أمرٌ بٱلآمتناعِ عن النّقيضِ، وهو في قُوّةِ قَوْلِنا: ٱلأمرُ بالشّيءِ نَهْيٌ عن ٱلمُساوي للنَّقيضِ، فتَلْزَمُ إذاً الدِّقَّةُ في التَّحقُّقِ من ٱلمُساواةِ الشّاملةِ، بينَ النّقيضِ ٱلّذي من طبيعتِه أنْ يَكونَ سلبيّاً، وٱلمُساوي للنّقيضِ ٱلّذي من طَبيعتِه أنْ يكونَ

وُجودِيّاً «وكلُّ مَعْنىً له نَفْيٌ وإيجابٌ»، وإلّا فهو يَنْبوعُ أوْهامٍ حادّةٍ أيضاً. ويُريكَ بوُضوحٍ ما يَعْنونَ بالنّقيضِ ومُساويهِ هذا ٱلمَثَلَ: «العِلم، الجَهل» فٱلجَهلُ ليسَ نَقيضاً بل مُساوٍ للنّقيضِ وهكذا.

ولْننتقِلْ إلى تَفْسيرِ ٱلعَدَدِ بهذا ٱلمَنْهجِ ٱللُّغويّ، فإذا أخذْنا ٱلواحِدَ وَجدْنا له مَفْهومَيْنِ:

١ ـ الفرديّةُ وهي ذاتُ وُجودِه وهي ٱلمَفْهومُ ٱلإيجابيُّ.

٢ ـ اللّافرديّةُ وهي ٱلمفهومُ السَّلْبيُّ ٱلّذي يُحَدِّدُ الذّاتَ وٱلوُجودَ.

ومن هذا ٱلمَفْهومِ السَّلبيِّ، أيِ ٱللّافرديَّةِ، تنبُعُ وتتولَّدُ الزّوجيّةُ ٱلمُساوِيَةُ للنّقيضِ، ٱلمُساويةُ لكَلِمةِ لافرديّةٍ دونَ مَحْظورٍ: ما كانَ بالذّاتِ لا يتَغيَّرُ، ومَحْظورٍ: فاقِدُ الشّيءِ لا يُعطيه.

وفي هذهِ ٱلمَرْتبةِ يتَحَصَّلُ لنا مَعْنىً جَديدٌ، وهو الزّوجيَّةُ. فإذا أخَذْنا أبسطَ الزّوجيّاتِ، وهي ٱلآثنانِ، نجِدُ لها مَفْهومَيْنِ: إيجابيٌّ وهو الزّوجيّةُ ٱلبَسيطةُ، وسلبيٌّ وهو لازوجيّةٌ بَسيطةٌ. وتأمّلْ جيّداً كيفَ تَغيَّرَ ٱلمَعْنى الذّاتيُّ في الشّيءِ، فما كانَ باطِناً أي سَلْباً في ٱلفَرْدِ أصبحَ ظاهِراً أيْ إيجاباً في الزَّوْجِ، وما كانَ ظاهِراً في ٱلفردِ أصبحَ باطِناً في الزّوجِ كذلكَ، وتأمّلْ كيفَ يَسْتَحيلُ بٱستمرارِ ٱلمفهومُ ٱلإيجابيُّ إلى مفهومٍ سَلبيٍّ، وٱلعكسُ تَبَعاً لدَرجةِ التّركُّبِ، على نحوِ شِبْهِ جدليٍّ أو (دِياليّ).

ومِن ٱلخيرِ أن نَعْرِضها بشكلٍ آخَرَ قَصْداً للتّيْسيرِ. إنّ ٱلواحدَ فيه جانِبُ إيجابٍ وهو ٱلفَرديّةُ ٱلمُطْلَقَةُ، وهذا ٱلجانبُ لا يقبَلُ التّحوُّرَ والتّغيُّرَ من حيثُ إنّ ٱلواحِديّةَ أُسُّ ٱلحَقائِقِ ٱلأزليّةِ؛ وجانبُ سَلْبٍ وهو ٱللّافرديّةُ، ومن هذا ٱلجانِبِ السَّلْبيِّ تنبُعُ الزّوجيّةُ في ٱلآثنينِ، ٱلّتي تُصبحُ فيها جانِباً

إيجابِيّاً ظاهِراً، بينَما تَنْقَلِبُ آلفَرديّةُ فيها جانِباً سَلْبيّاً، باطِناً بِما دَخَلَها من التّركيبِ(١).

وإنّ آلمُساويَ لكلمةِ لازوجيّةٍ بسيطةٍ هو التّركُّبُ آلفَرديُّ أو وحدةُ آلكَثرةِ في تَعبير آلفلاسفةِ آلمُحْدَثينَ، ولذا كانَتِ الثّلاثةُ أوّلَ آلجَمْعِ في آللُّغةِ، ولِذا هو لَمْ يَرْضَ عنِ آلقَوْلِ بالثّلاثةِ في التّصوُّرِ آلإلهيِّ، وذلك بآلمَعْنى آلحِسابيِّ لا بآلمَعْنى آلهَنْدسيِّ كآلمُثلَّثِ، لأنّه في جَوْهرِه واحدٌ.

وفي هذهِ آلمرتبةِ تَتَحصّلُ مَعَنا آلفرديّةُ آلمُتَرَكِّبةُ كالثّلاثةِ، ونقيضُها لافَرْديّةٌ مُتَرَكِّبةٌ، وآلمُساوي لنقيضِها الزّوجيّةُ آلمُتَجَزِّئةُ أي آلأربعةُ، فآلأربعةُ في باطِنِها مُكَرَّرُ آلواحِدِ أربعَ مرّاتٍ، وفي ظاهِرِها أُولى الزّوجيّاتِ آلمُرَكّبةِ من آلاثنين.

وفي هذه آلمرتبةِ تَتحصَّلُ مَعَنا الزّوجيّةُ آلمُتَجَزِّئَةُ، ونَقيضُها لازوجيّةٌ مُتَجَزِّئَةٌ، وآلمُساوي لنَقيضِها آلفرديّةُ آلمُتَوَحِّدةُ أي خَمْسَةٌ... فآلخَمْسَةُ في باطِنِها مُكَرّرُ آلواحِدِ خَمْسَ مرّاتٍ، أي تَبَطُّنُ واحِدِيّةٍ حَقيقيّةٍ لا تَتكسّرُ ولا تَتغيَّرُ، وفي ظاهرِها تَوحُّدُ الزّوجيّةِ آلّذي هو تَحَرُّكُها إلى آلواحِدِ وآندِماجُها فيه آندِماجاً يَمْحو التّركيبَ... إذاً فَباطِنُ آلخَمْسَةِ واحِديّةٌ، وظاهِرُها أحَديَّةٌ، وخاصّيّتُها ردُّ آلمُتَرَكِّبِ إلى ما هو في قُوّةِ آلبسيطِ، فالتّوحيدُ للّهِ، والتَّوحُّدُ للنُّفوس آلجُزْئيّةِ.

ومن هذا نَسْتَخْلِصُ أنّ آلخَمْسَةَ، في رَمْزيَّتِها، أعْلى مَراتِبِ آلوُصولِ آلإنسانيِّ، وأرْفَعُ مَنازِلِ التَّوحُّدِ. ولذا كانَتِ آلحَواسُّ في آلكائِنِ خَمْساً وكانَ حاصِلُ جَمْعِ حُروفِ قانونِ النّفي وآلإثباتِ آلّذي هو (لا . إلّا)

(١) يُقرّبُ هذا آلمفهومَ إلى آلإدراكِ ما يُعرفُ آليومَ في التّحليلِ الكَهربائيّ، بآلمُصْعِد والمُهْبِط أي «الأنود والكاتود».

آلمُسْتَخْرَجُ من «لا إله إلّا آللّهُ»، كما يجِدُ آلمعرّيُّ شاهِدَه في أركانِ آلإسلامِ آلّتي هي خَمْسَةٌ، وفي الصَّلَواتِ آلمَفْروضةِ وهي خَمْسٌ. وَلْنَدُرْ قَليلاً مع آلمعرّيِّ في **اللّزوميّات** قال:

ويَجْمَعُنا من صَنْعَةِ الرَّبِّ أَرْبَعٌ
ومِنْ فَوْقِها وآلمُلْكُ لِلّه، خامِسُ (ل٣/١١)

*

وما يَجْمُلُ التَّقْصيرُ في كُلِّ مَوْطنٍ،
ولا كُلُّ مَفْروضِ الصَّلاةِ له قَصْرُ (ل٢/١١٣)

*

خَمْسَةٌ في نَظيرِها خمسُ خَمْساتٍ
تَنَمَّتْ، والنِّصْفُ في النِّصْفِ، رُبْعُ (ل٣/١٣٥)

مِنَ آلمعروفِ في الشّريعةِ آلإسلاميّةِ أنّ الصَّلَواتِ تُقْصَرُ في السَّفَرِ مَثَلاً، ولكنّ آلّذي يُقصَرُ منها هو الظُّهرُ وآلعَصْرُ وآلعِشاءُ أي الزّوجيّاتُ آلمُرَكّبةُ، أمّا صَلاةُ الصُّبحِ، وهي رَكْعتانِ، وصَلاةُ آلمَغْرِبِ، وهي ثَلاثُ رَكَعاتٍ، فلا يلحَقُهُما قَصْرٌ أصْلاً، على أنّ حاصِلَ رَكَعاتِهما خَمْسٌ بآندِماجِ آلفرديّةِ آلمُرَكّبةِ بالزَّوجيّةِ آلبَسيطةِ.

وهُنا تَلْزَمُني وَقْفَةٌ عندَ آلبَيْتِ الثّالثِ، فهو يَستَخدِمُ فيهِ مُصْطَلَحَيْن: أوّلهُما حِسابيٌّ، وهو حاصِلُ ضَربِ خَمسةٍ في مِثْلِها؛ وثانيهِما فَلَكيٌّ يَعْني قُطْرَ الدّائرةِ آلّذي يَمُرُّ بنصفَيْ قُطْبَيْها فيُرَبّعُها، وعَمَدَ في آلبيتِ إلى التّوهيمِ، ولِذا غَمُضَ فَهْمُه على شارحيهِ.

على أنّ هذا التَّوحُّدَ آلّذي تَرْمُزُ له آلخَمْسَةُ، آنتهى به ـ عَلى ما بَدا

لي - إلى ٱلقَوْلِ بوَحْدَةِ ٱلمَوْجودِ، لا وَحْدَةِ ٱلوُجودِ ٱلّتي يَعدُّها زَيْغاً مَحْضاً[٢] ومَعْناهُ أنّ ٱلموجدَ ٱلّذي مَعْنى فَسادِه في تَكثُّرِه، يَتحرَّكُ إلى تَوَحُّدِ مَوْجوديَّتِه بٱللّه، وليسَ يَتحرّكُ إلى وَحْدَةِ وُجودِه بٱللّه، هذه ٱلوَحدةِ ٱلّتي تُنافي التّجريدَ ٱلمُطْلَقَ له والتّقديسَ ٱلمُطْلَقَ أيضاً.

وكذلك يَنْتَهي التَّوحُّدُ ٱلّذي ترمُزُ له ٱلخَمْسَةُ إلى ٱلقَوْلِ بنظريّةِ ٱلمُحيطِ وٱلمُحاطِ ٱلباطنيّةِ ٱلقَديمةِ[٣]... فإذا كانَتِ ٱلفَرْديّةُ هي ٱلمُحيطَ، والزّوجيّةُ، أي التَّجزُّؤُ والتَّركيبُ هي ٱلمُحاطَ، فهُناكَ صَلاحٌ دونَ ريبٍ؛ وإذا كانَتِ الزّوجيّةُ هي ٱلمُحيطَ، وٱلفرديّةُ هي ٱلمُحاطَ، فهُناكَ فَسادٌ لا شكَّ فيه، قالَ:

قَدْ غَيَّرَ الدَّهرُ مِنْه، بَعْدَ مُبتَهَجٍ
وأُلْحِدَ السَّيْفُ فيه، بَعْدَ تَوْحيدِ (ل٧٩/٢)

السّيفُ في حَقيقتِه مُتَجَوْهِرٌ مُوَحَّدٌ، أيْ مُصْمَتٌ لا جَوْفَ له كما تُعَبِّرُ ٱللُّغةُ، فمُحيطُه إذاً ٱلفرديَّةُ. أمّا إذا أُلْحِدَ وأُغْمِدَ في شَيْءٍ فتَكونُ الزّوجيّةُ هي مُحيطَه، ويَغْدو مِثْلَ «كُلِّ مُجَوَّفٍ»، وٱلجَوْفيّةُ مَظْهَرُ ٱلفَسادِ. ولِذا رأيْنا ٱلمَعَرّيَّ ينظُرُ إلى ٱلأجْوَفِ في ٱللُّغةِ مثلَ «قالَ»، أنَّهُ يَنْبوعُ ٱلعِللِ وأعْقَدُ مَظْهَرٍ من مَظاهِرِ ٱلإعلالِ:

أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قالَ، وهي قَديمةٌ
أعْيا ٱلأطِبَّةَ كُلَّهُمْ، إبْراؤها (ل٦٢/١)

ومِن ثمّ نَستطيعُ ٱلانتقالَ إلى تَقريرِ أنّ عالَمَ ٱلكَونِ وٱلفَسادِ، بكُلِّ ما فيهِ من الصُّورِ، يَسبَحُ في مُحيطِ الزّوجيّةِ ويَنْبُعُ منها، وٱلمَعَرّيُّ يَدْرُسُه

(٢) أُنظر صفحات: ٤٥٧، ٤٦٨، ٥٨٢ من **رسالة الغفران**، ط ٱلقاهرة.
(٣) أُخِذَتْها في ٱلحَديثِ، الشّيخيّةُ نحلةُ الشّيخ أحمد الأحسائيّ والسّيّد كاظم الرّشتيّ.

على ضَوْءِ ٱلأجْوَفِ ٱللُّغويِّ في كلِّ وُجوهِه.

وٱلآنَ، لنأخُذِ ٱلبيتَ ٱلمَذْكورَ لِنرى أينَ يَقَعُ مِمّا نُقرِّرُ: ٱلمعرّيُّ يتحَدَّثُ فيه عمّا أنْزَلَتْهُ غِيَرُ الدَّهرِ في ٱلمَوْضِعِ ٱلّذي يصِفُه بأنّه كانَ بَهْجَةَ النّاظرِ، فقدْ أُلْحِدَ السّيفُ وأُغْمِدَ فيه فٱكتنَفَهُ التّجزُّؤُ والزّوجيّةُ ٱلّتي عَصَفَتْ عليهِ برياحِ ٱلفَساد...

والتَّوحّدُ، كما عَرَفْنا، هو كَوْنُ ٱلفرديّةِ مُحيطاً، ومن شأنِه أن يَقَعَ في نِسَبٍ مُتفاوتةٍ، وأنّ أرفَعَ مراتبِ التَّوَحُّدِ بشريّاً تَوحُّدُ الخَمْسَةِ، وأمّا ما دونَها، مِثْلَ تَوَحُّدِ الثّلاثةِ، فإنّها غايةٌ يَقْعُدُ عنها ٱلآستعدادُ ٱلبشريُّ، على أنّه يقعُ في عالَمِ ٱلمُفارَقاتِ، وبعبارَةٍ أوضَحَ: غايَةِ ٱلغَيْبِ.

ويَنْبغي هُنا أن نَدْرُسَ توحُّدَ الثّلاثةِ لنَرى أينَ يَقَعُ من عالَمِ ٱلغَيْبِ. عَرَفْنا فيما سبَقَ، نظريّةَ ٱلباطنيّةِ في ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وأنّه ٱلآنبثاقُ ٱلإلهيُّ ٱلأوّلُ أوْ مُستقَرُّ ٱلأمرِ ٱلأوّلِ، إذاً فٱلعَقْلُ ٱلّذي هو مُسْتَقَرُّ ٱلأمرِ يَكونُ مُتَوَحِّدَ الثّلاثةِ، وهو ٱلمُصْمَتُ ٱلحقيقيُّ ٱلّذي لا جَوْفَ له، وٱلمَصْموتُ يُرادِفُ لُغويّاً كلمةَ الصَّمَدِ، فٱلعَقْلُ ٱلكُلّيُّ، على هذا، مُتَوَحِّدُ الثّلاثةِ[٤] وهو الصَّمَدُ.

ومن حَيْثُ إنّ الصّمدَ رمزُ ٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، كان له عِنْدَ ٱلمعرّيِّ ٱعتبارٌ خاصٌّ يكشِفُ لنا عن وَجْهِ السِّرِّ في إلْحاحِه بذِكْرِه، مثلَ قَوْلِه:

لَولا التّنافُسُ في الدُّنيا، لَما وُضِعَتْ
كُتْبُ ٱلقناطِرِ[٥]، لا المُغْني ولا العُمَدُ

(٤) تأمّلْ سِرَّ مقالِ الباطنيّةِ وإخوانِ الصّفا بأنّ العَربيّةَ هي ٱللّغةُ التامّةُ، ٱلّذي ينكشفُ لك عَلى ضَوْءِ أنّ ٱلأصْلَ فيها هو الثُّلاثيُّ وأنّه هو ٱلّذي يَدورُ في كُلِّ صُوَرِ ٱلآشتقاقِ ٱلّذي تَبْعُدُ به حيناً وتَقْرُبُ به أحياناً أُخرى.

(٥) كانوا يُطلقونَ على مسائل ٱلكَلامِ، أيِ ٱللاّهوتِ، قَناطرَ التّوحيدِ وقَناطِرَ النَّجاةِ، و**ٱلمُغْني** كِتابٌ في آراءِ ٱلأشاعرةِ و**ٱلعمدُ** كِتابٌ في آراءِ ٱلمُعتزلةِ.

قَدْ بالَغوا في كَلامٍ بانَ زُخْرُفُه،
يُوهي ٱلعُيونَ، ولم تَثْبُتْ لهُ عَمَدُ
ومَا يَزالونَ في شامٍ وفي يَمَنٍ،
يَسْتَنْبِطونَ قِياساً ما لَهُ أمَدُ
فَذَرْهُمُ[٦] وَدَناياهُمْ فَقَدْ شُغِلوا
بها، ويَكْفيكَ منها ٱلقادِرُ ٱلصَّمَدُ (ل٢/١٧)

وإنّ نظريّةَ ٱلمُحيطِ وٱلمُحاطِ تَنْتَهي، على وَجْهِ ٱللُّزومِ والضَّرورةِ، بنظريَّةِ ٱلقُدرةِ وٱلقُوَّةِ. فإنّ ٱلقُدرةَ في ٱلمُحيطِ ٱلفرديِّ (دقِّقِ النّظرَ طَويلاً في السّرِّ ٱلّذي حَدا بأبي ٱلعلاءِ إلى قَرْنِه ٱلقادِرَ بالصَّمَدِ في قولِهِ «ويكفيكَ منها ٱلقادِرُ الصَّمدُ»، تَجِدْه في أنّ الصّمدَ تَوَحُّدٌ، والتَّوحُّدَ فرديٌّ، وٱلمُحيطَ ٱلفَرْديَّ قُدرةٌ).

أمّا ٱلقوّةُ فهيَ تَلْحَقُ وتَسْتَكِنُّ في ٱلمُحيطِ ٱلمُتَجَزِّىءِ الزَّوْجيِّ، وٱلقوّةُ حينَما تَكونُ مُحيطاً، كما هو الشّأنُ في الطَّبيعةِ، تَتْرَعُ بٱلفَسادِ وٱلفَناءِ وٱلآنحِلالاتِ والشّرِّ والظُّلمِ... إلخ، فهَدَفُ ٱلمُتَوَحِّدِ هو ٱلخُروجُ من دائرةِ ٱلقُوَّةِ إلى دائرةِ ٱلقُدْرةِ...

وعَلى ضَوْءِ هذا ٱلأساسِ ٱلفَلْسَفيّ، نَفْهَمُ لِماذا جَعَلَ ٱلمعرّيُّ ٱلمُشْتَرَكَ ٱللّفظيَّ أساساً أُسلوبيّاً في ٱلفِكْرِ وفي التّعبيرِ. وذَلكَ ٱلمُشْتَرَكُ يَجْمَعُ عِدّةَ مَعانٍ في لفظٍ واحدٍ، كٱلعينِ ٱلّتي تدُلُّ على ٱلباصِرَةِ ونبعَةِ ٱلماءِ والذّهبِ... إلخ، فهذِه ٱلمعاني ٱلمُخْتَلِفَةُ تَجزُّؤٌ وزَوجيّةٌ، يُوَحِّدُها ٱللّفظُ

(٦) تأمّل دِقّة ٱلمَعرّيِّ في تَعْبيره بكَلِمة «ذَرْ» دون «دَعْ»، لأن «ذَرْ» في حَقيقةِ وَضْعِها تُفيدُ التّحذيرَ من ٱلفاسِدِ ٱلّذي تَعْلَمُ فسادَه وتأتيه، بينَما «دَعْ» تُفيدُ التّحذيرَ من ٱلفاسِدِ ٱلّذي تَأْتيه وأنت لا تَعْلَمُ فَسادَه، راجِعْ فصلَ التّفسيرِ من **مجموعة ٱلحفيد** ط، القاهرة.

آلواحِدُ آلمُشْتَرَكُ... وكذلكَ آلآستِخْدامُ آلبديعيُّ، فإنّه تَوَحُّدٌ في الضَّميرِ، ولُزومُ ما لا يَلْزَمُ إذ يَكونُ الرَّويُّ فيه مُتَوَحِّدَ رَوِيَّيْنِ... وأمّا الرَّمزيَّةُ والتَّوْرِيَةُ وآلمَلاحِنُ وآلكِنايَةُ وآلمَجازُ، فَمُتَحَرِّكاتٌ صَوْبَ التَّوَحُّدِ...

وَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيَّ من حَجْمِ آلكِتابِ ما يَتَّسِعُ لإيرادِ الشّواهدِ آلكَثيرةِ أوْ للتّفصيلِ، فقدْ دَلَلْناكَ على الطّريقةِ آلّتي هي أهمُّ ما نُعنى به في هذا آلكِتابِ، وَلَيْسَ عَسيراً التَّهدِّي إليها مع إنْعامِ النَّظَرِ وتَوْفيرِ الرّويّةِ... وآلآنَ نَتَناولُ أهَمَّ أفكارِه الرَّئيسةِ عَلى تَرْتيبِها مَوْضوعيّاً.

القسم الإلهي

يَدورُ رأيُه في الذّاتِ ٱلإلهيّةِ على مَحْضِ التّنزيهِ والتّقديسِ، وتَصَوُّرُه للصِّفاتِ تَصَوُّرٌ باطنيٌّ خالصٌ، يَقومُ على السَّلْبِ حَذَراً من التّشبيه.

وٱلمعرّيُّ يُشيرُ في **الأيك والغصون** إلى أنّه لولا الضّرورةُ ٱللُّغويّةُ للتّعبيرِ، و«لَوْلا ما أصْفق ٱلمُتَعَبِّدونَ عليه من تَمجيدِ ٱللّهِ، لوَجَبَ أن لا يُذْكَرَ ٱسْمُ ٱللّهِ تَعالى إجلالاً وهَيْبةً، وأنْ لا تُرفَعَ أُنملةٌ إلى السَّماءِ إعظاماً وتأثُّماً»، لأنّه يَعْلَمُ ٱلحاجَةَ وٱلخَلْجَةَ مَهما دقَّتْ؛ والدُّعاءُ مُوهِمٌ وهو يُنافي التّقديسَ ٱلمُطْلَقَ.

وإذا ٱستعَدْنا إلى الذِّهنِ أساسَه ٱلفَلْسَفيَّ، وأخْذَهُ التّصوّرَ ٱلإلهيَّ به، نُدْرِكُ أنّه يَدورُ على آيةِ «هو ٱلأوّلُ وٱلآخِرُ والظّاهرُ وٱلباطِنُ» (الحديد ٥٧:٢٣) .

وذلكَ أنّ ٱللّهَ، من حَيْثُ هو هو في ذاتِه، واحِدٌ أوّلُ باطِنٌ. ومن

جِهَةِ تَحَرُّكِنا إليه، وبتَعبيرٍ أكثَرَ تَعْميماً، تَحَرُّكِ ٱلمَوْجودِ إليه، أحدٌ وآخَرُ أو ظاهِرٌ[1].

فَٱللّهُ، إلهيّاً، واحدٌ، وهو، بَشَريّاً أو كَوْنيّاً، أحدٌ (أي مِن نافذةِ التأمُّلِ وٱلٱنجِذابِ ٱلبَشَريِّ أو ٱلكَوْنيِّ). فَٱلأحَدُ يُعَبِّرُ عَمّا هو في التَّصَوُّرِ ٱلأكملِ تَجْريديّاً، وهو مَوْرِدُ الصِّفاتِ، وتأمَّلْ على هذا ٱلأساسِ آيةَ «قُلْ هو ٱللّهُ أحَدٌ»، (الإخلاص ١١٢:١) يَنْكَشِفْ لَكَ أنّ التّعبيرَ بالضّميرِ، أيْ بـ «هو» لإفادةِ أنّ ٱلحَقيقةَ من حَيْثُ هي هي، فوقَ التّحديدِ وٱلإدراكِ والتَّصَوُّرِ. وكلُّ صِفَةٍ إدراكٌ أو تَتَضَمَّنُ نَوْعاً من ٱلإدراكِ، وهو يُنافي التّنزيهَ ٱلمُطلَقَ.

ويَجِدُ الشّاهِدَ، في آية «ولم يكُن له كُفُواً أَحَدٌ» (الإخلاص ١١٢:٤)، فلو لَمْ يكُنْ في ٱلأحَدِ جانِبُ ٱشتراكٍ لَما ٱحتاجَ إلى نَفْيِه، إذاً فَٱلهُوِّيَّةُ ٱلإلهيّةُ تَمُدُّ بالصِّفاتِ، وليسَتْ هي مَوْرِدَها ومحلَّها.

وٱلأحدُ تَمثيلاً في مرتبةِ الٱثنينِ، والصَّمَدُ، أي تَوَحُّدُ ٱلمُفارقاتِ، في مرتبةِ الثّلاثة.

وٱللّهُ بٱلمَعْنى ٱلأوّلِ من حَيْثُ هو إلهيٌّ، وبٱلمَعْنى الثّاني والثّالثِ من حيثُ إدراكُنا بَشَريّاً على تفاوُتٍ في ٱلقيمةِ وٱلمنزِلة.

فالتَّوجُّهُ إليه بٱلمَعْنى الثّالثِ عِبادةُ الدَّهْماءِ، وبٱلمَعْنى الثّاني عِبادةُ ٱلمَرْضى ٱلفِكريّينَ، وبٱلمَعْنى ٱلأوّلِ عبادةُ ٱلأصِحّاءِ ٱلمُتَوَحِّدينَ. ولعلّ أجْمَعَ أبياتِه:

(١) يُقَرِّبُ ٱلّذي نَعْني ما يُعرفُ في الرّياضيّاتِ وٱلفيزياءِ ٱلحديثةِ بٱسْمِ «الزمكانيّة» أو (الزّمان - المكان)، وأيضاً ما يُعرفُ بٱلبُعدِ الرّابعِ في النِّسبيّة، فيَنبَغي لِتَصِلَ إلى حَقيقةِ فِكْرِ ٱلمَعَرّيِّ أن تَتَعَمَّقَهما، وأغني نَظَرِيَّةَ «سمطس» والنِّسبيّة ٱلعامَّةَ. أنْظُرْ كِتاب **فلسفة المُحدَثين والمُعاصِرين**، ص ٢١٥ - ٢٢٠.

إلــهُــنــا آلــلّــهُ، مَــلْــكٌ أوّلٌ أحَــدٌ،

تُـطيعُه مِنْ صُنوف النّـاسِ، آحـادُ (ل٢/٢٨)

*

آلـلّـهُ لا رَيْـبَ فـيـهِ، وهـو مُـحـتَـجِـبٌ

بـادٍ، وكُـلٌّ إلـى طَـبْـعٍ لـه جُـذِبـا (ل١/١٢٧)

*

تَــوَحَّــدْ، فــإنّ آلــلّــهَ رَبَّــكَ واحــدٌ،

ولا تَـرْغَـبَنْ فـي عِـشْـرَةِ الـرُّؤَسـاءِ (ل١/٧١)

ويَنْبَغي أن تَعْلَمَ أنّ التَّعْبيرَ في هذه آلمَباحثِ يَستنِدُ إلى الدِّقَّةِ آلبالغةِ، ويَقومُ عليها، وأمّا إطْلاقُها بِدونِ وعيِها آلوعيَ آلحقَّ، فيَجعَلُكَ في عِمايةٍ عن كُنْهِها وجوهرِها:

فـي كُـلٍّ أمـرِكَ تَـقْـلـيـدٌ رَضيـتَ بـه،

حَـتّـى مَـقـالُـكَ: ربّـي واحِـدٌ أحَـدُ (ل٢/٢٠)

أمّا آلمعرّيُّ فيُريدُنا أنْ نفهَمَ ونُدرِكَ أنّ قَوْلَنا الأحدُ في مَرْتبةِ آلآثنينِ، والصّمَدُ في مرتَبَةِ الثّلاثةِ، لا يتَضَمّنُ أبداً أنّهما يَعْنيانِ آلعَدَدَ، بل لقدْ صَرّحَ آلمعرّيُّ بغوايةِ آلقائلينَ بآلآثنين والثّلاثةِ وأشباهِهم:

عَـمَـدْتُمْ لـرأْيِ آلـمَـثْـنَـويَّـةِ، بَـعْـدَما

جَرَتْ لـذّةُ الـتّوْحيـدِ في آلـلَّـهَـواتِ (ل١/٢٣٣)

*

وفــي مُــهَــجِ آلأنــيــسِ مُــثَــلِّــثــاتٌ

عَــلــى عِــلّاتِــهــا، ومُــوَحِّــداتُ (ل١/٢١٣)

وإذا تأمّلْتَ ما تَقَدَّمْنا به من الشَّرْحِ، وقَفْتَ عَلى طَريقةِ آلمعرّيِّ في

ٱستِخلاصِ ٱلحَقيقةِ ٱلمُشْتَرَكَةِ من ٱلأديانِ ٱلمُتنَافِرةِ، وكيفَ هو يُحيلُها إحالةً طَريفةً فيها أُلفةٌ وفيها ٱنسجامٌ.

التّصوّر العامّ
في المضمار الإلهيّ والماورائيّ (الميتافيزيقيّ)

نَتَقَدّمُ بَيْنَ يديِ ٱلبَحْثِ برَسْمِ ٱلخُطوطِ ٱلأساسيَّةِ، ٱلّتي إذا ٱشتَبَكَتْ وٱئْتَلَفَتْ مُنْتَظِمَةً، أعطَتْنا حَقيقةَ تصَوُّرِه عن الشّكلِ ٱلمُفْرَغِ فيهِ العالمُ.

رأيْنا عندَ ٱلمَزْدَكيّةِ ٱلقولَ بـ «النّورِ والظُّلمَةِ، وأنّ ٱلأُصولَ ثلاثةٌ، ولها في ٱلعالَمِ ٱلأعْلى أربعُ قُوىً، وهي تُدَبِّرُ ٱلعالَمَيْنِ ٱلأعْلى وٱلأسْفلَ بسَبْعَةٍ، وهذه السَّبعةُ تَدورُ في ٱثنيْ عَشَرَ. وكلُّ إنسانٍ ٱجتمَعَتْ له هذه ٱلقُوى صارَ ربّانيّاً في ٱلعالَمِ السُّفليّ»:

جَسَدٌ مِن أرْبَعٍ تَلْحَظُها،

سَبْعَةٌ راتِبَةٌ في ٱثْنَي عَشَرْ (ل٢/٣٠٣)

ورَأيْنا في مِلَلٍ كَثيرةٍ، ٱلقَولَ بالثّلاثةِ في التَّصَوُّرِ ٱلإلهيّ... ونَرى في ٱلعَدَدِ، وأوَّلُهُ الثّلاثَةُ، أنّ مراتِبَهُ أربعٌ: آحادٌ، عَشَراتٌ، مِئاتٌ، أُلوفٌ... ونَرى في السَّنَةِ أنّها ثَلاثةُ أشْهُرٍ، دائرةٌ في أربعةِ فُصولٍ... ونَرى في ٱللُّغةِ أنَّ ٱلأصْلَ ٱلمُجَرَّدَ مُتَوَحِّدُ ثَلاثةِ أحرفٍ، وهذهِ الثّلاثةُ تَدورُ في أربعِ حالاتٍ إعرابيّةٍ: ضَمٌّ وفتحٌ وكَسرٌ وسُكونٌ...

من هذه ٱلمَجْموعةِ ٱلمُتَنافِرةِ ٱلمُختلفَةِ، خَرَجَ ٱلمعرّيُّ بنَظَريّةٍ طَريفةٍ تُؤَلِّفُ بَيْنَها، ومِن الضَّروريِّ هُنا أن نَعْرِفَ كَيْفَ ٱمتزجَتْ وٱستحالَتْ في «كُلٍّ نظريٍّ» غريبٍ.

ولكيْ نَلمِسَ نظريّتَهُ لَمْساً، يَلْزَمُنا أنْ نُبْعِدَ أبداً عن أذهانِنا ٱلأساسَ ٱلفَلْسَفيَّ ٱلّذي سَبَقْنا بٱلحَديثِ عنه.

عَرَفْنا هُناكَ أنّ ٱلواحدَ يُنتِجُ ٱلاثنينِ بِتَوَسُّطِ السَّلْبِ، فٱلاثنانِ تُبْطِنُ ٱلواحِدَ، فهي كائنٌ إيجابيٌّ ٱنبثَقَ بتوَسُّطِ مَفْهومٍ سَلْبيٍّ، وأنّ ٱلأحدَ في جَوْهَرِهِ ما قامَ بٱلواحِدِ، وٱلاثنينِ واحدٌ مُكَرَّرٌ، إذاً هي ٱلأحدُ ٱلواردُ بلغةِ ٱلقُرآنِ. ومن هُنا نَرى كَيْفَ تَلتقي الزّرادشتيّةُ وفُروعُها بٱلإسلامِ في هذا ٱلمعنى التَّجريديِّ، أمّا زَيْفُها فَمَبْعَثُه سَذاجَةُ ٱلمُقَلِّدينَ ٱلّتي أوقعَتْهُم بالشِّرْك.

وعَرَفْنا أيضاً أنّ الثّلاثةَ، ٱئتلافُ ٱلاثنينِ مع ٱلواحِدِ في شَكْلٍ كُلٍّ لا يَنقَسِمُ، ولِذا كانَ أوّلَ ٱلعَدَدِ. ومن ثَمَّ يَتحَصَّلُ مَعَنا: واحدٌ، أحدٌ، تَوَحُّدٌ مُصْمِتٌ، أي تَوَحُّدُ ٱلكُلّيّاتِ، وهذا ٱلأخيرُ هو ٱلمُعَبَّرُ عنهُ في لُغَةِ ٱلقُرآنِ بالصَّمَدِ. ومن هُنا يَتّضِحُ كيفَ تَلْتَقي بٱلإسلامِ ٱلمِلَلُ ٱلقائلةُ بالثّلاثةِ على هذا ٱلمعنى التّجريديِّ، وسَذاجةُ ٱلمُقَلِّدينَ أوقعَتْهُم في شَيْئيّةٍ حادّةٍ، دفَعَتِ ٱلمَعَرّيَّ دَفْعاً إلى تَجْريدِ حَمَلاتِه ٱلقاسيةِ على أوْهامِ سذاجَتِها.

وعَرَفْنا هُناك أيضاً أنّ ٱلأربعةَ ٱئتلافُ زَوْجِيَّتَيْنِ إيجابيّتَيْنِ، فكانَتْ تَرْكيباً حَدَثَ منه مَبْدأُ ٱلوُجودِ، ولذا نَرى في ٱلفَلْسَفَةِ الطّبيعيّةِ ٱلإغريقيّةِ أنّ ٱلأركانَ أربعةٌ: ٱلماءُ والتّرابُ والنّارُ وٱلهواءُ، وأنّ ٱلأخلاطَ في الطّبيعةِ ٱلحَيّةِ أربعةٌ: ٱلحرارةُ وٱلبُرودةُ والرُّطوبةُ وٱليُبوسَةُ:

والنّاسُ من أرْبَعِ شَتّى، إذا آئتَلَفَتْ
إلى سَبْعَةٍ، في آلحُكْمِ تَختَلِفُ (ل٣/١٦٠)

وإذا سَمَحْنا لأنفُسِنا بتَخَيُّلِ صُورةٍ على مَنْهَجِه، فإنّنا نرسُمُها على هذا الشَّكْلِ:

إنّ آلواحدَ آلمُطْلقَ يَدورُ حولَ ذاتِهِ أبَداً، تارةً عَلى جانِبِ آلإيجابِ وتارةً عَلى جانِبِ السَّلْبِ، ومن دَوْرتِه على السّلْبِ آنبثَقَتِ آلآثنانِ وآنفصَلَتْ، وآبتدأتْ تَدورُ حولَ ذاتِها أيضاً، تارةً على جانِبِ آلإيجابِ وتارةً على جانبِ السّلْبِ[1]. ومن دَوْرتِها على جانبِ السَّلبِ مَاسَّتْ، من قُرْبٍ فَقَطْ، مَدارَ آلواحِدِ على جانبِ آلإيجابِ، فآنبثَقَتِ الثّلاثةُ وآنفصَلَتْ مُنْجَذِبَةً إلى آلواحِدِ، مَدْفوعةً عن آلآثنينِ، وآبتدأتْ تَدورُ حولَ ذاتِها كذلكَ، ومن دَوْرتِها على جانبِ آلإيجابِ تَنْشَأُ آلكائناتُ آلمُفارقَةُ آلأثيريَّةُ.

ومن دَوْرَةِ آلآثنينِ عَلى جانبِ آلإيجابِ آنبثَقَتِ آلأربعةُ وآبتدأتْ تَدورُ حَوْلَ ذاتِها، ومنْ دَوْرَتِها على جانِبِ آلإيجابِ تَوَلّدَتِ آلأرْكانُ آلأربعةُ آلّتي هي آلماءُ والنّارُ... إلخ، متجزّئةً متوزِّعَةً، إذْ هي، أيِ الزّوجيّةُ، لا تَملِكُ عُنصُرَ التّأليفِ بَلِ التَّعدُّدِ والتَّجزُّؤِ.

سَتْرٌ وبُخْلٌ، والتَّجنُّبُ والنَّوى
أسْتارُ مِثْلِكَ، دونَنا إسْتارُ (ل٢/١٥١)

وآلإستارُ، كَما هو مَعروفٌ، كَلمةٌ دَخيلةٌ من آليونانيّة تَعْني آلأربعةَ، وآستَعْمَلَها في آلتجزُّؤ كما تَرى.

(١) يُقرِّبُ ما نَعْني دِراسةُ آلمَداراتِ آلفَلكيّةِ وَفقَ رأيِ «كبلر» بشَكْلٍ متعمّقٍ... كَما يقرِّبُهُ دِراسةُ دَوَرانِ الإلكتروناتِ حَوْلَ النّواةِ ولا سيّما في النَّظائِرِ.

وفي دَوْرَتِها على جانبِ السَّلْبِ ماسَّتْ مَدارَ الثّلاثةِ، فآنبثَقَتِ السَّبعةُ آلّتي آكتسَبَتْ عُنْصُرَ التّأليفِ، وآبتدأتْ تَدورُ. ومن دورانِها على جانِبِ آلإيجابِ تألّفَتِ آلمُتجزّئاتُ وآتّحدَتْ في آلمُتَجسّداتِ الثّابتةِ أو «آلبنائيّةِ» كالسّماواتِ السَّبْعِ وآلأرَضينَ السَّبْعِ... إلخ.

وآنبثَقَتْ بطَفْرةٍ آلاثنا عَشَرَ آلّتي آبتدأتْ تَدورُ، ومن دَوَرانِها تألّفَتِ آلمُتَجزّئاتُ وآتّحدَتْ في آلمُتَجسّداتِ آلمُتَغيِّرةِ أو آلإعْرابيّةِ كالنّباتِ وآلحيوانِ... إلخ:

طُـرُقُ آلـعُـلـى مَـجْـهـولَـةٌ، فـكَـأنّـهـا
صُـمُّ آلـعَـدائِـدِ، مـا لَـهـا أجْـذارُ (ل٢/١٥١)

وبآلاثْني عَشَرَ ينتَهي الدّورُ، ويَتِمُّ آلأُفُقُ، وشاهِدُ هذا في آللُّغةِ، فَقَدْ قَرّرَتْ أنّ آبتداءَ جَمْعِ آلقِلّةِ الثّلاثةُ، وآبتداءَ آلكثرةِ آلاثنا عَشَرَ. وهكذا تَذهَبُ آلأشياءُ في مداراتِها بينَ كَوْنٍ وفَسادٍ، على آلآحادِ وآلعَشراتِ وآلمئاتِ وآلألوفِ، إلى أنْ تَبلُغَ النّهايةَ في آلاثنَيْ عَشَرَ من خانةِ آلأُلوف. فإنّ السَّنَةَ وحدةُ التَّغَيُّرِ الصُّغرى وهي آثْنا عَشَرَ شهراً، وإنّ وَحدةَ التَّغيُّرِ آلكُبرى، أيْ عُمرَ آلكَوْنِ وآلفسادِ، آثْنا عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ[٢]، وهكذا دَواليك...

وإنّ الثلاثةَ في دَوْرَتِها على جانِبِ آلإيجابِ، قدْ تُماسُّ آلاثنينِ في دَورتِها على جانبِ آلإيجابِ أيضاً، فتَنبثِقُ آلخَمْسَةُ آلّتي هي تَوَحُّدُ آللاّمُصْمِتِ، أي تَوحُّدُ آلجُزْئيّاتِ، وهي آلمَنْزِلةُ آلّتي في طَوْقِ آلاستعدادِ آلبشريِّ إدراكُها...

ومِن هذا آلعَرْضِ، يَتبيّنُ لنا مَعْنى الزّمانِ عِنْدَ آلمعرّيِّ، وهو أنّه

(٢) راجِع **الملل والنّحل** للشّهرستانيّ عَلى هامِشِ الفَصْل، ج ٢ ص ٦٩، ولهمْ عَلى كُلِّ هذا براهينُ من آلهندسَةِ آلفلكيّةِ.

هذه ٱلآلتقاءاتُ والتّماسّاتُ. ومَعْنى ٱلأقدارِ أيضاً، وهي تَجيءُ خَيّرَةً إذا كانَ ٱلآلتقاءُ على وَجْهِ ٱلإيجابِ، وشِرّيرةً إذا كانَ على وجهِ السَّلْبِ.

وإذا صَحَّ هذا، فما ٱلفَرْقُ بينَ الزَّمانِ وٱلأقْدارِ؟ عندَ التّأمُّلِ نَجِدُ ٱلفَرقَ قائماً على أنّ الزّمانَ هو ٱلآلتقاءُ نفسُه، بينَما ٱلأقدارُ تَدورُ على ما في ٱلآلتقاءِ مِن سَلْبٍ وإيجابٍ.

وهذا ٱلعَرْضُ يأخُذُ بِنا في ٱتّجاهِ تَقسيمٍ لا غِنىً عنه، بسبيلِ تَكوينِ معرفَةٍ صَحيحةٍ بالنّظريّةِ ٱلمَذْكورةِ، وهو أنّ الزّمانَ يُعيِّنُهُ ٱلواحدُ وهو بأُفُقِهِ فَوْقَه، وذلكَ لأنّ الزَّمانَ ليسَ ٱلحركةَ بلِ ٱلآلتقاءُ، وليسَ في أُفُقِ ٱلواحدِ ٱلْتِقاءٌ، وإنّما ٱنجذابٌ ومُماسَّةٌ من قُرْبٍ فَقَطْ.

وأمّا الزَّمانُ في أُفُقِ ٱلآثنينِ والثّلاثةِ، وبتَعْبيرٍ آخرَ في أفقِ ٱلأحدِ والصَّمدِ، فإنّه ثابتٌ لا يَتغيّرُ، أي كـ «ٱلبناءِ النَّحْويِّ» لا يُدرِكُهُ تغيُّرُ ٱلإعرابِ. فالزَّمانُ في هذا ٱلأُفُقِ هو الدَّهْرُ، ومن هنا يَتحدّدُ لنا مَعْنى ٱلحديثِ ٱلّذي يُلِحُّ ٱلمعرّيُّ في التَّعلُّقِ به «لا تَسُبّوا الدَّهرَ فإنّ ٱللّهَ هو الدّهرُ»:

ولو طارَ جِبريلٌ بَقِيَّةَ عُمرِهِ،
عن الدَّهرِ، ما ٱسْطاعَ ٱلخُروجَ من الدَّهرِ (ل٢/٢١٥)

ومَعنى عَدَمِ تَغَيّرِه أنّ ٱلآلتقاءاتِ في هذه ٱلآفاقِ قائمةٌ بٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، فلا تَجيءُ إلّا على قَصْدِ نَسَقٍ:

تَعَلَّقُ أُذْنَ الدَّهْرِ قُرطاً ولم يَكُنْ
لِيُخْلَجَ، وٱلقُرطانِ يَخْتَلِجانِ (ل٤/٣١٤)

وأمّا هو في أُفُقِ ٱلأرْبعةِ فَزمانُ مُتَغَيِّرٍ كٱلإعرابِ النَّحْوِيِّ، وذلك لأنّه قائمٌ بٱلعَقلِ ٱلجُزْئِيِّ:

والـدَّهْـرُ أكْـوانٌ، تَـمُـرُّ سَـريـعَـةً،
ويَـكـونُ آخِـرُهـا نَـظـيـرَ ٱلأوّلِ
ويُـؤلِّـفُ ٱلـوَقْـتُ، ٱلـمَـديـدُ، قِـصـارَهـا،
حَـتّـى يُـعَـدَّ مِـن الـزَّمـانِ ٱلأطْـوَلِ (ل٤/١٠٠)

وهنا نُدرِكَ أنّ ٱلٱلتقاءاتِ في أُفُقِ ٱلآثنينِ والثّلاثةِ قائمةٌ على ٱلقَصْدِ كُلَّ ٱلقَصْدِ، لأنّها في مُحيطِ عَقْلٍ كُلِّيٍّ، وهي أقدارٌ خَيِّرَةٌ لذلكَ أيضاً، بينَما ٱلٱلتقاءاتُ، أيِ ٱلأقْدارُ، في أُفُقِ ٱلأربعةِ وما تَحْتَها، فتَقومُ على ٱلٱتّفاقِ وعَدَمِ ٱلقَصْدِ، لأنّها في مُحيطِ ٱلعَقْلِ ٱلجُزئيِّ:

وَالِـدُنـا الـدَّهـرُ، بِـهِ طَـيْـشَـةٌ،
فـلَـيْـسَ فـيـه مـن بَـنـيـهِ حَـلـيـمْ (ل٤/٢٤١)

وكُلَّما زادَتِ النِّسبةُ نُزولاً إلى تَحْتُ، تَزيدُ جُزْئيّةُ ٱلعَقْلِ حتّى تَغْدُوَ وٱلٱلتقاءاتُ خَبْطَ عشواءَ إلّا قَليلاً، إذاً فٱلأقدارُ في الشّيءِ وليسَ في ٱلغيبِ[٣]... ومِنْ وَجْهٍ آخرَ ينْتَهي هذا ٱلعَرْضُ به قَطْعاً إلى ٱلقَوْلِ بٱلقِدَمِ الذّاتيِّ، وٱلقِدَمِ الزَّمانيِّ أو الدَّهرِ، وبٱلحُدوث.

وهي تَتوزَّعُ على هذا الشَّكْلِ: في أُفُقِ ٱلواحدِ قِدَمٌ ذاتيٌّ، وفي أُفُقِ ٱلاثنينِ والثّلاثةِ قِدَمٌ زمانيٌّ... ومن أُفُقِ ٱلأربعةِ، فما سَفَلَ، حُدوثٌ يَلْتقي بحُدوثٍ. وإذا دُرْنا مَعَه في **اللّزوميّات** دَوْرةً قَصيرةً نَجِدُ هذه الأبياتَ:

كـأنّـمـا ٱلأنْـجُـمُ الـسَّـبْـعَـةُ
فـي لُـعْـبَـةِ بُـقّـارى (ل١/٨٤)

*

(٣) أقولُ، في حَذَرٍ شَديدٍ، إنّه هُنا يُشْبِهُ ديمقريطس زَعيمَ ٱلمدرسةِ الذَّريَّةِ الإغريقيّة.

وٱلقَوْلُ كٱلخَلْقِ مِنْ سَيْىءٍ ومن حَسَنٍ،
والنّاسُ كالدّهرِ، من نُورٍ وظَلْماء (ل١/٧٦)

لا تُقْدِمِ، الدَّهْرَ، عَلى مأثَمْ
وٱستغفِرِ ٱلواحِدَ رَبَّ القِدَمْ (ل٤/٢٤٢)

*

خالقٌ لا يُشَكُّ فيه، قديمٌ
وزَمانٌ عَلى ٱلأنامِ، تَقادَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

يَرَوْنَ أَباً أَلْقاهُمُ في مُؤرَّبٍ
مِن ٱلعَقْدِ، ضَلَّتْ حَلَّه ٱلأُرَباءُ (ل١/٥٠)

*

جَرَتْ زَمَناً، وتَسْكُنُ بَعْدَ حينٍ،
وأقضِيَةُ ٱلمُهَيْمِنِ لا تُجارى
لَعَلَّ قِرانَ هذا النَّجْمِ يَثْني،
إلى طُرُقِ ٱلهُدى، أُمَماً حَيارى (ل١/٨٢)

*

لَسْتُ أنْفي عَنْ قُدْرةِ ٱللّهِ أشْبا
حَ ضِياءٍ، بغَيْرِ لَحْمٍ ولا دَمْ (ل٤/٢٤٥)

العقل والرّوح والنّفس

عَرَفْنا فيما سَبَقَ أنّ ٱلعَقْلَ ٱلكُلّيَّ هو مُسْتَقَرُّ ٱلأَمْرِ ٱلأَوّل، فإذا ٱتّخذْناهُ مَوْضوعاً لحَمْلِ قانونِ النّفيِ وٱلإثباتِ عليهِ، نَجِدُ فيه جانبَ إيجابٍ، وهو كُلّيَّةُ ٱلعَقْلِ؛ وجانبَ سَلْبٍ، وهو لاكُلّيّةُ ٱلعَقْلِ، ومن هذا ٱلجانبِ السَّلْبيِّ تَنبُعُ جُزئيّةُ ٱلعَقْلِ في ٱلبشَريِّ.

وإنّ جزئيّةَ ٱلعَقْلِ مَوْضوعٌ أيضاً، وفيه، مِثْلَ ٱلأوّلِ، جانبُ إيجابٍ، وهو التّجزُّؤُ والتّرْكيبُ، ومنه تَنْبُعُ النّفْسُ؛ وجانبُ سَلْبٍ وهو ٱللّاجُزئيّةُ ومنه تَنْبُعُ الرّوحُ.

وكُلّما زادَ ٱلبَشَرِيُّ في ٱتّجاهِ الضَّراوَةِ البشريّةِ ونَهَمِ ٱلأعصابِ ٱلحيّةِ، زادَ تَرْكيباً وتضخَّمَتِ النّفسُ لَدَيه ورَبا فيه مَعْنى ٱلكونِ وٱلفسادِ بِنِسبةٍ هندسيّةٍ... ومن هذا نَفْهَمُ تَماماً أنّ النّفسَ تجزُّؤٌ، والرّوحَ تآلفٌ، وٱلعَقْلَ توحّدٌ.

وعليهِ فالتَّصوُّرُ ٱلعَلائيُّ ٱنصَرَفَ إلى أنّ كُلَّ ما يَفيضُ من مُحيطِ ٱلوَحْدَةِ ٱلمُطْلَقَةِ يَكونُ كُلّيّاً، ثُمَّ يَدورُ على جانِبِ السَّلْبِ فيهِ فيتجزَّأُ، وفي سَبيلِ التّجزُّؤِ يَتّخِذُ صُوَرَ ٱلفسادِ.

فإذا كانَتِ النّفسُ هي ٱلمُحيطَ، باتَ ٱلكائنُ في دُنيا ٱلفَسادِ والتّجزُّؤ، وإذا كانَتِ الرّوحُ هي ٱلـمُحيطَ، غدا ٱلكائنُ في حالٍ من ٱلآعتدالِ ٱلجانحِ نَحْوَ التّكامُلِ والتّوحُّدِ بٱلعَقْلِ، أو، حَسَبَ التّعبيرِ ٱلأرسطوي "Nous" (النُّوس). وٱلّذي يَتَحصّلُ لنا من هذا، أنّ ٱلعَقْلَ ٱلجُزْئيَّ ٱلبشريَّ يَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ السّلبيّ للعقلِ ٱلكُلّيّ، وهو يَمُدُّ بالزّوجيّةِ؛ والرّوحُ تَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ السّلبيّ للعقلِ ٱلجُزئيّ، وهو يَمُدُّ بالتّآلُفِ؛ والنّفسُ تَنبَثِقُ من ٱلآستعدادِ ٱلإيجابيّ للعقلِ ٱلجزئيّ، وهو يَمُدُّ بالتّجزُّؤ والزّوجيّةِ ٱلمُتراكبةِ ٱلمُترَابيةِ.

فالنّفسُ مَصيرُها للآنحلالِ وٱلبَوارِ، والرّوحُ تَذْهَبُ بٱلعقلِ ٱلجُزئيّ طائرةً مُحَلِّقَةً، كيْ ينَدمِجَ بيَنْبوعِه ٱلكُلّيّ...

وبتَسامُحٍ قَليلٍ، قَصْداً للإيضاحِ، أقولُ: النّفسُ من الطّبيعيّاتِ، والرّوحُ من ٱلعقليّاتِ، وٱلعَقْلُ ٱلجُزْئيُّ مُلتَقى السَّلْبِ ٱلعقليّ بٱلإيجابِ الطّبيعيّ... ففائدةُ الرّوحِ في ٱلكائنِ إذاً، أنّها تَعْمَلُ على مَحْوِ جُزئيّةِ ٱلعَقْلِ بالتّأليفِ، وٱلآنجذابِ به إلى فَوْقُ، وبهذا يَظْهَرُ سِرُّ ٱلكِنايةِ عنْها بٱلحَمامةِ أوِ ٱلوَرْقاءِ، فقدْ عادَتْ راجِعةً بغُصنِ الزَّيتونِ كما تُعرَفُ في رَمزيّةِ قِصَّةِ الطّوفان.

ولكنّ مِن دأْبِ ٱلجَسَدِ، بِما ٱجتمَعَ فيهِ من ٱلأخْلاطِ ٱلعامِلَةِ، ٱلغَلَبَةَ وٱلأسْرَ والسَّيْطرةَ، فعلى ٱلإنسانِ أن يُعينَ عملَ الرّوحِ فيه على تأليفِ ٱلعَقْلِ ٱلجُزْئيِّ، بٱلإضعافِ من النَّماءِ ٱلحَيَويّ وٱلآستفْحالِ ٱلعُضْويّ. بهذا يَعقُلُ ٱلمَرْءُ عَنَسَهُ ونَشاطَ ٱلجَسَدِ فيَضعُفُ عن الصِّراعِ، وتَمْضي الرّوحُ في تحْطيمِ ٱلجُزْئيّةِ ٱلعالقةِ بمَعْناهُ، حتّى تَطيفَ مثلَ دائرةٍ مُؤْتلقةٍ، تَغْدو له مثلَ ٱلقوادِمِ وٱلخَوافي، ٱلّتي تَرتَفِعُ نحوَ أُفُقِ الشّمسِ. ولْنَلْتَمِسْ أثرَ هذا

في **اللّزوميّات**، قالَ:

وأرْواحٌ سَــوالِــكُ، فــي جُـســوم،
يُــهَــنَّ بــأنْ يُــرَيْــنَ مُــجَــسَّــمــاتِ (ل١/٢٤٩)

*

خَـمِـدَتْ خَـواطِـرُ مِـنْـهُـمُ، وتَـكـاثَـفَـتْ
أرْواحُـهُـمْ، فَـكَـأنَّـهـا أجْـسـادُ (ل٢/٣٧)

*

والـرّوحُ شَـيءٌ لَـطـيـفٌ لَـيْـسَ يُـدْرِكُـهُ
عَقْلٌ، ويَسْكُنُ من جِسْمِ ٱلْفَتى حَرَجا (ل١/٢٧٣)

*

وإنّـكَ، مُـنْـذُ كَـوْنِ الـنَّـفْـسِ عَـنْـساً،
لَـتُـوضِـعُ فـي الـضَّـلالَـةِ، أو تَـخُـبُّ (ل١/١٠٦)

*

فَٱللُّبُّ إنْ صَحَّ أعْطى النّفْسَ فَتْرَتَها،
حَتّى تَموتَ، وسَمَّى جِدَّها لَعِبا (ل١/١٢٨)

*

كــأنَّ نُــفــوسَــنــا إبِــلٌ صِــعــابٌ
بُـراهـا عَـقْـلُـهـا، وٱلـعـيـسُ تُـبْـرى (ل٢/٢٠٢)

*

إنْ كانَ إبليسُ ذا جُنْدٍ يَصولُ بِهِمْ،
فـالـنَّـفْـسُ أكْـبَـرُ مَـنْ يَـدعـوهُ إبـلـيـسُ (ل٣/٢٥)

تَرَكْتِ مِصْباحَ عَقْلٍ ما آهتدَيْتِ به،
وآللّهُ أعْطاكِ مِن نورِ آلحِجى قَبَسا (ل٣/٣٤)

*

وآلـلُّـبُّ حـارَبَ فـيـنـا
طَـبْـعـاً، يُـكـابِـدُ حَـرْبَـهْ (ل١/١٤٤)

*

وفي آللُّغةِ نَجِدُ حَقيقةً ومَجَازاً، وجَمْعاً بين آلحقيقةِ وآلمَجازِ، وهي وفْقُ مَوْضوعِنا الثُّلاثيِّ من كُلٍّ وجهٍ.

فآلحقيقةُ مِثْلُ النّفسِ من الطّبيعيّاتِ، وآلمَجازُ مِثْلُ الرّوحِ من آلعَقْليّاتِ، وآلجَمْعُ بين آلحَقيقةِ وآلمَجازِ مِثْلُ آلعَقْلِ آلجُزْئيِّ من جِهَةِ أنّه أيضاً مُلْتَقى السَّلْبِ آلعَقْليِّ بآلإيجابِ الطّبيعيِّ.

لغز الحياة

مُلخَّصُ قَوْلِ دارسيهِ ٱلمُحْدَثين:

هل للخَلْقِ حِكْمَةٌ مَعْروفةٌ مُتَعَيِّنةٌ، أو أنّ ما نَراه في ٱلكَوْنِ، من مَظاهرَ وكائناتٍ، هو نَتيجةُ نِظامٍ آليٍّ ولا غاية؟

وأثارَ الرّأيانِ في ٱلبيئةِ ٱليونانيّةِ زَوابعَ وأعاصيرَ لا مجالَ للخَوْضِ فيها بإيجازٍ أو إسهابٍ، إلّا فيما يتّصِلُ بأثرِها في ٱلفِكْرِ ٱلعَرَبيّ، وعَلى وَجْهِ التَّخْصيصِ في ٱلفِكْرِ ٱلعلائيِّ.

أوّلُ ما يبدو عندَه أنّه أعرَضَ عن ٱلقولِ بٱلعِلّةِ ٱلغائيّةِ في آزْورار»...

لعلّ قضيّةً لَمْ تَشْغَلْه وتَسْتَبِدَّ بتَفْكيرِه مثْلَما شغَلَتْهُ قَضِيّةُ ٱلحياةِ أو أُحْجِيتُها، فكانَتْ شُغْلَه الشّاغلَ في كُلِّ مراحِلِ تَفْكيرِه، وفي كُلِّ ما نَظَمَ ونَثَر.

وليسَ لأنّه عانى كثيراً وكابَدَ من صُروفِها كثيراً وشَقِيَ بأعبائِها، بلْ لأنّها جَوْهَرُ كُلِّ فِكرٍ، فكيفَ بٱلمعرّيّ ٱلمُرْهَفِ ٱلحِسِّ بها وما يَختَلِفُ عليها:

وعـالَمٌ ظَـلَّ فـيـه ٱلـقَـوْلُ مُـخْـتَـلِـفـاً،
ومُـحْـدَثٌ هُـوَ مـن رَبٌّ لـه ٱلـقِـدَمُ (ل٤/٢٥٣)

ومَنْ أنْعمَ النّظرَ جيّداً في فَصْلَي ٱلأساسِ ٱلفَلْسفيّ، والتّصوُّرِ النّاموسيِّ في أُفُقِ ٱلكَوْنِ وٱلفَسادِ، من هذا ٱلكِتابِ، يَستطيعُ النُّفوذَ إلى أغْوارِ الرّأيِ ٱلعَلائيِّ بالنِّسبةِ إلى ٱلحياةِ وما يترادَفُ عليها من صُروفٍ.

فهيَ عندَه نَتيجةُ «قُدْرَةٍ عَجَبٍ» وإنْ لم يُحدِّدْ تَماماً ما يَعْنيهِ بهذهِ ٱلقُدرةِ ٱلعَجَبِ، وإنْ أوْمَأ إليها إيماءً سَبَقَ أنْ عَبّرْنا عنه بـ «كُمونِ ٱلمَعْلولِ في ٱلعِلّةِ»، وسَبَقَ للقُدماءِ أنْ مَثّلوُه بكُمونِ النّارِ في ٱلآحتكاكِ، بلْ بَلَغَ ٱلأمرُ بٱلعَقْلِ ٱلهِنْديِّ أن يَرْمُزَ إلى ٱلكَثْرةِ في ٱلوَحْدَةِ «بالتِّينِ» فهو بُذورٌ مُتراكِبَةٌ كَثْرَةٌ في حَبّةٍ فرديّةٍ مُتَوَحِّدةٍ، ولذا قُدِّسَ فيه عَلى مَعْنى ٱلكُلِّ في ٱلواحِدِ، ومِثْلُهُ الرُّمّانُ في ٱلعَقْلِ ٱلكَنعانيِّ، ولذا أُلِّهَ وعُبِدَ، وكِلاهُما يَرْمُزانِ إلى كُمونِ ٱلكَثْرةِ في ٱلوَحْدةِ:

جَـواهِـرٌ أَلَّـفَـتْـهـا قُـدْرَةٌ عَـجَـبٌ،
وزايَـلَـتْـهـا، فَـصـارَتْ مِـثْـلَ أعْـراضِ (ل٣/٦٦)

ومـعَ آطـمِـئـنـانِـه إلـى هـذه ٱلـقُـدرةِ ٱلـعَـجَـبِ، يَمْضي في التّساؤلِ عن ٱلغايةِ... ومعَ أنّ ذِهْنَ ٱلمعرّيّ ٱنْقَدَحَ بٱلتِماعاتٍ شتّى لم تَحُزْ على آطمئنانِهِ أو، بتعبيرِه نفسِه، على «يقينِه»، فظَلَّ عندَ بابِ ٱلأُحْجِيَةِ يَقْرَعُ، ولكنَّ صَدى ٱلقَرْعِ ورَجْعَه كانَ غيرَ واضحٍ، بلْ مُخْتَلِطاً آختلاطاً عَجيباً:

أرى جَـوْهـراً، حَـلَّ فـيـهِ عَـرَضْ
تَـبـارَكَ خـالِـقُـهُ، مـا الـغَـرَضْ؟ (ل٣/١٠٠)

ومَعَ أنّه يُفكّرُ بفِكْرٍ شُموليٍّ، ظلّتِ ٱلأُحْجِيَةُ تحتاجُهُ إلى إنعامِ نظرٍ أكْثَرَ، فتَحْمِلُهُ، كما تَحمِلُ سِواهُ، على السُّهادِ وإعمالِ ٱلفِكرِ ليلَ نهارَ:

لعلَّ نُجومَ ٱلليّلِ، تُعْمِلُ فِكرَها
لِتَعْلَمَ سِرّاً، فٱلعُيونُ سَواهِدُ (ل٢/٧)

وٱلمعرّيُّ ٱلمُوقِنُ بٱلقُدرةِ ٱلخالقةِ، ٱلمُطْمَئِنُّ إليها في إيمانٍ عَميقٍ، لا يُخامِرُهُ شكٌّ بأنّه لِحِكْمةٍ، ولكنْ ما هي؟

وخَلْقُكَ مِن ربِّنا، حِكْمَةٌ
لَقَدْ جَلّ عَنْ لَعِبٍ أوْ عَبَثْ (ل١/٢٦٢)

*

لَوْلا بَدائعُ دَلَّتْ أنَّ خالِقَنا
أدْرى وأحْكَمُ، قُلْنا: خَلْقُنا لَمَمُ (ل٤/١٤٨)

إنّه يتَحرّى ويَتَقَصّى ويتفَحَّصُ كباحثٍ عن أسودَ حالكٍ في ليلٍ ألْيَلَ، حَتّى يَضَعَ يدَهُ على خيطٍ يُماشيهِ ويُماشيهِ ليصِلَ إلى أنّ ٱلحياةَ في مَظْهَرِها ٱلكَوْنيِّ تَفاعُلاتٌ مبثوثةٌ(١) ومُقدَّرةٌ تَقْديراً بحُسبانٍ:

والشّمْسُ غَزّالةٌ، ولكِنْ
خُفِّفَتِ الزّايُ في ٱلغَزالَةْ (ل٤/٤٨)

ولكيْ لا يُظَنَّ أو يُتَوهَّمَ أنّ الشَّمْسَ هي ٱلفاعلةُ الأصيلةُ قال:

يَجوزُ أنْ تُطْفَأَ الشّمْسُ ٱلّتي وُقِدَتْ
مِن عَهْدِ عادٍ، وأذْكى نارَها ٱلمَلِكُ (ل٣/٢٣٦)

(١) يُقَرِّبُ ما نَعْني النَّظريّةُ ٱلمَعْروفةُ بٱسمِ لابلاس.

أمّا ٱلحَياةُ في مَظْهَرِها ٱلعُضويِّ فيُعَبِّرُ عنْه بقولِهِ:

وٱلّــذي حــارَتِ ٱلــبَــرِيَّــةُ فــيــهِ
حَـيَـوانٌ مُـسْـتَـحْـدَثٌ مـن جَـمـادِ (س١/٢٨٦)

ويَنْبَغي أن نَعْرِفَ أنّ ٱلمعرّيَّ لا يَقولُ بٱلجَماديَّة بمَعْنى ٱللّاحركةِ ٱلمُطْلَقَةِ، بل ٱلجماديّةِ الاتّزانيّةِ (الإستاتيكيّة)، ويَكونُ ٱلمعنى حينئذٍ: حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من ٱتّزانيّةٍ مُتساويةِ التَّعادلِ حَتّى كأنَّها السُّكونيّةُ، أيْ حركيّةٌ مُتَوَقِّدَةُ التّفاعُلِ من حَركيّةٍ مُتَّزِنَةِ التّعادُلِ. وبهذا ٱلمَفْهومِ يَتّضِحُ مَعْنى قولِه التّالي:

وٱلـلّـبـيـبُ ٱلـلّـبـيـبُ، مَـنْ لَـيْـسَ يَـغْـتَـ
ـرُّ بِـكَـوْنٍ مَـصـيـرُه لـلـفَـسـادِ

إذاً، فحِكْمَةُ ٱلحياةِ تَحقيقُ هذا ٱلاتّزانِ في كُلِّ ٱلحالاتِ، وبمُجَرّدِ أنْ تَزولَ هذهِ ٱلحالُ يَتعرَّضُ للفَسادِ والشُّرورِ، وتَحْقيقُها يَقْتَضينا ٱلمُعاناةَ الشَّديدةَ، وإلّا حَقَّتِ ٱلأرْزاءُ وٱلخُطوبُ وكانَ ٱلخَسارُ.

فـي كُـلِّ أرضٍ صُـروفٌ، غَـيْـرُ هـازِلـةٍ،
يَـلْـعَـبْنَ بـالـنّـاسِ أفـراداً وأزْواجـاً (ل١/٢٧٥)

*

فــيــا دارَ ٱلــخَــســارِ! ألا خَــلاصٌ،
فَـأَذْهَـبَ فـي ٱلـجُـنـوبِ أو الـشِّـمـالِ

وظُــلْــمٌ أن أُحــاوِلَ فــيــكِ رِبْــحــاً،
ولــمْ أخــرُجْ إلــيــكِ، بــرأسِ مــالِ (ل٤/٩٤)

وهذا يَسوقُنا إلى أنَّ ٱلكائِنَ يَصْنعُ قَدَرَهُ وسُلوكَهُ، إذا تَوَحَّدَ وٱتَّزنَ ٱتِّزاناً مُتعادِلاً:

دُنْـيـاكَ أشْـبَـهَـتِ الْـمُـدامَـةَ: ظـاهـرٌ
حَـسَـنٌ، وبـاطِـنُ أمـرِهـا مـا تَـعْـلَـمُ
وَالـدَّهـرُ يَـصْـمُـتُ غـيـرَ أنَّ خُـطـوبَـه
تُـرْجِـمْـنَ، حَـتّـى خِـلـتُـهُ يَـتَـكَـلَّـمُ (ل٤/١٦٢)

الأقدار

مُلَخَّصُ أقوالِ دارسيهِ ٱلقُدَماءِ وٱلمُحْدَثين أنّهُ «مُضْطَرِبٌ، يَقطَعُ بٱلجَبْرِ حيناً، لِيَقْطَعَ بٱلآختيارِ حيناً آخرَ، ليَتَرَدَّدَ بَيْنَ هذا وهذا... وجاءَ أخيراً مَنْ يَزْعُمُ أنّه كانَ يَقولُ بالنِّسبيّةِ في حُريّةِ ٱلبادِرَةِ»...

لعلَّ أكثرَ آراءِ ٱلمعرّيِّ طَرافةً ودِقّةً، هذا الرّأيُ ٱلّذي يَدورُ على ٱلأقْدارِ، فهيَ عنْدَه ليسَتْ ذاتَ مَفْهومٍ غَيْبيٍّ أبداً، كما لا تُوصَفُ بٱلجَبْرِ ولا ٱلآختيارِ...

فقدْ عَرَفْنا، في فَصلِ لزومِ ما لا يلزمُ السّابقِ، أنَّ ٱلقَدَرَ في ٱلأحياءِ هو حالةٌ عُضْويّةٌ تَستنِدُ إلى ٱعْتدالِ ٱلأخْلاطِ أو عَدَمِ ٱعتدالِها، وإلى فعاليّةِ ٱلخصائصِ والصِّفاتِ ٱلمُزَوَّدِ بها ٱلأحياءُ أيضاً:

زُحَلِيٌّ واجِمٌ، يَصْحَبُهُ
زُهَرِيُّ الطَّبْعِ، غَنَّى وزَمَرْ (ل٢/٣٠٥)

فٱلمعرّيُّ يَقولُ لنا إنَّ النّابَ في ٱللّيثِ يُحدِّدُ له مَجْرىً بعينِه، فَلا يُقالُ لِمَ يَفْتَرِسُ؟ فإنّ النّابَ تَجَسُّدُ إرادةٍ لخاصَّةٍ ومَساقٍ، وهو يَرسُمُ حَتْماً

نهجَه ٱلٱفتراسيَّ، وهكذا قُلْ في سائرِ ٱلحَيَوان:

ولَوْ لم يُقَدِّرْ خالِقُ ٱللَّيْثِ فَرْسَهُ
لمَطْعَمِهِ، لم يُعطِهِ النّابَ، والظُّفْرا (ل٢/١٨٢)

*

وما جُعِلَتْ، لأُسودِ ٱلعَرينِ،
أظافيرُ إلّا آبتغاءَ الظَّفَرْ (ل٢/٣١١)

وقَدْ عَرَفْنا أيْضاً، في فَصْلِ التَّصوُّرِ ٱلعامّ، أنّ ٱلْتِقاءاتِ وَحَداتِ ٱلقُوى تَحْتَ أُفُقِ ٱلأربعةِ، أيْ في آفاقِ ٱلكَوْنِ وٱلفسادِ، تَجْري ٱتّفاقاً دونَ ما قَصْدٍ، بلْ خَبْطَ عشواءَ، قال:

لَوْ نَطَقَ الدَّهرُ في تَصَرُّفِه،
لَعَدَّنا كُلَّنا، من التَّفَثِ

نَفَثْتُكُمْ مَرّةً، على غَلَطٍ،
مِنّي، فهلْ تُعْذَرونَ في النَّفَثِ؟ (ل١/٢٦١)

وهذه ٱلٱلتقاءاتُ، دونَ رَيْبٍ، تُحدِّدُ مجاريَ بعينِها لا مَناصَ للأحياءِ عن التَّقلُّبِ فيها قَسْراً.

فٱلقَدَرُ في ٱلأحياءِ، يُعَبِّرُ عن حالةٍ عُضْوِيّةٍ، وعن خَصائِصَ وَصِفاتٍ، فهو طَبْعيٌّ، قال:

وكُلُّ عُضْوٍ لِأمْرٍ ما، يُمارِسُه،
لا مَشْيَ للكَفِّ، بل تَمْشي بِكَ ٱلقَدَمُ (ل٤/١٥٢)

وفي ٱلكَوْنيّاتِ يُعبِّرُ عن ٱلتقاءاتٍ ٱستعداديّةٍ تَحْدُثُ ٱتّفاقاً، فهو تَصادُفيٌّ أو، بتَعْبيرِ ٱلمعرّيِّ، عَجْماوِيٌّ. وأمّا هو في ٱلإنسانِ ٱلّذي تَماثَلَ

بآلآصطفاءِ، وآستعَدَّ للخُروجِ من دائرةِ آلقوَّةِ آلعَمْياءِ إلى دائرةِ آلقُدرةِ آلبَصيرةِ، فإنّه يُعبِّرُ عَنِ آخْتيارِ آلإنشاءِ وجبريَّةِ آلمَنْزِلةِ، قال:

إذا قَـضـى آلـلّـهُ أمـراً جـاءَ مُـبْـتَـدِراً،
وكُـلُّ مـا أنْـتَ لاقـيـهِ، بـتَـسْـبـيـبِ (ل١/١٧١)

وآلـمَغْنيُّ بها أنّ مَنْ أخَذَ النّارَ بيديْهِ فآحترَقَتا، كانَ لديهِ آختيارٌ في آلإنشاءِ وهو آلأخْذُ، وجَبْرٌ في آلـمَنْزِلةِ وهيَ آلآحتراقُ... فبيـنَ النّارِ وآلآحتراقِ عَلاقةٌ غيرُ منفكَّةٍ. وهذا آلـجَبْرُ ليسَ جَبْراً بآلـمعنى آلغَيْبيِّ وآلبَشَريِّ، بل بآلـمَعْنى السَّببيِّ وآلكَوْنيِّ فقطْ.

وكلَّما أخَذَ آلبَشَريُّ نفسَه بعَقْلِ عَنْسِهِ، زادَ نَقاءً وقابليّةً لإشراقِ آلعَقْلِ آلكُلّيِّ في طبيعتِه، وبهذا يَزيدُ آلبَشَريُّ بَصيرةً وقَصْداً في آخْتيارِ آلإنشاءِ، أيْ يُصبِحُ مُسدَّداً، قال:

سَلَكْتُ طُرْقَ آلـمعالي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ:
سِيروا وَرائي، فَلـمّـا شارَفـوا خَـنَـسـوا (ل٣/١٨)

وتأمّلْ حَديثَ «فسَدِّدوا وقارِبوا»، في وُجْهَةِ أبي آلعَلاء، تَجِدْه وفْقَ ما نُقرِّرُ من مَعْنى آلقَدَرِ. وكُلَّما أطلَقَ آلبَشَريُّ لطَبيعتِه آلعِنانَ، زادَ آلْتِصاقاً بالطّبيعةِ آلعَمياءِ وزادَ خَبْطاً على سُنَنِها.

وهذه آلعَجْماويّةُ آلـمُتَمَدِّدَةُ في مَعْنى آلكائِنِ آلـمُتَلَفِّفِ وآلـمُتَلَفِّعِ بالضَّراواتِ، هي آلّتي كانَتْ هَدَفاً لحَمْلَتِه آلقاسيةِ.

ولقدْ عَبَّرَ آلمعرّيُّ عن حُريّةِ آلإنشاءِ وجَبْرِيّةِ آلـمَنْزِلةِ بأجْلى تعْبيرٍ، في قِصّةِ آلقافيةِ آلّتي أورَدَها في **رسالة الغفران**، وآلغَريبُ أنَّ كُلَّ دارسيهِ من قُدماءَ ومُحْدَثينَ لم يَفْهَموا مَغْزاها، ولم يَفْقَهوا سِرَّ إيرادِها، وهي:

قال النَّمِرُ بْنُ تَوْلَب:

أَلَمَّ بِصُحْبَتي، وَهُمْ هُجوعٌ،
خَيالٌ طارِقٌ من أُمِّ حِصْنِ

لَها ما تَشْتَهي: عَسَلاً مُصَفّىً،
إذا شاءَتْ، وحُوّارى بِسَمْنِ

وهو، أدامَ ٱللّهُ تَمْكينَهُ، يُعَرِّفُ حكايةَ خَلَفٍ ٱلأحْمَرَ مع أصحابِهِ في هذينِ ٱلبَيْتَيْنِ وهيَ أنّهُ قالَ لهمْ: لوْ كانَ موضِعَ أُمِّ حِصْنٍ، «أُمُّ حَفْصٍ» ما كانَ يَقولُ في ٱلبَيْتِ الثّاني؟ فسَكَتوا فقالَ: حُوّارى بلَمْصٍ، يَعْني ٱلفالوذَج ويُفَرِّعُ على هذهِ ٱلحكايةِ: لو كانَ مَكانَ أُمِّ حِصنٍ، أمُّ جُزءٍ وآخرُهُ همزةٌ، ما كانَ يَقولُ في ٱلقافيةِ الثّانيةِ فإنّه يُحتَمَلُ أنْ يقولَ: وحُوّارى بكَشْءٍ، مِنْ قولِهم: كَشَأْتُ ٱللّحمَ إذا شَويتُهُ حتّى يَيْبَسَ، أو يَقولُ: بوَزْءٍ من قولِهم: وَزَأْتُ ٱللّحمَ إذا شَوَيْتُه... فإنْ خَرَجَ إلى ٱلباءِ فقالَ: من أُمِّ حَرْب، جازَ أنْ يقولَ: وحُوّارى بصَرْبٍ وهو ٱللَّبَنُ ٱلحامضُ... إلخ[1].

وبَيانُ هذه ٱلقِصَّةِ ٱللُّغويّةِ في مَلاحِنِها عَلى نَظريَّتِه الثُّنائيّةِ في ٱلقَدَرِ، أنّ حُرِّيّةَ ٱلآختيارِ للشّاعرِ تَظْهَرُ في وَضْعِ أُمِّ حِصْنٍ أو أُمِّ حفصٍ... إلخ، وجَبْرِيّةُ ٱلمَنْزِلةِ ٱلّتي تَفرِضُها ٱلقافيةُ ظاهرةٌ في حُوّارى بسَمْنٍ أو حُوّارى بلَمْصٍ... إلخ، وذلك لأنّه لمّا ٱختارَ أُمَّ حِصْنٍ ٱضطُرَّ الشّاعرُ إلى إطْعامِها حُوّارى بسَمنٍ، وإذا ٱخْتارَ أُمَّ حَفْصٍ ٱضطرَّ إلى إطعامِها حُوّارى بلَمْصٍ وهكذا، فإذا قوّى ٱلبَشَريُّ طبيعَتَه ونَزَواتِه ونَزَعاتِه وغَذّاها إلى دَرَجةِ التّمَلُّؤ فإنّه يَفعَلُ ذلك بمَحْضِ ٱلآختيارِ، وحينَ يَذهَبُ، بعدَ ذلكَ، مذاهبَ في

(١) يُفَرِّعُ ٱلمَعَرّيُّ عليها قوافي من ٱلهمزةِ إلى ٱلياءِ، أُنظُرْ **رسالة** الغفران ص ١٥٤ ـ ١٦٤، ط دار ٱلمعارف، ٱلقاهرة.

الشّهواتِ وآلقَسْوَةِ والظُّلمِ فإنّه يَفْعَلُ بجبريّةِ آلمَنْزِلةِ آلّتي وَضَعَ نفسَهُ فيها بآختيارِه:

يَغْدو على خِلِّه آلإنسانُ يَظْلِمُهُ،
كالذّيبِ يأكُلُ عندَ آلغِرَّةِ، الذّيبا (ل١/١٣٥)

وخُلاصةُ النّظريّةِ عندَه، أنّ آلقَدَرَ يَنبَعِثُ من حُدودِ الطّبيعةِ، وآلبَشَريُّ يَصْنَعُ آلقَدَرَ بنفسِه ولكنَّه في النِّهايةِ يأسُرُهُ... ولْنَتَلَمَّسْ أثرَ هذا في **اللّزوميّات**، قال:

كيفَ آحتِيالُكَ وآلقَضاءُ مُدبِّرٌ،
تَجْني آلأذى، وتَقولُ: إنَّكَ مُجْبَرُ (ل٢/١٤٤)

*

وَإنْ سَألوا عن مَذْهبي فَهْوَ خَشْيَةٌ
مِنَ آللّهِ، لا طَوْقاً أبُثُّ ولا جَبْرا (ل٢/١٨٠)

*

تَعالى آلّذي صاغَ النُّجومَ بقُدْرَةٍ،
عَنِ آلقَوْلِ، أضْحى فاعِلَ السُّوءِ، مُجْبِرا (ل٢/١٨٦)

*

وأرى الأرْبَعَ آلغَرائِزَ فينا
وهيَ في جُثَّةِ آلفَتى، خُصَماءُ
إنْ تَوافَقْنَ صَحَّ، أو لا، فما
يَنْفَكُّ عَنها آلإمْراضُ وآلإغْماءُ
وَوَجَدْتُ الزَّمانَ أعْجَمَ فَظّاً
وجُبَارٌ، في حُكْمِها آلعَجْماءُ (ل١/٦٦)

القسم الطّبيعيّ[1]
تصوّرُ المعرّي النّاموسيُّ في أفق الكون والفساد

لسْنا هُنا في حاجةٍ إلى كَبيرِ شَرْحٍ حَوْلَ مسائِلِ الطّبيعيّاتِ كالزَّمانِ... إلخ، فقدْ أوضَحْنا شيئاً منه في عَرْضِ تَصَوُّرِه آلعامٌ، على أنّه لا مُتَّسَعَ لنا بهِ. وإنّما نكتَفي بإعْطاءِ صُورةٍ مُجْمَلَةٍ عن التّرابُطِ النّاموسيِّ في حُدودِ آلكَوْنِ وآلفَسادِ، وأكثَرُ ما نَعْتَمِدُ فيها على **رسالة الغفران**.

أظهَرَنا آلمعرّيُّ في الرِّسالة كَيْفَ تَسْتَحيلُ آلكلمةُ، أو إرادتُها، آستِحالةً مِثْلَ آسْتحالَةِ آلعِلّةَ في آلمَعْلولِ، في عَلاقتِها آلاَضطراريّةِ وعدمِ آلاَنفصامِ الزَّمنيِّ، وآلجديدُ في مذهبِهِ آلعِلِّيِّ، أنّ آلعِلَّةَ هيَ آلجَوْهَرُ في آلمَعْلولِ وإنّما آلفَرْقُ إضافيٌّ.

وأهمُّ ما يَمتازُ به مذهبُه أنّ آلمَعْلولَ ذا وُجودٍ كُمونيٍّ في آلعِلَّةِ، ولِذا هو يَنْبَثِقُ آنبثاقاً عفويّاً، في آلوُجودِ لا في آلخصائِصِ والصِّفاتِ، وفي تَسَلْسُلِ آلعِلَلِ تَظهَرُ مُقْتَضَياتُها على وَجْهٍ حَتْميٍّ.

(١) قالَ في نَعْتِ الكلمةِ: وهذه الكلمةُ الطيبةُ كأنّها المعنيّةُ بقوله: «ألم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مثلاً، كلمةً طيّبةً كَشَجَرَةٍ طيّبةٍ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ تُؤْتي أكلها كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها إلخ»، أنظر ص ١٤٠ من الرسالة.

فصِفَةُ الشّرِّ أثرٌ آنفِعاليٌّ عن آلعِلّةِ آلقريبةِ، وهو في آلعِلَّةِ القريبةِ أثرٌ آنْفِعاليٌّ عن التّركيبِ. وهكذا يَمُرُّ آلمَعْلولُ في سِلْسلةِ التَّركُّبِ، فآلمُركَّبُ آلأوسطُ وآلمُرَكَّبُ آلأخيرُ، مُنْفَعِلانِ بآلعِلَّةِ آلأُولى وبخَصائِصِ آلعِلَلِ آلقريبةِ، ولكنَّهُما دائماً أشدُّ آنْفِعالاً بهذِه آلخَصائِصِ:

رَكِبَ آلأنامُ، مِنَ الزَّمانِ، مَطِيَّةً
لَيْسَتْ كَما آعْتادَ الرّكائبُ تَبرُكُ (ل٣/٢٤٠)

وإنَّ آلكائنَ آلبشَرَيَّ في أُفُقِ آلكَوْنِ وآلفَسادِ، مَقودٌ جَبْريّاً بجَوٍّ لا يَنفُذُ منه بنَواميسِ آلعِلَلِ، أمّا آتّصالُهُ بفَعاليّاتِ آلعِلَّةِ آلأُولى فضَعيفٌ، وذلك بِنِسْبةِ آلقُربِ أو آلبُعدِ آلهندسيّةِ:

فَسادٌ وكَوْنٌ حادِثانِ، كِلاهُما
شَهيدٌ بأنّ آلخَلْقَ صُنْعُ حَكيمِ (ل٤/٢٠٠)

وسبيلُ آلإصلاحِ إضْعافُ عَمَلِ النّواميسِ في آلعِلَلِ القَريبةِ، آلّتي مِن شأنِها أن تَحجُبَ آثارَ آلعِلَّةِ آلأولى، ليَتِمَّ آلاتّصالُ الشّبيهُ بآلمُباشَرِ بآلعِلَّةِ آلأولى، وهو إنّما يَتِمُّ بالتَّوَحُّدِ ومناهِجِه، وبدونِه لا سبيلَ إلى الاتّصال.

وإنّ التّديُّنَ تَعْبيرٌ عن دَرَجة آلاتّصالِ، آلّتي هي كَمّيَّةٌ من آلانفعالِ بآثارِ آلعِلَّةِ آلأولى، أيِ آلخُروجِ من دائرةِ آلحُجُبِ وآلموانعِ... وبتعبيرٍ أوضَحَ أنْ يَعْمِدَ آلمُرَكَّبُ آلقابلُ ليَعْكُسَ صِفَةَ آلانْفعاليّةِ فِيه، فبَدلاً من أنْ تَكونَ أشدَّ بآلعِلَلِ آلقريبةِ تَكونُ أشدَّ بآلعِلَّةِ آلأولى.

وآلمعرّيُّ يعَمَلُ على أن يتَحوّلَ آلمُرَكَّبُ آلبَعيدُ إلى درجتِه قبلَ آلتّراتُبِ، مثلاً آللّهُ هو آلعِلّةُ آلأولى وخاصيتُه آلخَيْرُ مَثَلاً، فآلّذي آنبثَقَ عنه أخَذَ تَشكُّلاً ما، ولهذا آلتَّشَكُّلِ فَعاليّةٌ جَديدةٌ، أو سُلْطانٌ على مُقْتَضاهُ، فآلّذي يَنبثِقُ عنه في الدَّرجةِ الثّالثةِ يَنفَعِلُ به وأيضاً بالشّيءِ آلجديدِ فيهِ

وهكذا دَواليْكَ، دونَ أنْ تَمنَعَ ٱلعلَّةُ ٱلأُولى مِن هذا ٱلآنفعالِ.

وهذا لا يَعْني ٱلعَجْزَ أو ٱلقُدْرَةَ، لأنّ ٱلآنحرافَ واقعٌ في غيرِ جَوٍّ ٱلعِلّةَ ٱلّتي لها فيه التحكُّمُ والنُّفوذُ:

أظُــنٌّ زَمــانــي، كَــوْنَــهُ وفَــســادَه،
وَليداً، بتُرْبِ الأرْضِ يَلْهو ويَعْبَثُ (ل١/٢٥٦)

إنّ عالَمَ ٱلعِلَلِ وٱلأسْبابِ يَقْضي بتَخصيصِ ٱلفعاليّةِ، وهذا لا يَجُرُّ إلى ٱلقَوْلِ بسِلْسِلَةٍ من ٱلأربابِ، لأنّها عِلَلٌ جُزْئيّةٌ ومَقْصورةٌ على مَوْقِعها من السِّلْسِلةِ.

فواجِبُ ٱلإنسانِ، وهو ٱلطَّبيعةُ ٱلقابلةُ، أن يُضْعِفَ نَواميسَ ٱلعِلَلِ ٱلمُرَكَّبَةِ، ليتَّصِلَ بٱلعِلَّة ٱلأولى ويَكونَ مَظْهراً لها على نَحْوٍ مُباشرٍ...

وإذا تأمّلْتَ ما نَقولُ من هذا، عَلى ضَوْءِ ٱلقَلْبِ ٱلمَكانيِّ في الصَّرْفِ تَجِدُهُ وفْقَهُ. فإنّ ٱلقَلْبَ ٱلمَكانيَّ ٱلّذي هو مِثْلُ آرامٍ، جَمْع رِئْمٍ، وٱلقاعدةُ تَقْضي بأن يُجْمَعَ على أَرْآم، ولكنْ قَصْداً للآنسجامِ ٱللّفظيِّ قُلِبَ هذا ٱلقَلْب، والتَّوَحُّدُ لِذي الطّبيعةِ ٱلقابِلَةِ، قَلْبٌ مَكانيٌّ لموقِعِه من السِّلْسِلَةِ يُكْسِبُهُ ٱلآنْسِجام.

القسم العملي:
نظريّة الأخلاق

لِنُدرِكَها جيّداً يَنبغي أنْ نأخُذَها بقانونِ النّفيِ والإثباتِ، أو بقانونِ سَلْبِ السَّلْبِ، آلّذي يَضَعُها في مُعادَلةٍ عقليّةٍ وهي:

لا خيرَ ولا شرَّ مُطلقانِ، بل خَيْرٌ مَشوبٌ بدَخَن[1].

أمّا آلخِيرَةُ آلمُطْلَقةُ فَلَيْسَتْ إلّا للّهِ وحدَهُ، وآسمَعْ قولَه:

ولا تَـطْـلُـبَنَّ آلـلُّـبـابَ الـصَّـريـحَ،
فَـقَـدْ سِـيـطَ عَـالَمُـنـا، وآمـتـزَجْ (ل١/٢٩٠)

*

وآلـخَيْرُ والشَّرُّ مَـمْزوجانِ، ما آفْـتَرقا،
فكُـلُّ شَـهْـدٍ عَلَـيْـهِ الـصّـابُ مَـذْرورُ
وعـالَـمٌ فـيـهِ أضْـدادٌ، مُـقـابَـلَـةٌ،
غِـنـىً وَفَـقْـرٌ، ومَـكْـروبٌ ومَـقْـرورُ (ل٢/١٣٣)

(١) هو آلخَيْرُ آلمَدْخولُ فيه كتَمازُجِ الدُّخانِ وآللَّهَبِ فيما يَنْبَعِثُ من آلحَطَبِ آلجَزلِ، وأحْسَنَ التّعبير عنه آلمَعَرّيُّ بكنائيّةٍ جَميلةٍ: فمنْها عَلَنْدى ساطع وكباء.

وفـي هـذه ٱلأرضِ الـرَّكـودِ مَـنـابِـتٌ،
فـمِـنْـهـا عَـلَـنْـدى سـاطِـعٌ، وكِـبـاءُ (ل١/٥٠)

وهذا الرّأيُ يَنْتَهي به إلى ٱلقَوْلِ بٱلمَغْفِرةِ عَلى وَجْهِ الضَّرورةِ، قال: «وبٱلمَغْفِرةِ نِيلَتِ السُّعودُ» وتأمّلْ تَقْديمَ ٱلجارِّ وٱلمَجْرورِ، ٱلّذي يُفيدُ ٱلقَصْرَ:

ومَـغْـفِـرةُ ٱلـلّـهِ مَـرْجُـوَّةٌ،
إذا حُـبِـسَـتْ أعـظُـمـي فـي الـرَّمَـمْ (ل٤/٢٤٨)

وعليه فكُلُّ مَسائِلِ ٱلأخلاقِ نِسْبِيَّةٌ، لا سيَّما وهي مُعَدَّلةٌ ومُعَيَّنةٌ بٱلإنسانِ ذي الطّبيعةِ ٱلمَدْخولةِ قالَ:

وغَـضِـبْنا مِـن قَـوْلِ زاعِـمِ حـقٍّ،
إنّـنـا فـي أُصـولِـنـا لُـؤمـاءُ (ل١/٦٧)

*

إنْ مـازَتِ الـنّـاسَ أخْـلاقٌ يُـعـاشُ بـهـا،
فـإنّـهُـمْ عِـنْـدَ سُـوءِ الـطَّـبـعِ، أَسْـواءُ (ل١/٥٦)

أصل الإنسان

يَشُكُّ ٱلمَعرّيُّ كَثيراً في التَّفَرُّعِ من أبٍ يُدعى آدمَ وأُمٍّ تُدْعى حَوّاءَ، وتَقَدّمْنا بأنّ ٱلمعرّيَّ يَفْهَمُهُما فَهْماً رمزِيّاً خالِصاً، قال:

جــائِــزٌ أنْ يَــكــونَ آدمُ، هــذا،
قَــبْــلَــه آدمٌ عــلــى إِثْــرِ آدَمْ (ل٤/٢٤٥)

*

وما آدمٌ في مَـذْهَـبِ ٱلـعَـقْـلِ واحِـداً،
ولـكـنَّـه عِـنْـدَ ٱلـقِـيـاسِ أوادِمُ (ل٤/١٤٤)

*

أنْـتَ يـا آدمٌ، آدمُ الـسَّـوْبِ،
حَـوّاؤُك فـيـهِ، حَـوّاءُ، أو أَدْمـاءُ (ل١/٦٧)

*

وأوادِمُ الـزَّمَـنِ الـطَّـويـلِ كَـثـيـرةٌ،
وأوادِمُ الـطَّـعْـمِ الـشَّـهِـيِّ أوادِ (ل٢/٩٢)

ويَبدو جَلِيّاً أنّ ٱلقَوْلَ بأوادِمَ كثيرةٍ يُؤَدّي بالضَّرورةِ ٱلعفويّةِ إلى ٱلقَوْلِ بالتَّطوُّرِ ٱلحِياوِيِّ (البيولوجيِّ)، وهذا لا يَجْعَلُه مُنافِياً للآيةِ الكَريمة: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحْسَنِ تَقْويمٍ» (التين ٩٥:٤)، لأنَّ ٱلآيَةَ مُنْصَبَّةٌ على آدَمَ ٱلأخيرِ في مَراقي التَّطَوُّرِ عَمّا هو أدْنى، وكَانَ خَلْقُهُ ٱلأخيرُ في «أحْسَنِ تَقْويمٍ» ٱلّذي ٱنْتَهى فيه عَمَلُ التَّطوُّرِ ٱلعُضْوِيِّ إلى ما أُفْرِغَ فيه من شَكْلٍ قويمٍ.

وإذا صَحَّ هذا التَّقديرُ، فيَكونُ مِنْ أسْبَقِ مَنْ صاغَ فِكرةَ التَّطوُّرِ في ٱلإنسانِ بشكْلِها ٱلعِلميِّ، كما أرانا كيفَ تَتَلاقى نَظريّةُ ٱلتَّطَوُّرِ ٱلعِلْمِيّةُ، ونظريّةُ ٱلخَلْقِ الدينيّةُ.

وٱستِطْراداً أقولُ: إنّي لا أستبعِدُ أنّ مُفردةَ «النّاسِ» مأخوذةٌ من كَلِمةِ «نوس» "Nous" ٱلإغريقيّةِ وتعْني النَّفسَ النّاطقةَ أو القُوَّةَ ٱلعاقلةَ.

وأخْطَأ اللُّغويّونَ حينَ ظَنّوا مُفْرَدَةَ «النّاسِ» من ثُلاثيِّ «نَوَس» أيْ تحرَّكَ ذَهاباً وإياباً، وأُعِلَّتْ بتَحَرُّكِ ٱلواوِ وٱنفِتاحِ ما قبلَها، لٱنطِباقِها على صُنوفٍ من ٱلحَيَوانِ كالدَّوابِّ.

وأقولُ هذا كُلَّه بِكُلِّ تَحفُّظٍ، لأنّي لم أجِدْ عندَ ٱلمعرّيِّ ما يُومىءُ إليه من قُرْبٍ أو بُعْدٍ.

المدينة المتوحّدة

نَظَريّتُه في ٱلـمُجْتَمَعِ ٱلأَمْثَلِ، كما يتَراءى لي، تَجيءُ في عِدادِ أهمِّ نَظَريّاتِهِ. وخُلاصَتُها في إجمالٍ كلِّيٍّ: أنْ تَتلاشى ٱلجَماعاتُ كوَحداتٍ مُتَجَزّئةٍ مُتَعَدّدةٍ، لتتألّفَ في كُلٍّ مُتَوَحِّدٍ مِنْ شَتّى أقطارِهِ ونَواحيهِ، وبجَميعِ ٱتّجاهاتِه ومُيولِه، حَتّى تَجيءَ في مِثْلِ دائرةِ ٱلخَمْسَةِ شَكْلاً، وفي مِثْلِ حَقيقتِها مَعْنىً. فباطنُها واحدٌ مُكَرَّرٌ، وظاهِرُها وَحْدَةٌ عُضْوِيّةٌ لا تَنقَسِمُ إلّا في كَسْرٍ عَدَدِيٍّ وهذا فَسادٌ.

وهو، بناءً على نظريّتِه في ٱلإنسانِ وٱلطَّبيعةِ ٱلحَيّةِ فيما يُحيطُ بها من مُحرِّضاتٍ، قَليلُ الثّقةِ بإمكانِ هاتيكَ ٱلمدينةِ ٱلّتي يَفتَرِضُها ٱفتِراضاً:

مَـلَّ ٱلـمُـقـامُ، فـكَـمْ أُعـاشِـرُ أُمّـةً،
أَمَـرَتْ بـغَـيْـرِ صَـلاحِـهـا، أُمَـراؤُهـا
ظَـلَـمـوا الرَّعـيّـةَ، وٱسْـتَـجـازوا، كَـيْـدَهـا،
فَـعَـدَوْا مَـصـالِحَـهـا وَهُـمْ أُجَـراؤُهـا...
وإذا الـنُّـفـوسُ تَـجـاوزَتْ أقْـدارَهـا،
حَـذْوَ ٱلبَـعـوضِ، تَـغَـيَّـرَتْ سُـجَـراؤُهـا (ل ٦٢/١)

القيامة

يُحَدِّثُنا الشّهرستانيّ عن ٱلمانويّةِ أنّها تَقولُ: «إنّ النّورَ والظَّلامَ ٱمْتَزَجا ٱتّفاقاً، وأجزاءُ النّورِ أبداً في صُعودٍ، وأجزاءُ الظُّلمةِ أبداً في هُبوطٍ، حتّى تَتَخَلَّصَ ٱلأجْزاءُ من ٱلأجزاءِ، ويَبْطُلَ ٱلآمتزاجُ ويَصِلَ كُلٌّ إلى كُلّه وعالَمِه، وذلكَ هو ٱلقِيامةُ وٱلمَعادُ، ومِمّا يُعينُ على التّخْليصِ، التّسبيحُ والتَّقديسُ، وفي النّهايةِ تَسْقُطُ السَّماءُ على ٱلأرضِ وتَضْطَرِمُ النّارُ حتّى يَتَحَلّلَ ما فيها من النّورِ، وتكونُ مُدّةُ ٱلآضطرامِ ألفاً وأربعَمائةٍ وثمانياً وستّينَ سنةً»[1].

ونَرى في ٱلقُرآنِ، حِكايةً عن إبراهيم «قال: رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحْيي ٱلْمَوْتى، قَالَ: أَوَ لَمْ تُؤمِنْ؟ قال: بَلى، ولكِنْ لِيَطمَئِنَّ قَلْبي. قال: فَخُذْ أرْبَعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنّ إليكَ، ثم ٱجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنّ جُزْءاً، ثُمّ ٱدْعُهُنّ يأْتينَكَ سَعْياً، وٱعْلَمْ أنّ ٱللّهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ» (البقرة ٢:٢٦٠).

نحنُ لا نَرْتابُ هُنا، بِناءً على التَّصوُّرِ ٱلعامِّ وٱلأساسِ ٱلفَلسفيِّ، أنّ

(١) الملل والنحل للشّهرستانيّ، ٢/٦٨.

ٱلـمَعَرّيُّ يَرى ٱلقِيامةَ في حُدودِ ٱلآستحالةِ إلى «فَوْق» بٱلتَّوَحُّدِ أو بلُغةِ ٱلقُرآنِ «لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي»، وفي حُدودِ ٱلآستحالةِ إلى «تَحْت» بٱلآندماجِ بالطّبيعةِ آنْدماجاً كُلّيّاً... ورأيُه في «ٱلـجَنَّة» أنّها تَوَحُّدُ ٱلـمُتَّقيـنَ بٱلعَقْلِ ٱلكُلّيِّ، وهو لا يُنْكِرُ السَّعادةَ بهذا التَّوَحُّدِ أُخرَوِيّاً... ورأيُه في «النّار» أنّها ٱلآندماجُ بالطّبيعةِ وكلُّها أرزاءٌ وبأساءُ، وهو لا يُنْكِرُ الشّقاوةَ بهذا ٱلآندماجِ أُخُرَوِيّاً، وتأمّلِ ٱلآيةَ ٱلّتي كانَ لا يَفْتَأُ يُرَدِّدُها: «وإنّ جَهَنَّمَ لـمُحيطةٌ بالكافِرين» (التوبة ٩:٥٠).

وهو يُنكِرُ في **اللّزوميّات** إنكاراً قاطِعاً ما تَقولُ به ٱلمانويّةُ، من شأنِ ٱلمَعادِ على الشّكْلِ ٱلّذي تَقدّمْنا بذِكْرِه... وإنْ كُنّا نَجِدُ عندَه أثراً لِما يَزعُمُهُ أبو سعيدٍ ٱلـمانويُّ من «أنّ للمِزاجِ مُدّةً ويَعْقُبه ٱلـخَلاصُ ٱلكُلّيُّ وآنحلالُ التّراكيبِ». وإنّ ما ذَكَرْناه من تَصَوُّرِ ٱلـمعرّيِّ العامِّ يَجعَلُنا نَقْضي بأنّه لا يَبْعُدُ عنه كَثيراً.

أسلوب التوحُّد التعبيري

كانَ بِوُدّي أن أتَحدّثَ طَويلاً عن نظريّةِ التَّوَحُّدِ، وعن كُنْهِهِ وعنْ مَناهِجِه وما يلزَمُ فيه، وإنْ كانَ من السَّهلِ على كُلِّ ناظرٍ في **اللّزوميّات** أنْ يَستَخْلِصَها، بَيْدَ أنّ ضيقَ آلمقامِ يَمنعُني آلآنَ عن أيِّ أخذٍ بسبيلِه، لأجِدَ ولو مُتَّسَعاً قليلاً لأفْرَغَ للكلامِ في أُسلوبِ التَّوحُّدِ التَّعبيريّ.

بِنَظْرَةٍ سَريعةٍ نُلْقيها على أيِّ كِتابٍ من كُتُبِ آلمعرّيِّ، نَقتَنِعُ بأنّه آلْتزَمَ طَريقةً بعَينِها، لـم تكُنْ لِمَحْضِ التَّطَرُّفِ أو التَّعْبيرِ عن آلقُدرةِ آلفائقةِ في آلغَريبِ وآلإنشاءِ، بلْ هي أُسلوبٌ في آلكِتابةِ مِثْلُها في آلفِكْر.

فهو يَتَزَيّدُ من آلمُشْتَرَكِ آللّفظيِّ إلى حَدٍّ كبيرٍ، حَتّى ليَجعَلُهُ وَحْدَةَ آلقِطعةِ آلّتي يَصيغُها، ويَتَزَيّدُ من آلكِنايةِ وآلمَلاحِن وآلمَجازِ وآلرَّمْزيَّةِ آلبَعيدةِ.

وذلك لأنّ آلمعرّيَّ يَقْصِدُ إلى آلإغراءِ بآلإدراكِ آلتَّجْريديِّ آلبَحْتِ، بآلفِكْرِ آلكُلّيِّ آلخالِصِ، حَتّى ليَحْيا آلمَرْءُ مَعَهُ في عالـمٍ تَجْريديٍّ من أقْطارِه، وهذا سَبيلُه بها.

فإنَّ الرَّمْزيّةَ تَوَحُّدٌ بالنَّظرِ إلى الصَّرائِحِ، وهي تَمْرينٌ وحِذْقٌ لتَنْمِيَةِ ٱلآستعدادِ ٱلإطلاقيِّ، كما أنّها عَبَثٌ بٱلمُصْطَلَحِ ٱلفِكْريِّ في ٱلألفاظِ وٱنفرادٌ وعُزلةٌ. وهذا ٱلعَبَثُ في ٱللَّفظِ صِنْوُ عَبَثِه بالتَّقاليد وٱلعقائِد.

والرَّمزيّةُ، بَعْدَ ذلكَ، عامِلٌ مُهِمٌّ بسَبيلِ ٱلخُروجِ من أسْرِ ٱلألْفاظِ وقُيودِها وأجوائِها ٱلمُسْتَحْجِرَةِ... وكما أنّ ٱلمعرّيَّ نشَرَ دَعْوَةَ التَّوَحُّدِ بسَبيلِ فِطْرَةٍ عَقْليّةٍ جَديدةٍ، نَشَرَ رَمزيّتَها بسَبيلِ مَنْطقٍ فِكْرٍ جديدٍ.

ومِن وَراءِ ذلك كُلِّهِ، أرادَ ٱلمعرّيُّ أنْ يُقنِعَنا بأنَّ ٱللَّفظَ هو ٱلجَوْهَرُ الثّابتُ ٱلّذي ٱسْتَوتْ فيه ٱلآستحالاتُ السّابقةُ في سِلْسِلَةِ النِّظامِ ٱللُّغويِّ. وٱلمَعْنى ٱنفعالاتُ ٱللّفْظِ ٱلعارضةُ بٱلعِلَلِ ٱلوجوديّةِ ٱلفاعلةِ، ٱلّتي تَطْغَى على ٱلعِلَّةِ ٱلغائيّةِ وتَحْجُبُها، وٱلعلّةُ ٱلغائيّةُ هي ٱلعَقْلُ، وهو في ٱللَّفْظِ كِنايتُه.

ومن ٱلمُلاحَظِ أنّ ٱللَّفظَ لا يَموتُ، وإنّما يَموتُ فيه ٱلمَعْنى بمَجازِه، ٱلّذي يُصْبِحُ حَقيقةً لمجازٍ جديدٍ، وهكذا دَواليكَ. وهذه وُجْهَةُ نَظَرٍ دَقيقةٌ، فإنَّ ٱللَّفظَ، كما نَعرِفُ، هو الثّابتُ وهو ٱلمَوْجودُ ٱللُّغويُّ وَحْدَه، وأمّا ٱلمَعْنى فيَطْرَأُ ويُعْدَمُ بٱلمُلابساتِ أو ٱلمُحَرِّضاتِ، ويَتَحَوَّلُ أو يَتَلاشى مِثْلَ ٱلأعْراض...

*

هذا أبو ٱلعلاءِ إجمالاً كما ٱتَّفَقَ لي ٱستنتاجُه من غُضونِ كلامِه، وحديثُه طَويلٌ لو تَوَفَّرْنا على عَرْضِهِ كما يَقْتَضي ٱلعَرْضُ، ولكنْ يُمكِنُني أن أقولَ، وكُلّي ٱقتناعٌ وٱعْتِدادٌ، بأنّ ٱلمَعَرّيَّ فِكْرةٌ جديدةٌ وفَلسفةٌ جَديدةٌ ومَنْطِقٌ جَديدٌ.

ومِن ٱلخَيْرِ أن نَدْرُسَهُ كَثيراً ونَتَفَهّمَهُ طَويلاً، فإنّه قِمّةٌ من أسْمى قِمَمٍ

ٱلفِكْرِ ٱلعربيِّ الضّائعةِ في عُزلتِها...

وأخيراً، قَدْحٌ بٱلمعرّيّ، وقَدْحٌ كَبيرٌ، أنْ يُتَّهمَ بٱلعَدَميّةِ. وٱلحقُّ أنّه لم يَكُنْ ذلك وإنْ ٱمتلأتْ كُتُبُه بآثارِهِ ووَحْيِه، فهو إن تَشاءمَ فليسَ إلّا كما يتَشاءمُ مَنْ يَرى ٱلفَسادَ ويَلْمِسُهُ، ثُمّ يُحاوِلُ ٱلحَدَّ منه، وفي مُحاوَلَتِه ٱلحَدَّ منه تَفاؤليّةٌ لا رَيْبَ فيها.

فليسَ ٱلفَسادُ في ٱلحَقيقةِ، في صَميمِها، وإن كانَ ٱلفَسادُ عليها في قُشورِها وأغطيتِها، وٱلمَعَرّيُّ لم يَفْتَأْ ضارِباً عليْها بمِعْوَلِه، قَصْدَ ٱلجَوْهَرِ، قَصْدَ ٱللُّبابِ:

القَلْبُ كٱلماءِ، وٱلأهْواءُ طافِيَةٌ
عليهِ، مِثْلَ حَبابِ ٱلماءِ في ٱلماءِ (ل١/٧٥)

في منشورات دار الجديد
من مؤلّفات
الشيخ عبداللّه العلايلي

□ **أين الخطأ؟ ـ تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد.**

طبعة ثانية مزيدة ومُنقّحة، ١٩٩٢.

□ **مَثَلُهُنَّ الأعلى ـ السيدة خديجة.**

طبعة ثانية ومُنقّحة، ١٩٩٢.

□ **من أيّام النّبوّة ـ مشاهد وقصص.**

طبعة ثانية ومُنقّحة، ١٩٩٣.

□ **تاريخ الحسين ـ نقد وتحليل.**

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٤.

□ **مُقدّمات ـ لا محيد عن درسها جيّداً ـ لفهم التاريخ العربي**
(مستلّ من: تاريخ الحسين ـ نقد وتحليل).

طبعة أُولى، ١٩٩٤.

... ومهما يَكُنْ، فشِعاري في هذا الكتابِ، مِثْلُهُ في كتابٍ سابقٍ، «ليسَتْ تَمْنَعُني غرابةُ رأيٍ أظنُّ أنّه صحيح أو أعتقدُ صِحَّتَهُ من إبدائِه، كما لا يحولُ بَيْني وبَيْنَ رأيٍ أنّه قليلُ الأنصار. فإنَّ الحَقيقةَ لم تَعُدْ تُنالُ بالتَّصويتِ، كما أنّ الانتخابَ من عَمَلِ الطَّبيعةِ وهي لا تُغالِطُ نفسَها كما لا تَعْمِدُ إلى التَّزوير».

العلايلي



9782910355197

ISBN: 2-910355-29-2